

صباح الدين علي

مادونا
صاحبة معطف الفرو

ترجمها عن التركية جهاد الأماسي



صباح الدين علي

مادونا

صاحبة معطف الفرو

رواية

ترجمها عن التركية

جهد الأماصي



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي Kürk Mantolu Madonna
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونيا من: Telif Haklan ONK Ajans
Ltd Sti بمقتضى الإتفاق الخطي الموقع مع دار أثر للنشر والتوزيع.

Copyright©1943 Sabahattin Ali

The SAID Work is protected by the international copyright
conventions.

This book published with the arrangements of Telif Haklan ONK

Ajans Ltd Sti

All rights reserved

الطبعة الأولى

2015 / 1436

ردمك: 6 - 341 - 883 - 993 - 978



المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون : 00966505774560

الموقع الإلكتروني : www.darathar.net

Email: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية
أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل
على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ
المعلومات, واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

بما أن هذه الترجمة تعد أول تجربة لي أود أن أتقدم بالشكر للصدیق العزیز راضی الشمري علی تحفیزه لی وإلهامه لی بفكرة خوض التجربة. راضی، عاشق الروایات النهم، شكی لی مرة من عدم وجود ترجمة عربية لروایة تركية وجدها تترأس قائمتین، أولهما قائمة أفضل الكتب مبيعاً فی تركيا رغم نشرها قبل ما یقارب السبعین عاماً. والثانية قائمة أفضل الروایات التركية فی موقع الكترونی عالمی للقراءة. وطرح علی فكرة ترجمتها ومع إلحاحه أخبرته بأنی سأحاول. وهذه النتيجة بین أیدیكم.

أتقدم بشكري أيضاً لكل من ساعدنی فی إنجاز الترجمة من الأصدقاء العرب والأترک. أخص منهم العزیزة ستناي جوهر لإيضاحها ما استعصى علی من الكلمات والجمل أو الرفیق أنس العمري لما بذله من جهد فی المراجعة والتحرير. وبما أنني أتمت هذه الترجمة فی آخر سنواتی الجامعية فإنی أهديها للرفاق والأصدقاء الذین جمعنا فیها الجامعة لسنوات قصيرة كانت جمیلة بهم فقط.

وأخص بالذكر..

هادي فقیهي، وفیصل الشریف، وأنس العمري، وعبدالعزیز المطرفي وأحمد بادغیش، وإبراهیم حسینون، وأنور الحازمي

جهاد الأماسي

صباح الدين علي

ولد صباح الدين علي في مدينة كومولجينة في الإمبراطورية العثمانية -والتي تقع الآن في دولة بلغاريا- شباط عام 1907. وقتل عام 1948 في كركلاري وسط ظروف غامضة. صباح الدين الذي تخرج كمعلم في إسطنبول، وبعد أن مارس التعليم سنة كاملة في يوزغات، أُرسِل بواسطة وزارة التعليم إلى ألمانيا في سنة 1928. وبعد أن عاد في 1930 عمل كمدرسٍ للألمانية في أيدن وقونيا وأنقرة، ثم كموظفٍ في إدارة النشر، وكنايب مدير في معهد الموسيقى الحكومي. أسس في إسطنبول مجلةً ساخرةً تحت اسم ماكروباشا. وفي عام 1948 أُلقي القبض عليه بسبب بعض كتاباته وسُجن لمدة ثلاثة أشهر. ولكونه تحت المراقبة الدائمة أراد الهرب إلى خارج تركيا، ويُقال بأنه أحد المهربين قتله وهو يحاول التسلل عبر الحدود. كتب أشعاراً، حكاياتٍ وروايات، وقام بترجماتٍ أيضاً. نُشر أول ما كتبه في صحيفة عام 1925. وفي ثلاثينات القرن العشرين أدخل صباح الدين نَفْساً واقعيّاً وجديداً للحكاية. برع في حكاياته في وصف معاناة أبطاله وبؤسهم بأسلوبٍ متمكن. وفي

رواياته أمسك في مقابل روح الإنسان بمرآة ونظر إلى الواقع من خلالها. في رواياته الثلاث، يوسف الكويوجاكي (1937)، الشيطان في داخلنا (1940)، ومادونا صاحبة معطف الفرو ثبت طريقته الواقعية للقراء. بدأ صباح الدين في كتابة رواية مادونا صاحبة معطف الفرو داخل خيمة عندما كان في الجيش للمرة الثانية، ونشرها في البداية مفرقةً في مجلة الحقيقة في الفترة الواقعة بين نوفمبر 1940 و فبراير 1941 تحت عنوان (حكاية كبيرة).

قد يكون الإنسان الذي قابلته صدفةً صاحب أكبر تأثير علي في حياتي حتى الآن. فرغم مرور أشهر على الحادثة إلا أنني لم أفلت من تأثيره علي بعد. متى ما اختليت بنفسي، يعود وجه رائف أفندي الصافي والمبتعد عن الدنيا قليلاً، بنظراته التي تجعلك راغباً في الابتسام لأي إنسان تصادفه في حياتك. لم يكن انساناً مميزاً أو غير إعتيادي، بل كان شخصاً عادياً بلا مزيةٍ مختلفة. كان مثل مئات الأشخاص الذين لا يلتفتون أنظارنا بينما نمشي في الطرقات كل يوم. من المؤكد بأنه لم يكن في حياته أي شيء يثير الإهتمام لأي إنسان حوله، سواء عرفناه أو لم نعرفه. عندما نرى مثل هؤلاء الأشخاص دائماً مانسأل أنفسنا: (لماذا يعيش هؤلاء الناس ياترى؟ ماذا يرون في العيش؟ أي منطقٍ وأي حكمةٍ تأمرهم بالتنفس والتسكع في كل مكانٍ على وجه الأرض؟). لكننا عندما نفكر بهذه الطريقة فإننا ننظر إلى مظاهر هؤلاء الناس فقط، ولا نفكر بوجود عقولٍ داخل رؤوسهم؛ والتي هي - شاؤوا أم أبوا - محكومةٌ بالعمل والتفكير، ولذلك فكل امرئ منهم له عالم كامن في داخله ولانحس به. ربما لو أننا نظرنا إلى دواخلهم التي لا تظهر لنا، ووقفنا موقف الحكم مما يعيشونه داخلياً، لو أثار هذا العالم المجهول فضولنا، فلربما رأينا أشياء لم تكن نتخيلها أبداً وأصبحت مقابلتنا لأغنياء النفوس ممكنة. لكن الناس - ولسببٍ ما - يفضلون ما ألفوه

وعرفوه مسبقاً على ما يمكن أن يكتشفوه. أن تجد بطلاً له من الشجاعة ما يكفي للنزول في بئر يحوي تينياً في أسفله هو أسهل من إيجاد شجاع مستعد للنزول إلى بئر مجهول الأعماق. حتى أنا لم أعرف رائف أفندي عن قرب، مجرد أثر لصدفة عابرة.

لم أعرف لماذا فصلوني عن عملي في البنك الصغير بعدما أخرجوني منه. قالوا لي أن القرار كان لأجل تقليل المصروفات، لكنهم وظفوا رجلاً آخر مكاني في الأسبوع التالي. بحثت لمدة طويلة في أنقرة عن عمل. أمّنت لي قروشي المتبقية العيش في شهور الصيف، لكن الشتاء الذي كان على الأبواب حتم عليّ التوقف عن النوم في غرف الأصدقاء وعلى مقاعد الحدائق. فليس معي ما يكفي من النقود حتى لأكل أيّ شيء في المطعم الذي ستنتهي رخصته قريباً. ورغم أني أعرف أن نتائجها لن تعلن أبداً، إلا أن عدم إعلان نتائج امتحانات القبول الوظيفية الكثيرة التي دخلتها كان يثير حزني. عندما كنت أتلقى ردهم بالرفض بعد تقدّمي للعمل في المتاجر، ومن دون علم أصدقائي، كنت أتجول يائساً قانطاً حتى أنصاف الليالي. لم أنسّ وضعي البائس حتى عندما كان بعض المعارف يدعونني لطاومات الشراب بين الحين والآخر. الغريب في الأمر، أنه ومع تزايد همومي ووصول حاجتي وفاقتي إلى حدٍ لا يحتمل، كان ترددي وخجلي يتناميان أيضاً. حتى معارف الذين سعوا لأجل إيجاد عمل لي سابقاً، ورغم أنني لم أر منهم معاملة سيئة، إلا أنني كنت عندما أصادف أيّاً منهم في أحد الأزقة أحنى رأسي وأحاول المرور بسرعة. تغيّرت حتى على أصدقائي الذين أطعموني مجاناً حين توسلتهم، وأعاروني نقودهم بلا

تلمل. حينما يسألونني «كيف حالك؟»، كنت أرد عليهم مع ابتسامة بسيطة «ليس سيئاً... أتدبر أعمالاً مؤقتة فقط!» وأهرب. كل ما ازدادت حاجتي إلى الناس، ازدادت معها رغبتي في الهروب منهم أيضاً. في مساء أحد الأيام، كنت أمشي ببطيء في طريق يخلو من الناس بين المعرض والمحطة، أسعى لملء صدري بربيع أنقرة البديع من باب زرع التفاؤل في روحي. كل شيء بدأ ممتناً لوجوده، ابتداءً من الشمس التي كانت بانعكاسها على زجاج مبنى الإصلاحية تخنق مبنى المرمر الأبيض في ثقوب بلون الدم، مروراً بالدخان الذي يعتلي أشجار الأكاسيا وشتلات الأرز، وذلك الذي كان ضباباً أو غباراً.. لم أعرف ماهو، والعاملون المحدودبون الخارجون بملابسهم المهترئة في صمتٍ من مكان الإنشاءات، والإسفلت المختوم بآثار إطارات السيارات.. كلهم كانوا يشعرون بالامتنان لوجودهم.

كل شيء كان يتم قبوله من الناس كما هو. في هذه الحال لم يكن يبقى لي شيءٌ لأفعله أو أسعى لأجله. بينما أنا هناك مرت من جانبي سيارة مسرعة. عندما التفتُ ونظرت إلى السيارة ظننت أنني أعرف الوجه الذي كان خلف الزجاج. بعد خمس أو عشرة خطوات توقفت السيارة وفتح بابها. كان صاحب السيارة هو حمدي، أحد أصدقاء المدرسة. أطل برأسه، ثم دعاني.

مشيت بمحاذاة السيارة.

- «إلى أين أنت ذاهب؟» سألني حمدي.

- «لا مكان، أتمشى فقط»

- «تعال ، لنذهب إلى بيتي!»

أخلى لي مكاناً بجانبه دون أن ينتظر جوابي. أخبرني أنه كان عائداً من جولة في مصانع الشركة التي كان يعمل بها.

- «أخبرتهم بالتلغراف أنني قادم، أعتقد أنهم تجهزوا القدومي. وإلا لم أكن لأجرؤ على دعوتك!» قال حمدي، فضحكت.

لم أرى حمدي منذ فصلت من البنك. اعتدت أن أراه في الماضي كثيراً. كنت أعلم أنه يعمل كسمسار مكائن. وفي نفس الوقت كان مديراً معاوناً يتقاضى مرتباً جيداً جداً في شركة نشاطها يتعلق بالغابات والخشب. لم أطلب مساعدته أثناء بطالتي وبحثي عن العمل لأنني ترددت خوفاً أن يظن أنني جئت إليه لطلب المال وليس للبحث عن عمل.

- «هل لا زلت تعمل في البنك؟» سأل حمدي.

- «لا، تركت العمل هناك.»

تعجب: «إلى أين ذهبت؟»

أجبتة على مضمض: «لامكان محدد.»

تفحصني بنظراته من رأسي إلى قدمي، نظر إلى ملابسي، لا بد أن يكون قد ندم على دعوته إياي لمنزله. ربّت ودياً على كتفي مبتسماً وقال: «ستتحدث في المساء ونجد حلاً، لا تقلق!».

كان يبدو واثقاً من نفسه ومسروراً من حاله، ذلك يعني أنه وصل إلى درجة رفاهية تسمح له حتى بمساعدة معارفه.. حسدته. كان يسكن في بيتٍ صغير ولكنه لطيف، وله زوجة دميمةٌ قليلاً ولكنها قريبة من القلب، قبلوا بعضهم بجانبني من دون أي حرج. تركني بعدها حمدي

وحيداً وذهب للاغتسال. بقيت متسماً مكاناً في وسط غرفة الضيوف من دون أن أعرف ماذا علي أن أفعل لأنه لم يعرفني على زوجته. كانت زوجته تتفحصني خلسة وهي واقفة بجانب الباب. فكرت لمدة، غالباً أنه غاب عن ذهنها قول "تفضل، اجلس". لكنها خرجت بعد أن ارتأت أن لا لزوم لفعل ذلك.

فكرت في سبب إكرام حمدي لي. وهو نفسه حمدي الذي لم يكن مهملاً في يوم من الأيام، والذي كان اهتمامه وحرصه الزائدين سبباً كبيراً لمعظم نجاحاته. كان من أحد العادات الأساسية للرجال الذين ينتقلون لمواقع مهمة تجاهلهم لأصدقائهم القدامى، والأقل منهم درجةً بالذات. وحتى من كانوا يخاطبونهم في ذلك الزمان بـ "أنتم" - احتراماً - صاروا فجأةً يخاطبونهم بـ "أنت". وبكل تواضع وود وحنان أبوي. يقاطعون جملة محدثهم لطرح أسئلة عشوائية لا معنى لها. ويرون هذا التصرف طبيعياً جداً، بل يفعلونه مع ابتسامة مليئة بالشفقة والعطف. بسبب مواجهتي لكل هذا في الفترة الأخيرة واعتيادي عليه، لم يخاطر علي بالي حتى أن أغضب من حمدي. فكرت فقط في أن أنهض وأخرج من دون استئذان كي أنقذ نفسي من هذا الوضع. لكن فجأةً، جاءت عجوز قروية متحجبةً ومتأزرّةً بالبياض، ترتدي جوارب مرقعة وقدمت لي القهوة دون أن تصدر أي صوت. جلستُ على أحد الأرائك المطرزة بالزهور الذهبية ونظرت حولي. حتى على الجدار كانت هناك صور فنية وعائلية، وفي الركن كان على ما يبدو أنه رف كتب للسيدة، بالإضافة إلى عدة مجلات موضوعة مع بعض الروايات الرخيصة. تحت قاعدة السجائر

كانت هنالك عدة ألبومات يبدو أنها بُعثرت بفعل بعض الضيوف. تناولت أحدها لأنني لم أعرف ماذا أفعل، وقبل أن أفتحها ظهر حمدي عند الباب، وهو يسرح شعره المبلل بإحدى يديه وبالأخرى يقفل أزرار قميصه الإفرنجي الأبيض.

- "ها، لنر كيف حالك. احك لنا." سأل.

- "لاشيء.. أخبرتك يا رجل!"

كان يبدو مسروراً من مقابله لي مصادفة. من المحتمل أنه كان مسروراً لقدرته على التباهي بالمناصب التي وصل إليها، أو أنه كان مسروراً لأنه لم يكن مثلي، وهو يراني على هذه الحال. لسبب ما، وعندما تحقّق مصيبة بأحد الأشخاص الذين كنا نعاشرهم لفترة، ونرى أنواع البلاء والهموم التي وقعت عليهم، فإننا نشعر بارتياح لأنها لم تقع علينا نحن. كأننا بشكل أو بآخر، نريد أن نبدي لهم الشفقة والعطف كنوع من أنواع الشكر، لما تحملوه مما كان من الممكن أن يحصل لنا. كان حمدي يبدو وكأنه يخاطبني بنفس الإحساس. سألني: «هل تكتب؟»

- "أحياناً.. قصيدة، أو حكاية!"

- "هل تعود عليك بفائدة على الأقل؟"

ضحكت مجدداً، قبل أن يقول: «اترك هذه الأشياء يا عزيزي! فشيء مثل الأدب يصبح تافهاً وربما ضاراً خارج صفوف المدرسة، لا يفيدك في حياتك العملية أبداً.» كان يتكلم وكأنه يعطي نصيحة لطفل صغير، من دون أن ينتظر جواباً أو نقاشاً. لم يكن متردداً لأن يريني أن هذه الجسارة في الكلام هي أحد الأشياء التي اكتسبها من نجاحاته في الحياة، قابلته

بابتسامة بلهاء مناسبة ونظرات مليئة بالإعجاب والتشجيع.
”مرّ عليّ غداً صباحاً“، قال لي. ”لنرى، سنفكر في شيء ما. أنت ولدٌ ذكي، أعرف ذلك، لم تكن مجتهداً في عملك، لكن لا أهمية لذلك. الحياة وضرورياتها تعلم الإنسان الكثير. لاتنس، تعال مبكراً وقابلني!“. كان يبدو ناسياً بينما يقول هذا الكلام أنه كان من أكسل الكسالى في المدرسة، أو أنه كان يتكلم براحةٍ تامةٍ لعلمه بأني لن أواجه بهذه الحقيقة هنا.
تحرك كأنه على وشك النهوض، نهضت حالاً ومددت يدي:
- ”اسمح لي!“.

- ”لماذا عزيزي؟ مازال الوقت مبكراً... لكن أنت ادري! كما تريد.“
نسيت أنه قد دعاني للطعام. تذكرت ذلك في هذه اللحظة، يبدو أيضاً أنه قد نسي ذلك. اتجهت بوجهي إلى الباب وأنزلت قبعتي وقلت: «
تحياقي إلى السيدة!»

- ”حسناً حسناً، مرني غداً! ولا تقلق عزيزي.“ قالها وهو يرتب على ظهري.
لم يكن الظلام شديداً عندما خرجت، كانت مصابيح الإنارة مشتعلة. أخذت نفساً عميقاً، مع أن الهواء كان مختلطاً بالغبار إلا أنني أحسست أنه كان نظيفاً جداً ومنعشاً. فمشيت ببطء.

في اليوم التالي، وقبل الظهر، ذهبت إلى شركة حمدي. رغم أنني عندما خرجت من بيته البارحة لم أكن أنتوي العودة إليه مجدداً. لم يكن هناك وعد صريحٌ على أي حال. ”لنر، سنفكر في شيء، سنفعل شيئاً!“.
أحسست به كأني ردّ اعتدت أن أسمعها عندما كنت أبحث عن عمل. لكنني رغم ذلك ذهبت إليه. كان في داخلي أكثر من مجرد أمل. لسبب

ما، كانت عندي رغبة في أن أرى نفسي مُهاناً. كنت أريد أن أقول لنفسي: "مساء البارحة أنصتَ دون أن تصدر أي صوت، وارتضيت لنفسك أن يعاملك كوليّ نعمتك. لمر ماذا سيجلب كل هذا، تستحق ذلك."

أخذني الخادم أولاً لغرفة صغيرة وجعلني أنتظر. عندما دخلت إلى حمدي وجدتني أبتسم نفس ابتسامة البارحة البلهاء و غضبت من نفسي أكثر. كان حمدي مشغولاً بكثير من الموظفين الداخليين والخارجين، والعديد من الأوراق الموضوعه أمامه. أشار لي برأسه إلى كرسيّ واستمر في عمله. جلست من دون أن أجرؤ على مصافحته. أصبحت أراه الآن كمديري فعلاً، بل أحسست وبدهشة أنه ولي نعمتي، وبأنني أستحق كل هذه المعاملة الوضيعة. صديق المدرسة القديم الذي أخذني في سيارته البارحة والموقف الذي حصل لنا خلال ما لا يزيد عن اثنتي عشرة ساعة! تلك العوامل المنظمة للعلاقات بين الناس، كم هي مثيرة للضحك و سطحية وفارغة، وعلاقتها بالإنسانية ضعيفة جداً.

لم تتغير أنا وحمدي عما كنا عليه من مساء البارحة، في الحقيقة كنا كما نحن في السابق. ورغم ذلك، ساقطنا الأشياء التي عرفها عني، والأشياء التي أعرفها عنه، وبعض الأشياء العائدة لبعض التفاصيل الصغيرة، إلى اتجاهاتٍ مختلفة. الغريب في الموضوع، أن كلانا كنا قابلين بهذا الاختلاف ونجده طبيعياً. غضبي لم يكن على حمدي، ولا على نفسي، بل على وجودي هنا فقط. عندما خف ازدحام الغرفة، رفع صديقي رأسه وقال: "وجدت لك عملاً!". ثم زاد وهو ينظر إليّ بتلك النظرات الواثقة: "أعني أني أوجدت لك عملاً، ليس بالعمل المتعب. ستتابع

بعض الأعمال في بنكنا وفي بعض البنوك الأخرى. مثل موظف الاتصال بين الشركة والبنوك. وفي أوقات فراغك تجلس بالداخل وتقوم بأعمالك الخاصة، اكتب الشعر كما تريد. لقد تكلمت مع المدير، وسوف نعيّنك. لكننا لن نعطيك الكثير في الفترة الحالية: أربع وخمسون ليرة. ستزيد مع الوقت طبعاً. هيا! بالتوفيق!“.

مد يده إليّ مصافحاً قبل أن ينهض. نهضت وشكرته. كان هناك سرورٌ ودّي يتبدى في وجهه بسبب ما فعله لي. لم يكن حمدي بالشخص السيء، لكن ربما كان مايفعله في الحقيقة من مقتضيات العمل الذي يقوم به. عندما خرجت ووقفت في الردهة لمدة من الزمن، وترددت بين أن أدخل الغرفة التي أشار عليّ بأن أذهب إليها وبين أن أترك المكان وأخرج. ثم ببطء، ورأسي منحنيّ للأمام، مشيت عدة خطوات وسألت أول خادم صادفته عن غرفة رائف أفندي. أشار لي الخادم بيده إلى باب غير محدد وذهب. توقفت مجدداً. لماذا لم أكن قادراً على ترك المكان والخروج من المبنى؟ ألا أستطيع التضحية بأربع وخمسين ليرة شهرية؟ أو ربما لأنني خائفٌ أن يكون تصرفي معيباً أمام حمدي؟ لا! كانت الشهور الطويلة لبطالتي، وعدم معرفتي أين أذهب إذا خرجت من هنا وأين سأبحث عن عمل، ووقوعي الحالي ببرائث الإحباط.. كان كل ذلك هو ماجعلني أبقى في هذه الردهة المظلمة وأنتظر خادماً آخر.

أخيراً، وصلت إلى الباب ورأيت رائف أفندي في الداخل. لم أكن أعرفه من قبل. ورغم ذلك عندما رأيته منحنيّاً على مكتبه عرفت فوراً أنه هو. فكرت لاحقاً بمصدر هذه القناعة. قال لي حمدي: ”وضعنا لك مكتباً

في غرفة مترجم الألمانية رائف أفندي، رجل بسيط وهادئ، مشغول بنفسه، ولا يصيب ضرره أحداً". رغم أن الجميع يستخدم لقب سيد وسيدة هذه الأيام، إلا أنهم مازالوا يستخدمون لقب أفندي عندما يتحدثون عن رائف⁽¹⁾. يجتمل أن يكون ذلك اللقب هو ما جعلني أتخيل رجلاً غير الرجل ذي الشعر المجعد، والنظارة الدائرية والذقن غير الحليقة الذي أراه امامي. وهذا ما جعلني أدخل من دون تردد. رفع رأسه ونظر إليّ بعيون متفحصة.

- «أنتم رائف أفندي، أليس كذلك؟»، سألته.

نظر إليّ متفحصاً لفترة، ثم قال لي بصوت خفيف ومرتبك:

- "نعم أنا هو! وأنتم الموظف الجديد؟ على كل حال تفضلوا. أهلاً وسهلاً."

جلست على الكرسي. بدأت بالنظر في بقع الحبر الباهتة والرسومات على مكثبي. وكما هو المعتاد عندما يجلس المرء مقابل شخص غريب، بدأت وبعيون متلصصة أدقق النظر في زميل غرفتي رغبةً في تكوين الانطباع الأول والخاطيء بطبيعة الحال عنه. لكنه عندما لم يشعر بمرادي هذا، وعندما أطرق مجدداً وعكف على إكمال عمله، أحسست بأنه كان مشغولاً لدرجة أنه لم يحس بوجودي.

استمر الحال هكذا إلى الظهر. أصبحت الآن أسرح بعيني بكل حرية

(1) أُلغى استخدام الكثير من الكلمات العثمانية مع إنشاء الجمهورية التركية الحديثة، وأفندي

من بينها وهو لقب عثمانى بمعنى السيد ويطلق على المتعلمين في الأغلب. - المترجم.

في الشخص المقابل لي. بدأ يزيل قبعته عن شعره القصير. كان يمد يده إلى تجاعيده، والتي تمتد من أسفل أذنيه الصغيرتين إلى نحره. يتمشى بأصابعه الطويلة والنحيلة بين الأوراق، ويقوم بالترجمة من دون كلل. بين الحين والآخر، عندما يفكر في كلمة لم يجدها ويرفع عينيه فتلقتني نظراتنا، كان يحدث شيء في وجهه يشبه الإبتسامة. ورغم أنه يبدو كبيراً في السن، إلا أنه عندما يبتسم كانت تبدو على وجهه تعابير طفولية بريئة. كانت شواربه الصفراء والمحددة من الأسفل تزيد من قوة هذه التعابير. عندما كنت ذاهباً لتناول الطعام قبل الظهر، ومن دون أن يصدر ضجة، أخرج من أحد أدراج مكتبهحافظة طعام وخبزاً ملفوفاً بالورق. قلت له ”بالعافية“ وخرجت.

رغم أننا كنا جالسين مقابل بعضنا لأيام، إلا أننا لم نتكلم في شيء. كنت قد تعرفت على كثير من الموظفين في الخدمات الأخرى، وبدأت في الخروج معهم إلى القهوة لنلعب ”الطاولة“. علمت منهم أن رائف أفندي أحد أقدم الموظفين في المؤسسة. وقبل تأسيس الشركة، كان مترجماً في البنك الذي ترتبط الشركة معه الآن، لا أحد يتذكر متى غير عمله. يُقال أنه يتقاضى ما بالكاد يكفيه ويكفي عائلته الكبيرة. وعندما يسأل أحد عن سبب عدم زيادة راتبه، رغم خبرته ومدة خدمته وعمله في شركة تتقاضى الكثير من عملائها، كانوا يقولون: ”لأنه أحد الخرفين، لا يُعرف حتى إن ما كان متقناً لأي لغة“.

علمت لاحقاً بأن ألمانيتها كانت جيدة للغاية وأن ترجماته كانت جميلة وممتازة. كان يستطيع ترجمة رسائل عن الرماد، وخشب الثنوب، وأنواع

مكائن الحفر وقطع غيارها القادمة من ميناء يوغوسلافيا بسهولة. وكان مدير الشركة يضع الوثائق التي تخص الشروط والعقود التي ترجمها رائف من التركية إلى الألمانية في أماكنها، من دون أن يدقق فيها حتى. كان في أوقات فراغه يفتح درجه ويقرأ بكل تركيز كتاباً من دون أن يخرج من الدرج، رأيته مرة وسألته ”ما هذا؟ يارائف بك؟“. غضب وكأنه ضبطني وأنا أفعل شيئاً قبيحاً وقال متلعثماً: ”لا شيء... رواية ألمانية!“ وأقفل الدرج فوراً. رغم كل هذا إلا أن لا أحد في الشركة كان يعطي احتمالاً حتى لمعرفة رائف بلغة أجنبية. ربما كان معهم حق، لأن حاله وتصرفاته لم تكن تدل على شخص يعرف لغة أخرى. لم يسمع أحد كلمة أجنبية تخرج من فمه، أو كلمة تدل على معرفته بلغة أجنبية. ولم يرَ أحد صحيفةً أو منشوراً أجنبياً، لا في يده ولا في جيبه. في الخلاصة، لم يكن ممن يصرخون معلنين بمثل جملة ”أنا أعرف لغة إفرنجية!“ تكتّمه على معرفته وعدم مطالبته بزيادة راتبه، وعدم بحثه عن عمل يدر له أجراً أكثر، قوّت هذه القناعة عنه.

يأتي صباحاً على الوقت تماماً. وفي وقت الراحة يأكل في غرفته. وفي المساء، يعود إلى بيته بعد أن يشتري بعض الأغراض البسيطة. ورغم دعوتي له مراتٍ عديدة إلا أنه لم يوافق على المجيء إلى المقهى. كان يقول ”إنهم ينتظرونني في البيت!“ فكرت في نفسي، لا بد أنه أبٌ لأسرة سعيدة، يقدم الذهاب إلى أسرته وأطفاله على أي شيء. ثم عرفت بعد

ذلك أن الأمر لم يكن كذلك، لكنني سأشرح ذلك لاحقاً. لم يحمه جهده ومثابرتة من أن يكون محتقراً في محيط عمله. فلو وجد حمدي خطأ مطبعياً صغيراً حتى، فإنه يستدعي رائف المسكين على الفور. وأحياناً يأتي إلى الغرفة وهو يغلي غضباً. صديقي الذي كان دائماً محتاطاً في التعامل مع الموظفين الآخرين، والذي بالتالي يخاف من تلقي رد سيء من أحد هؤلاء الشباب الذين لا يجابون أحداً، يعامل رائف أفندي معاملة سيئة لأنه يعرف عدم قدرته على الرد أبداً. لم أستطع الفهم من طريقة صراخ حمدي الذي يُسمعه كل من في المبنى، ووجهه المحمرّ بسبب أن ترجمة ما تأخرت لساعاتٍ قليلة إلا التالي: ما المشكلة في أن يجرب إنسان قدرته وصلاحياته اللذيذة المسكرة على أبناء جنسه؟ ولكن لكي ينال فرصة أداء مثل تلك الحركة، عليه عمل بعض الحسابات الدقيقة، وألا يارسها إلا مع أشخاصٍ محددين.

كانت صحة رائف تعتلّ بين كل فترة وأخرى ولا تسمح له بالمجيء إلى العمل. غالباً ما تكون مجرد نوبات برد عادية، لكن الإلتهاب الرئوي الذي قال أنه أصابه قبل عدة سنوات جعله محتاطاً أكثر. فأصبح مع كل نزلة برد بسيطة يقفل على نفسه في البيت فوراً. وعندما يخرج كان يرتدي طبقات كثيرة من الملابس وعندما يكون في مقر العمل لا يدع أحداً يفتح النافذة أبداً، وفي المساء لا يخرج قبل أن يرفع ياقة معطفه إلى مستوى أذنيه. لكنه لم يكن يهمل عمله حتى في أوقات مرضه. فقد كان يأمر البواب أن يأتي له بالنصوص التي عليه أن يترجمها، ويبعث بالترجمة مع نفس البواب بعد عدة ساعات. ومع ذلك كنت أرى في

تعامل حمدي مع رائف رسالة يريد أن يقول فيها: ”انظر، نحن ورغم مرضك ودلالك لم نظردك بعد!“.

لم يترددوا يوماً بقذف هذه الجملة في وجهه مرةً بعد أخرى. وعند ظهوره في العمل بعد كل غياب يستمر أياماً، كانوا يقابلونه بـ ”كيف حالك؟ إن شاء الله هذه آخر مرة يارجل؟!“ على سبيل التهكم، يقصدون بها مضايقته. ومع كل هذا، بدأت أنا أيضاً بالضجر من رائف أفندي. لم أكن أتواجد في الشركة كثيراً. دائماً ما تجولت حاملاً شنطة أوراقى بين البنوك والدوائر الحكومية، وأحياناً أمر بمكتبي لتنظيم أوراقى وعرضها على المدير أو نائبه. اقتنعت بأن هذا الجالس قبالي، معدوم الحركة لدرجة الشك بكونه مخلوقاً حياً، الذي يترجم أو يقرأ ”روايته الألمانية“ من درجه، اقتنعت بأنه مخلوق ممل عديم المعنى حقاً. كنت أفكر بأن لاشيء يحدث في داخله كالذي يحدث للأشخاص الآخرين ويجعلهم يرغبون بالتعبير للناس، هناك كمية صمت وسكون في داخله تجعله لا يختلف عن أي نوع من النباتات، هكذا كنت أفكر. يأتي إلى هنا مثل آلة. يمارس عمله، وبعادةٍ لأفهمها يقرأ عدة كتب، ثم في المساء يشتري بعض الأغراض ويعود إلى منزله. يحتمل أن يكون المرض هو الاختلاف الوحيد الذي يحصل في أيامه المتشابهة، بل في سنينه. على حسب كلام الأصدقاء، لم يتغير عن هذا المنوال منذ عرفوه. لم يره أي أحد في يوم من الأيام مهتاجاً بأي شكل من الأشكال. كان يقابل كل اتهامات وافتراعات رؤسائه بنفس النظرة الصامتة الهادئة والخالية من أي تعبير. وفي أحيانٍ أخرى، كان يشكر ويبتسم نفس الابتسامة عديمة

المعنى عندما يستلم أو يسلم ترجماته من وإلى الكاتب.

في يوم من الأيام، وبسبب عدم إعطاء طابعات الآلة الكاتبة لرائف أفندي أي أهمية أو أولوية، تأخرت كتابة أحد الترجمات، فجاء حمدي وصرخ بصوت عنيف جداً:

- "إلى متى سنتظر؟ قلت لك سأكلفك بعمل مهم وأذهب. وإلى الآن لم تحضروا لي ترجمة الرسالة التي جاءت من الشركة المجرية؟!".
رفع رائف رأسه وهو على كرسيه وقال:

- "لقد أنهيتها ياسيد، لكن السيدات لم يكتبنها، لقد كُلفن بأعمال أخرى!"

- "ألم أقل لكم أن ترجمة هذه الرسالة أهم من أي عمل آخر؟"
- "نعم سيدي، لقد قلت لهن ذلك."

صرخ حمدي بصوت أعلى:

- "انجز عملك بدل أن تجادلني!"

قبل أن يصفق الباب خلفه وهو خارج. ويخرج رائف أفندي بعده إلى الكاتبات ليرجوهن أن يكتبن ترجمته.

بالنسبة لي، فكرت في حمدي الذي كان وسط كل هذه المعمعة، لم ير أي حاجة في أن يلقي عليّ ولو حتى نظرة. دخل مترجم الألمانية للمكتب مرة أخرى، جلس على مكتبه وأحنى رأسه كالعادة. كان في وجهه سكونٌ يقود الإنسان للحيرة والغضب. تناول قلم رصاص وبدأ في الخربشة على الورق. لم يكن يكتب، بل كان يرسم أشياء عديدة. لكن هذا لم يكن تصرف رجل غاضب يحاول إلهاء نفسه بأي شيء. كنت شبه

متأكد من أنني أرى في طرف شفتيه، وتحت شواربه الصفراء ابتسامة الواثق من نفسه. كانت يده تتحرك بسرعة فوق الورق، وبين الفينة والأخرى كان ينظر أمامه بتركيز. كنت ومن ابتسامته الغير واضحة أستنتج أنه راضٍ عن ما يراه أمامه. أخيراً، ترك قلمه جانبا وبدأ ينظر في الورقة لمدة طويلة. كنت أراقبه دون أن أغمض جفني. تفاجأت هذه المرة عندما رأيت على وجهه تعابير جديدة مختلفة، في العادة كانت على وجهه تعابير من يتألم ويشفق على شخصٍ ما. لم أكن أستطيع البقاء في مكاني من الفضول. وعندما نويت الوقوف، نهض وذهب لغرفة الكتاب مجدداً. قفزت بسرعة إلى مكتب رائف أفندي وأخذت الورقة التي كان يخرش عليها. وعندما ألقيت عليها نظرة، تجمدت من الدهول. كنت أرى حمدي مرسوماً ورقة بحجم الكف على الورقة. رسمة تبدو بسيطة لكنها تحمل هوية حمدي، رائعة وكأنها لفنان خبير. لم أكن أظن أن أحداً آخر كان ليلحظ الشبه بينها وبين حمدي. حتى لو تفحصتها جيداً، فربما لا تجد أي شبه. لكن لم تكن هناك إمكانية أن يخطئ من رأى حمدي يصرخ أمامه في وسط الغرفة قبل قليل. هذا الفم المستطيل والمفتوح بحيوانية وحدة، والعينان اللتان كانتا كعيني من يريد أن يحفر ما أمامه بنظراته، إلا أنهما مرسومتان وكأنهما مختنقتان بالعجز، الأنف ذو المنخرين المتدليين بشكل مبالغ فيه، يصبغ وجهه بوحشية أكبر.. نعم، كانت هذه رسمة تصف حمدي الذي كان قبل قليل هنا تماماً. لكن لم يكن هذا هو سبب ذهولي فقط: فأنا ومنذ بداية عملي في الشركة، أعني قبل أشهر، وأنا أصدر الأحكام على حمدي عندما كنت

أتحدث مع الآخرين.

كنت أحاول أن أعذره بعض الأحيان، لكن في مرات كثيرة كنت أستحقره وأستخف به. كنت أخلط بين شخصيته الأصلية وشخصيته التي أعطاها له منصبه في العمل، وأقع في مأزق عندما أحاول أن أفصلها تماماً من جديد. هكذا، كان رائف أفندي برسمه وإخراجه لحمدي بهذه الطريقة هو رائف الذي كنت أتمنى رؤيته منذ زمن طويل ولكن لم أره. رغم وجهه البدائي والمليء بالوحشية إلا أن هناك جانباً فيه يثير الشفقة. لم يُعرض الظلم والبؤس معاً في أي مكان آخر بهذا الوضوح. وكأني كنت أتعرف على صديقي لأول مرة.

في نفس الوقت، وضحت لي هذه الرسمة أيضاً حقيقة رائف أفندي. فهمت وقتها تماماً سبب سكونه الذي لا يتزعزع، وطريقة تحمله الغربية لتصرفات الآخرين. هل هناك ما يمكن أن يثير شخصاً يعرف ما يدور حوله جيداً، ويرى ما يضمرة الآخرون في دواخلهم بوضوح، لأن يغضب ويحتاج على أي أحد؟ رجل مثل هذا، ماذا كان يستطيع أن يفعل بكل هذه المعرفة غير الوقوف أمام المتشجنين مع كل صغرهم كصخرة لا تهتز؟ كل استنتاجاتنا وانكساراتنا وغضباتنا كبشر هي من الجوانب الغير متوقعة والغير مفهومة للحوادث التي تحصل أمامنا. هل بالإمكان مفاجأة وهزُّ إنسان مستعدٍ لكل شيء ويعرف ما سوف يفعله أي أحد؟ بدأ رائف أفندي يأخذ طبيعة الرجل الذي يثير فيّ الفضول مرة أخرى. بدأت، ورغم مسحة الضوء التي ظهرت قبل قليل، أشعر بوجود تباينات بشأنه: لم يكن يبدو أن يده هي من خلقت هذه الإصابة الدقيقة

والحماس في رسومات الورقة التي أحملها في يدي كهواية. كان يلزم أن يكون من رسم هذه الرسومات شخصاً مارس الرسم لسنوات عديدة. لم تكن مجرد عينان تريان ما تنظران إليه فعلاً، بل كانت له مهارة تضع كل التفاصيل الصغيرة التي تراها عيناه على الورق. فُتح الباب. حاولت إعادة الورقة بسرعة إلى مكتبه، لكنني تأخرت. قلت لرائف أفندي الذي يقترب نحوي مباشرة حاملاً ترجماته التي أنجزها بلهجةٍ اعتذارية:

”رسمةٌ جميلةٌ جداً.“

ظننت أنه سيتفاجأ، أو يخاف من إفشائي لسره. لم يحدث ما توقعته أبداً. قال وهو يأخذ الورقة من يدي، وبنفس الابتسامة الغريبة السارحة:

- ”قبل سنوات مضت، اشتغلت مدة بالرسم! أصبحت عادة لدي أن أحرص على الورق بين وقت وآخر. كما ترى يارجل، أشياء عادية لا معنى لها. كسر للرتابة فقط.“

جعد الورقة بيديه قبل أن يلقيها إلى سلة الورق. ثم تتم بينه وبين نفسه:

«يبدو أن سيدات الآلة الكاتبة أنجزن عملهن بسرعة! هناك أخطاء مطبعية بطبيعة الحال، لكن حمدي سيغضب لو قرأتها له. معه حق. سأخذها له..»

خرج مجدداً. تابعته بعيني. كنت أرددّ بتهكم: ”معه حق! .. معه حق!“

بعد ذلك، بدأ رائف أفندي وبرغم كل حركاته المملة وعديمه المعنى يشير فضولي من جديد. أصبحت أحاول انتهاز أي فرصةٍ متاح كي أتكلم معه أو أعرف عنه شيئاً يكشف لي المزيد عن هويته. هو بدوره لم

يبدو أنه كان يلاحظ ذلك. كان يعاملني بطيبة، لكنه كان أيضاً يحافظ على تصرفاته التي تترك مساحة فاصلةً بيننا دائماً. على قدر ما تتطور صداقتنا ظاهرياً، إلا أن داخله كان دائماً مقفلاً بوجهي. ازداد اهتمامي وفضولي به جداً عندما رأيت عائلته ووضعهم بين بعضهم عن قرب. كان وبعد كل خطوة أقرب بها إليه يقابلني بمزيد من الغموض.

عندما دخلت بيته أول مرة، كنت ذاهباً إليه حين كان مريضاً بأحد أمراضه المعتادة. أراد حمدي إرسال ورقة مع الخادم ليترجمها رائف عاجلاً:

- قلت: "سأوصلها أنا، وأزوره بالمرّة".

- "حسناً. انظر ماذا به.. لقد زاد الموضوع عن حده هذه المرّة"

استمر مرضه لفترة طويلة هذه المرّة حقاً. لم يمر على الشركة منذ أسبوع. أعطاني أحد الخدم عنوان بيته الذي يقع في حي عصمت باشا. كنا في أواسط الشتاء. بدأت بالمشي في الأزقة المظلمة مبكراً. مررت في طريقي بأحياء ذات طرقي وأرصفة ضيقة ومهترئة لا تشبه طرقات أنقرة المعبدة بالإسفلت أبداً، وخلف بعضها منحدرات ومرتفعات. بعد طريق طويل، وعند حدود المدينة، انعطفت يميناً. وعند دخولي إلى أحد المقاهي في طرف الشارع عرفت البيت. كان ذو دورين، يقف وحيداً بين أراض كلها حجارة وتراب، بناء ذو دهان أصفر. كان رائف أفندي يسكن في الدور الأرضي على حد علمي. قمت برن الجرس. فتحت لي الباب فتاة عمرها اثنا عشرة سنة تقريباً. وعندما سألتها عن والدها، قالت مع اظهار وجهها لتعبير متكلفٍ وهي تبرز شفيتها تبرماً:

"تفضلوا"

لم يكن ما بداخل البيت كما توقعت أبداً. في الصلاة التي كان يستخدمها كصلاة طعام كما يبدو، كانت هناك طاولة من النوع الذي يُفتح ويُقفل، وفي الركن كان هناك دولاب صغير مليء بأطقم الكريستال. وعلى الأرضية كانت سجادة سيفاسية⁽¹⁾ جميلة، كانت رائحة الطعام تفوح من المطبخ المجاور للصلاة. أخذتني الطفلة إلى غرفة الضيوف أولاً. حتى هنا الأشياء جميلة، بل وغالية أيضاً. أرائك من قטיפه حمراء، ومناضد سجائر قصيرة مصنوعة من خشب الجوز، وفي الركن راديو كبير يملؤ الغرفة. في كل الأطراف، فوق المناضد وخلف الأرائك كانت هناك لوحة معلقة عبارة عن أركان الإيهان مخطوطة على شكل سفينة على قماش من الدانتيل السكري اللون.

أحضرت لي الطفلة الصغيرة القهوة بعد دقائق قليلة. على وجهها ولسبب ما، كان هناك تعبير مليء بالدلال. كأنها كانت تريد أن تُرى على أنها صغيرة وأن يُمزح معها.

- ”أبي مريض ياسيدي، لا يستطيع القيام من فراشه. تفضلوا إلى الداخل!“، قالت.

كانت وهي تقول ذلك كما لو كانت تريد أن تُفهمني بحاجبيها وعينيها أنني لا أستحق هذه المعاملة المهذبة. تفاجأت تماماً عندما دخلت إلى الغرفة التي يرقد بها رائف أفندي. هذه غرفة لاتشبه بقية البيت. مثل مهجع طلاب تقريباً، أو كمثل غرفة في عنبر مستشفى. بها عدة أسرة

(1) نسبة إلى مدينة سيفاس. - المترجم.

بيض بجانب بعضها البعض. يرقد رائف أفندي على أحد هذه الأسرة، تحت الأغطية البيضاء، كان يحاول إلقاء السلام عليّ من خلف نظارته وهو في وضعية النصف جالس ونائم. بحثت عن كرسي لأجلس. كان الكرسيان الموجودان بالغرفة ممتلئان بخرق من الصوف وجوارب نسائية، بالإضافة لألبسة حريرية مخلوطة وملقاة بعد لبسها. وفي الركن خزانة ملابس عادية بابها نصف مفتوح ومدفون بلون كستنائي، بداخله تنانير وملابس علقت بشكل عشوائي، وتحتها أقمشة مطرزة. كانت الغرفة تغمر نفس الإنسان بفوضى غير اعتيادية. وعلى الكومودينة التي بجانب السرير، كان هناك إناء حساء متسخ بقي من الغداء كما يبدو، وإبريق مكشوف داخل صينية مصنوعة من الصفيح، وبجانب كل هذا كانت هناك عدة زجاجات وقناني أدوية.

قال رائف أفندي وهو يشير إلى طرف السرير: "اجلس هنا عزيزي". جلست. كانت على ظهره سترة ملونة بألوان زاهية، محبوكة من الصوف ومخروقة من المرفقين. رأسه مستند على الهيكل الحديدي الأبيض للسرير. ملابسه معلقة فوق بعضها على هيكل السرير، في الجانب الذي اجلس عليه.

ثم أردف بعد أن لاحظ تفحصي للغرفة:

- "أنام في هذه الغرفة مع أطفالتي. يبعثرون الغرفة دائماً. البيت صغير، لا يسعنا.."

- "هل أنتم كُثُرٌ؟"

- "نعم، جداً! لدي بنت بالغة في الثانوية. ثم وكما ترون.. أخت

زوجتي وزوجها، وصهرين. كلنا في نفس البيت. هناك طفلاً أخت زوجتي أيضاً. مشكلة السكن في أنقرة معروفة لك على كل حال. فلا إمكانية لأن تسكن كل عائلة بمفردها.

في هذه الأثناء رن الجرس مرةً أو مرتين، كان يفهم من ضجيجهم وكلامهم وتصايحهم ببعضهم أن أحد أفراد العائلة قد جاء. فُتح الباب بعد ثوان. دخلت البيت امرأة سمينه في الأربعينات، يتهدل شعرها المقصوص حديثاً على وجهها وأذنيها. انحنت على أذن رائف أفندي وأسرت له بشيء. بعدها أشار إليّ من دون أن يجيبها وعرفني بها:

- "إحدى ساكني المنزل. زوجتي".

ثم قال وهو يلتفت إلى زوجته: «خذيها من جيب معطفي!». في هذه المرة قالت من دون أن تهمس في أذنه: «يوه! لم آت من أجل النقود، من سيذهب ليشتري.. أنت لم تنهض من مكانك أبداً!»

- "ابعثي بنورتان. فالمكان لا يبعد إلا ثلاث خطوات!"

- "كيف أبعث بطفلة لم يتجاوز طولها ساقى إلى البقال في هذا الليل والبرد؟! ثم هل تظن أنها ستطيعني وتذهب لو أمرتها؟"

فكر رائف أفندي قليلاً، ثم حرك رأسه كمن وجد الفكرة أخيراً:

- "نعم ستذهب ستذهب."، قالها ونظر أمامه.

إلتفت لي بعد أن خرجت المرأة وقال:

- "في بيتنا حتى شراء الخبز يعد مسألة. مرضت فلم يجدوا رجلاً ليرسلوه."

وكانها كانت مهمتي أن أسأل:

”هل أصهارك صغار؟“. نظر إلى وجهي، ولم يجب؛ بل ترك على وجهه تعبير من لم يسمع سؤالاً حتى. لكنه قال بعد عدة دقائق:

- ”لا ليسو صغاراً! كلاهما يعملان. موظفان مثلنا نحن الإثنين. وظّفهم أحدهم في الوكالة المالية لنسيبي. لم يدرسوا، فليس بحوزتهم شهادة مرحلة متوسطة حتى!“ ثم قطع كلامه فجأة وقال:

- ”هل أحضرت شيئاً من أجل الترجمة؟“

- ”نعم، يجب إنجازها بحلول الغد. سيرسلون خادماً ليستلمها صباحاً.“

تناول الأوراق ووضعها بجانبه.

- ”لقد قلقت عليك“

- ”شكراً لك. طال مرضي هذه المرة بالفعل. لا أستطيع حتى أن أستجمع قوتي وأنهض!“

كان في عينيه فضولٌ غريب. كأنها كان يتحقق من صحة حجتي. ولإقناعه، كنت مستعداً لأن أفعل أي شيء، إلا أن عيناه اللتين رأيتهما مليئتان بالفضول قبل قليل سرعان ما عادتتا إلى عاداتهما. عينان لاتعبران عن شيء، تصحبهما ابتسامة فارغة من المعنى كالعادة.

استجمعت نفسي ونهضت. عدّلت جلسته على الفور ومد يده مصافحاً:

- ”شكراً على زيارتكم لي يا بني“ قال لي.

كان في صوته دفء، وكأنه قد أحس بها في داخلي.

في الحقيقة، نشأت ألفةٌ بيني وبين رائف أفندي بعد ذلك اليوم. لا أستطيع أن أتحدث عن تغييرٍ كبير في تعامله معي. ولا يخطر لي أن

أدعي أنه أصبح صديقاً حميماً لي حتى، أو أنه أفسى لي عمّا في صدره. كان هو هو، الهادئ الساكن، المنغلق على نفسه. رغم ذلك كنا في بعض الأمسيات نخرج من العمل سويةً ونمشي حتى بيته، بل أحياناً كنا ندخل إلى غرفة الضيوف ذات الأثاث الأحمر ونشرب فنجان قهوة معاً. لكننا في تلك الأثناء لم نكن نتكلم أبداً، وإذا تحدثنا فإن محور حديثنا لا يتعدى الماء والطقس، أو غلاء معيشة أنقرة، أو سوء حال أرصفة حي عصمت باشا. لم يكن يتعرض في حديثه إلى بيته أو أبنائه إلا فيما ندر. بين حينٍ وآخر كان يقول: ”نالت ابنتي أربعين درجةً في مادة الرياضيات مجدداً!“ ثم يغير الموضوع فوراً. وأنا كنت أتردد في أن أسأله عن أي شيء بهذا الخصوص. لم تترك أول زيارة لي إليه، ولا مقابلتي لأفراد عائلته أي تأثيرٍ عليّ.

بعد أن نهضت من جانب المريض، وأثناء مروري بالردهة، رأيت شاين كنا يجلسان حول طاولةٍ مع فتاة في الخامسة أو السادسة عشرة من عمرها. كانوا يتهامسون ويضحكون حتى قبل أن أدير ظهري إليهم. كنت متأكداً من عدم وجود شيءٍ مضحكٍ بشأني. لكن هؤلاء، مثلهم مثل أي إنسان أجوف في أعمارهم، يعدّون الضحك في وجه من يصادفونه نوعاً من التفوق عليه. حتى نورتان الصغيرة كانت تبذل جهداً لتحاول التشبه بأختها الكبيرة أو بأخواتها. بعد ذلك، أصبحت أرى نفس الشيء في كل مرةٍ أذهب للبيت. كنت ما أزال شاباً لم يشبع سنواته العشرين بعد، لكن العادة التي كنت أراها عند البعض من جيل الشباب، فضولهم تجاه من لا يعرفونه أو يرونه لأول مرة وكأنه شيء

غريب جدا تثير تعجبي. كنت ألاحظ أن وضع رائف أفندي لا يُعد جيداً جداً، وكونه أيضاً كما لو كان شيئاً زائداً أو لا لزوم له في بيته. بعد ذلك، مع زيارتي المتكررة للبيت، أصبحت صديقاً لكل من فيه من الأطفال. لم يكونوا سيئين أبداً. لكنهم كانوا مخلوقات فارغة وجوفاء فقط. كان ذلك هو سبب تصرفاتهم الغير لائقة. كل ما يفعلونه في مواجهة هبوب فراغ دواخلهم هو إرضاء أنفسهم والتعرف عليها من خلال السخرية من الآخرين والاستخفاف بهم واستحقارهم. كنت أنصت لكلامهم. لم يكن لهم عمل في البيت غير اغتياح أصدقاء الموظفين في الوكالة الاقتصادية، جهاد ووداد وزميلات نجلاء ابنة رائف أفندي في المدرسة والتعليق على ملابسهم وغرابة تصرفاتهم وتقليدهم والضحك بشكل هستيري من دون أن يلاحظوا أن نفس التصرفات التي يسخرون منها موجودة فيهم أنفسهم.

- "أرأيتي الفستان الذي لبسته معلّاً في حفل الزفاف؟ هاهاهاها!"

- "آه لو رأيتي فقط كيف تجاهلت أورهان.. هاهاهاهاي!"

لم يكن لفرهونده هانم، أخت زوجة رائف أفندي أي همّ إلا إيجاد أي فرصة لتترك ابنها ذو الثلاثة أو أربعة سنوات لأختها الكبيرة لتعتني به بدلاً عنها، ثم تتزين على عجل وترتدي فستانها وتخرج. لمحتها عدة مرات وهي أمام المرأة تحاول إدخال شعرها المجعد من دون إفساد التسمية تحت قبعته ذات القناع الشفاف. رغم أنها في عز شبابها، وعمرها في الثلاثينات إلا أنها كان لها عددٌ لا يحصى من التجاعيد حول عينيها وفمها. كانت عيناها الزرقاوان كالخرز لا تثبتان على شيءٍ

لأكثر من ثانية، وكانت أيضاً تعكسان الأرق الداخلي الذي صاحبها منذ الولادة. كانت تكره طفليها ذوي الملابس الغير مرتبة دائماً، والأيدي المتسخة، والوجوه الشاحبة على الدوام، وكأنهم عقابٌ ألقاه على كاهلها عدوٌ لعين. لم تكن تعرف كيف تبعد صغارها كي لا يلمسوها بأيديهم المتسخة بعد أن تترزين وهي تحاول الخروج.

كان نور الدين بك، زوج فرهونده هانم ومدير أحد فروع الوكالة الإقتصادية نوعاً آخر من حمدي. عمره في الثلاثين أو الواحد والثلاثين، شعره كستنائي موج كثيف، وممشط بعناية إلى الخلف كمساعدية. كان حتى بعد أن يقول "كيف حالك؟" يضم شفتيه لبعضهما ويهز رأسه بخفة وكأنه قد ألقى حكماً عظيمة. كان ينظر إلى أي إنسانٍ وهو يتكلم بعيون ثابتة، وبابتسامة في عينيه تقول "يارجل، هل ماتقوله معقول؟ أنت لا تعرف شيئاً". بعد أن أنهى دراسته في تخصص الفنون الجميلة، ولسبب ما، أرسل إلى إيطاليا ليدرس صناعة الجلود، لكنه أيضاً تعلم قليلاً من الإيطالية وكيفية التصرف كرجل مهم. بجانب ذلك، كانت له مزايا مهمة أخرى تفيده للنجاح في حياته: أحدها أنه كان وبكل ثقة يرى المقامات العالية لا ثقة به، ويشارك في كل موضوع سواء كانت له خبرة فيه أو لا، وبشكل مستخف بالجميع بلا استثناءٍ كان يجعل كل من حوله يؤمنون بقيمته، أعتقد أن عادة احتقار الناس انتقلت لأفراد البيت منه. كان أيضاً يعتني بمظهره ومايرتديه: يخلق ذقنه كل يوم، ويجعل بناطيله القديمة تكوى تحت إشرافه دائماً، ولإيجاد أكثر حذاء أناقةً وأجمل جورب، كان ينتظر يوم السبت بلا صبر ليتجول في الأسواق. في

الحقيقة، عرفت لاحقاً أن مرتبه الذي كان يتقاضاه لم يكن بالكاد ليكفي كسوته هو وزوجته، ولأن الخمس وثلاثون ليرة التي يتقاضاها صهره لم تكن مباركة، كان رائف أفندي وبراتبه القليل يتحمل كل مصاريف البيت. ورغم هذا كان لكل أفراد البيت كلمتهم المسموعة إلا العجوز المسكين.

كانت زوجة رائف أفندي مهريه هانم قد شاخت قبل أن يصل عمرها الأربعين، اتّحد لحمها المترهل وثدياها المتدليان إلى كرشها بسمنة عجبية، رغم أنها تقضي كل يومها تطبخ الطعام في المطبخ، وفي أوقات فراغها ترقع جوارب الاطفال وتتبه لابني أختها المشاكسان، إلا أنها لم تكن تستطيع إرضاء "ساكني البيت". لم يكن أي أحد فيهم يسأل عن كيفية إدارة البيت، لمجرد أنهم كانوا يرون أنفسهم يستحقون حياةً أرقى من تلك التي يحيونها. لم يكن يعجبهم الأكل، يعبسون ويطبّقون شفاههم ويبدون عدم امتنانهم من كل شيء. "أي نوع من الطعام هذا!؟"، كان نور الدين بك بسؤاله هذا كأنه يريد أن يقول: "أين تذهب مئات الليرات التي أعطيك إياها؟ أجيبيني بحق الله!". بينما يقول الصهران اللذان يلف كل منهما شالاً رخيصاً حول الرقبة: "لأحب هذا الطعام، اسلقي لي بيضة". أو كلاماً من نوع: "لم أشبع، اقلي لي قطعة سجق على السريع!". لم ينجلوا أبداً من جعل مهريه هانم تذهب الى المطبخ لتحضّر لهم طعاماً آخر من جديد، ثم وعندما يحل المساء وتلزمهم عشرة قروش لشراء الخبز، ولكي لا يدفعونها من جيوبهم، كانوا يوقظون رائف أفندي المريض المستغرق في نومه، زيادة على هذا كانوا يتململون ويغضبون من

عدم تحسن صحته وذهابه إلى البقالة بنفسه أيضاً.
في مقابل البؤس الذي كان في المنطقة التي لا يراها الضيوف من المنزل،
كانت الردهة وغرفة الضيوف في غاية الترتيب بفضل نجلاء. يبدو
أنهم ارتأوا أنه من المناسب أن يكون هذا الجزء من المنزل كقناع يظهر
به أمام أصدقائهم وضيوفهم. لهذا السبب، ويتشارك منهم، أمضوا
سنوات وهم يسددون الأقساط لمتاجر الأثاث. مروا بضائقة مالية
شديدة، لكن الآن، أطقم القטיפفة الحمراء تدفع الضيوف لهز رؤوسهم
إعجاباً وتقديراً، والراديو ذو الاثني عشرة لمبة يغمر الحارة بالضجيج.
أيضاً، زجاجات الشراب الكريستالية المذهبة في الدولاب الزجاجي،
والتي كان يحضرها نور الدين بك ويتسامر مع أصدقائه بالشرب منها
كانت لا تحذله أو تنزل من قيمته بينهم.

رغم تحمل رائف أفندي لكل ذلك العبء، إلا أن وجوده كان مساوياً
لعدمه. لم يكن هناك من يبدو أنه يلاحظ وجوده في البيت من أكبر
شخص إلى أصغر شخص فيهم. لم يكونوا يتكلمون معه في أي شيء
باستثناء حاجيات البيت وموضوع النقود، بل إنهم كثيراً ما يفضلون أن
تتوسط مهريّة هانم بينهم وبينه. كأنه آلة بلا روح تُترك خارجاً بعد أن
تملى عليها الطلبات، وتعود في المساء وذراعها ممتلئة بالأغراض. نور
الدين بك، الذي كان قبل خمس سنوات، وقت رغبة رائف بك الزواج
بمهريّة هانم، لا يترك رائف أفندي في حاله، ويحاول الظهور بمظهر
حسن أمام نسيبه المستقبلي وفعل كل ما يرضيه، أصبح الآن وكأنه قد
سئم من مجالسة إنسان لا أهمية له في نفس البيت. كانوا يغضبون منه

لعدم زيادة راتبه وتأمينه حياة مرفهة لهم، لكنهم وفي نفس الوقت كانوا يرونه صغراً لا قيمة أو أهمية له أبداً. نجلاء التي كانت تبدو رزينة جداً، ونورتان التي كانت تدرس في الابتدائية، وباحتمال تأثير من أصهارهن وخالاتهن وأخوانهن شاركوا أيضاً في نفس المعاملة لوالدهم. كان الحب الذي يحاولون إظهاره له يبدو كعمل شاق يريدون إنجازه بسرعة، وعندما يعتنون به أثناء مرضه كانوا يُظهرون وتكلف شفقة مزيفة. لكن زوجته مهريّة هانم، التي أصبحت شبه غبية بسبب اهتمامها بالأشغال الشاقة التي لا تخفّ ولو لثانية، وبهمّ لقمة العيش منذ سنوات عديدة، تشغل نفسها في الإعتناء بزوجها قدر المستطاع، وتحاول أن تفعل ما بوسعها لكي تتفادى استصغار واستحقار أولادها لها.

عندما يكون هناك ضيف في وقت العشاء، كانت ولكي لاتعصي أمر إخوته أو نور الدين وصرّاحهم بصوت عالٍ: "ليذهب صهري ويشتريني!"، تذهب إلى غرفة رائف أفندي وبصوت مشيع بالدلال تقول له: "هيا أحضر لنا من البقال ثمانية بيضات وزجاجة «راكي»⁽¹⁾. لاداعي لأن نجعلهم يقومون عن السفارة!"، لكنها لم تتساءل وزوجها عن سبب عدم جلوسهم في نفس السفارة. لم يفكروا حتى في سبب عدم إحترام الآخرين لهم، ونظرهم إليهم بنظرات غير مرتاحة، ولو فعلوا ذلك لأربعين سنة. ربما لم يكونوا يلاحظون ذلك حتى.

(1) الراكي هو المشروب الكحولي الأشهر في تركيا منذ أواسط القرن التاسع عشر.

وأصل كلمة راكي هي «عرق»

كان رائف أفندي يكنّ لزوجته مودة غريبة. بين وقت وآخر يقول مشفقاً على زوجته التي لم تجد منذ شهور وقتاً ترتدي فيه أي شيء غير رداء المطبخ: "كيف حالك يا هانم، هل تعبت اليوم كثيراً؟"، وأحياناً يجلسها أمامه ويتحدثان عن مدارس الأولاد وعن مصاريف العيد المقرب. لكنه لم يكن يظهر في تعامله مع أعضاء الأسرة الآخرين أي علامة تدل على أن هناك ما يربطه بهم. أحياناً كان ينظر الى ابنته الكبرى وكأنه ينتظر منها شيئاً جميلاً أو حميمياً. لكن هذه اللحظات كانت سريعاً ما تمر، كأن الفراغ بينه وبين دلالها وضحكها كان يظهر نفسه فجأة.

فكرت في وضع رائف أفندي كثيراً. رجلٌ مثل هذا - وأي رجل؟ لم أكن أعرف ولكنني كنت متأكداً من أنه لم يكن كما يبدو -، نعم، رجلٌ مثل هذا لم يكن ليستطع الهرب من أقرب الناس إليه. كل المسألة، أن من حوله كانوا لا يعرفونه. وهو أيضاً لم يكن يظهر أي حرص على تعريفهم بنفسه. من بعد ذلك لم تعد إذابة الجليد الذي يقبع بينهم وبالتالي حلّ الغربة التي كانوا يشعرون بها تجاه بعضهم ممكنة. ولأن الناس يعرفون مدى صعوبة تعرفهم على بعضهم، فإنهم بدلاً من التشبث بهذا العمل المرهق يفضلون التجول عشوائياً كالعميان ولا يعرفون بوجود بعضهم إلا عن طريق التصادم.

لكن، وكما قلت، كان رائف أفندي يبدو وكأنه ينتظر شيئاً من ابنته الكبيرة نجلاء. كانت البنت التي تقلد في حركات وجهها، وفمها ويدها خالتها المطلية بالألوان، واستقت قوة شخصيتها من حذلة زوج خالتها، رغم انطوائيتها.. إلا أنها كانت تحمل علاماتٍ تدل على

أن بها بقايا إنسان. كانت أحياناً تنفعل بشدةٍ موبخةً أختها نورتان التي كانت تحاول الوصول بجرأتها في تعاملها مع أبيها إلى درجة الوقاحة، وتقوم عن السفارة عندما يُستخفُّ بأبيها وتصفق الباب خلفها. لكن هذه الحالة هي مجرد عن محاولة لما تبقى من الإنسانية في داخلها، أن تأخذ نفساً لا أكثر، كانت الشخصية الزائفة التي أكسبها محيطها لها بعد صبر وعمل طويل قويةً لدرجة لا تسمح لشخصيتها الحقيقية بالظهور.

لكن ربما أن تهوري في سن الشباب هو ما كان يجعلني أغضب دائماً على السكوت المخيف لرائف أفندي. سواء في البيت، أو في الشركة، كان دائماً ما يقابل تجاهل الناس له وعدم اعتبارهم له كرجل بصدر رحب، ويرى ما يفعله تصرفاً مصيباً. رغم علمي بأن الناس الذين لا يفهمون ممن حولهم، وتصدر دائماً بحقهم أحكام خاطئة، بيدأون مع الوقت وبسبب هذه الوحدة بالإحساس بالفخر والرضى المر، إلا أنني لا أتصور أن من حولهم سيرونهم محقين أبداً.

بطرق كثيرة، لاحظت أنه لم يكن رجلاً ماتت مشاعره. بل على العكس من ذلك كان حساساً، دقيقاً ومهتماً بالتفاصيل. لم تكن عيناه المحدقتان أمامه تفوتان أي شيء. في يوم من الأيام عندما سمع بناته في الخارج وهن يتجادلن بصوت خفيض: «أنت حضري القهوة»، لم يقل شيئاً، لكنه ومن بعدها في المرتين التاليتين التي ذهبت لزيارته فيها قال لهم فوراً بصوت عالٍ: «لا تحضروا القهوة، إنه لا يريد». هذا التصرف الذي فعله ليتجنب تكرار الحادثة التي كانت ثقيلة عليه جعلني أكثر حميميةً

معه وزاد ارتباطي به. لم تكن قد تحدثنا في شيء بعد، لكن هذا لم يعد يثير استغرابي. ألم يكن في عيشته الساكنة الهادئة، وتحمله، والرحمة التي يظهرها لضعف الناس ونظرته المرححة التي يقابل بها قلة أدهم إرادة كافية؟ ألم أكن أشعر في الأوقات التي مشينا فيها سويةً بكون الذي بجانبني إنساناً؟ في هذه الأوقات، فهدمت لماذا يرى الناس أنه ولأجل البحث وإيجاد بعضهم، ومشاهدة مكنوناتهم، أن التواصل لا يلزم أن يكون في صورة الكلام فقط. وفهدمت لماذا كان بعض الشعراء، وفي مقابل جمال الطبيعة، دائماً ما يبحثون عن شخصٍ يرافقهم من دون أن يتكلم. كنت متيقناً أن ماتعلمته من هذا الذي يمشي بجانبني من دون أن يفتح فمه، ويعمل أمامي من دون أن يصدر صوتاً، أكثر بكثير مما كان من الممكن أن أتعلمه من أحدٍ يلقني دروساً لسنوات.

كنت أشعر بأنه هو أيضاً مسروراً من وجودي. لم يعد به ذلك الخجل والتردد الذي كان به في أول أيام تعارفنا والذي يظهره لكل الناس. لكنه في بعض الأيام كان يتوحش فجأة، وتخسر عيناه كل تعابيرهما وتصغران. وعندما يخاطبه أحداً كان يرد بهدوء وصوت منخفض يمنع من الإقتراب بأي شكل. في مثل تلك الأوقات كان يهمل حتى الترجمة، وفي مراتٍ كثيرةٍ كان يترك القلم بجانبه ويتفرج على الورق لساعات. أحسست بأنه الآن مسحوبٌ خلف كل المسافات والأزمان وبأنه لن يترك أحداً يقرب منه هناك. حتى أنا لم تكن لي رغبةٌ بالتدخل والإقتراب. لكن داخلي كان يجتاحه القلق، لأن أمراض رائف أفندي، وبتصادف غريب، كانت تعقب هذه الأيام في أغلب الأحيان. عرفت

سبب ذلك بسرعة لكن بطريقة محزنة أيضاً، سأقول كل شيء في وقته. يوماً ما، وفي أواسط شباط لم يأت رائف أفندي إلى العمل مجدداً. وعندما مررت بمنزله قبل حلول المساء فتحت لي الباب زوجته مهريّة هانم. - "تفضلوا، هذا أنتم؟" قالت. "استسلم للنوم قبل قليل... سأيقظه إن أردتم!"

- "لا، لا تزعجوه.. كيف هو؟" سألتها.

أدخلتني إلى غرفة الضيوف وقالت: «حرارته مرتفعة. هذه المرة بطنه تؤلمه أيضاً!» ثم أضافت بصوت شاكٍ: «آه عزيزي، لا يعتني بنفسه أبداً.. إنه ليس طفل.. يمرض فجأة رغم عدم وجود شيء في الجو. لا أدري ماذا يحدث.. لا يجالس أو يكلم أحداً أصلاً. يأخذ بعضه ويمضي. ثم وكما ترى.. يتمدد مريضاً.»

في هذه الأثناء جاء صوت رائف أفندي من الغرفة المجاورة خافتاً. هرعت زوجته إلى الغرفة، وجلست قلقاً. هل يمكن لرجلٍ يهتم بصحته إلى هذه الدرجة، يرتدي كنزات الصوف ويلف نفسه داخل الأوشحة أن يكون غير محتاطٍ بأي حالٍ من الأحوال؟

قالت مهريّة هانم وهي عائدةٌ من عنده:

- "استيقظ عند طرقكم للباب، تفضلوا."

هذه المرة وجدت حالته متدهورة بعض الشيء. وجهه مصفرٌ جداً، ونفسه متسارع. أما ابتسامته الطفولية المعتادة فكانت تبدو مُتعبَةً لعضلات وجهه. وعيناه ومن خلف النظارة، تبدوان وكأنهما هاربتان إلى الإعماق.

- ”ماذا حصل لك هذه المرة رائف بك، شفاك الله.“، قلت له.
- ”شكراً!“

كان في صوته بحةٌ خفيفة. ويهتز كل جسده عندما يسعل.
ولأشبع فضولي بسرعةٍ سألته:

- ”كيف بردت؟ يبدو أنها حساسية من البرد!“

جلس مدة طويلةٍ يحدق في أغطية السرير البيضاء، كان هناك موقد تدفئةٍ حديدي بين أسرة الزوجة والأطفال جعل الغرفة أكثر دفئاً. رغم ذلك كان يبدو أن ما أصابه مجرد نزلة برد. سحب اللحاف إلى رقبته قائلاً:
- ”صحيح، أخذت نزلة بردٍ على كل حال! أمس وبعد طعام العشاء خرجت قليلاً..“

- ”هل ذهبت إلى مكانٍ معينٍ أم ماذا؟“

- ”لا. أردت التجول قليلاً فقط. لا أعلم!!.. ربما شعرت بالملل.“
كان مجرد قوله أنه قد شعر بالملل من شيءٍ ما مفاجئاً لي. ”مشيت لمسافة طويلةٍ بعض الشيء.. إلى ناحية المنشآت الزراعية.. وصلت إلى أسفل منحدرٍ حي كشي أورين.. أمشيت بسرعةٍ ياترى؟ شعرت بالحر.. ففتحت عروة صدرتي. كان الجو عاصفاً قليلاً.. والثلج يتساقط بخفة.. أخذت برداً بطبيعة الحال..“

لم يكن خروج رائف أفندي في الليل في جوٍّ مثلجٍ وعاصفٍ ومشيه في طرقٍ فارغةٍ وفتحه أزرة صدريته بتصرفٍ متوقّعٍ منه أبداً.
- ”هل أضجرك شيءٌ ما“ سألته.

جاوب بتعجل:

- "لا يارجل. يحدث بين حين وآخر أن أرغب بالتنزه وحدي في الليل. من يدري، ربما ضجرت من ضجة البيت أو شيء آخر.."
ثم، قال بعجلةٍ وهو خائف من أن يكون قد أكثر في الكلام:
- "يحصل هذا عندما يشيب الإنسان على كل حال، ما السيء في أن يبقى أحدنا طفلاً للأبد؟!"

تعالت الضجة في الخارج، جاءت البنت الكبيرة من المدرسة وحين دخلت قبلت وجتتي أبيها قبل أن تسأله:
- "كيف أصبحت يا أبي العزيز؟"

وقبل أن تتلقى اجابته استدارت نحوي ثم صافحتني وقالت:
- "أهلا بك، هذا يحدث دائماً.. تخاطر في باله مثل هذه الجولات بين حين وآخر، يقول أنا ذاهبٌ إلى المقهى قليلاً، ثم من يعلم أين يتلقفه البرد في القهوة أم في الطريق؟ ومن ثمّ يمرض.. ليست أول مرة تحصل. ما الذي يحصل في القهوة؟ لأدري!"

بعد ذلك طوت معطفها وألقتة على أحد الكراسي، خرجت فوراً. يبدو أنها اعتادت على حالات رائف أفندي هذه ولم تعد تعطيها أهمية كبيرة. نظرت إلى وجهه العليل. أدار عينيه نحوي، لم يكن بهما أي إيضاح أو تعجب. كنت مستغرباً، ليس لأنه كذب على أفراد المنزل، بل لأنه أخبرني بالحقيقة. لكنني كنت أشعر بفخرٍ أيضاً، فخر من يشعر بأنه مقربٌ لشخص ما أكثر من الآخرين.

بمجرد أن خرجت من البيت وسلكت طريق العودة، استغرقت في التفكير. عجباً، هل كان رائف أفندي بسيطاً وفارغاً من الداخل

حقاً؟ بلا أي شغفٍ أو هدفٍ في حياته، لم يكن له أي اهتمام بالناس، ولا حتى أقرب الناس إليه.. ماذا كان يريد إذاً؟ ألم يكن فراغه النفسي وانعدام غاياته هو ما يخرجه للشوارع في المساء؟. أثناء مشيي رأيت أني قد وصلت الى الفندق الذي أقيم به. هنا، كنت أسكن مع صديقٍ في غرفةٍ اتسعت بالكاد لسريرين. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة. فكرت بأن أقرأ كتاباً بدل أن أصعد الى غرفتي بما أني لم أجد بعد، لكنني تراجع في الحال، لأنه وفي مثل هذا الوقت تماماً، يصدح الجرامافون بأعلى صوته من المقهى الذي يقع في أسفل الفندق، وجارتنا الفنانة السورية تغني أكثر الأغاني العربية إزعاجاً بينما تتزين وتتجهز لعملها. عدت أدراجي ومشيت على الطريق المسفلت والمبقع بالطين باتجاه حي كشي أورين.

في أول الطريق كان على جانبيه ورش سيارات ومقاهٍ خشبية منخفضة وبسيطة. تأتي بعدها بيوت مرتفعة في الجانب الأيمن باتجاه التلة. ومن بعدها بدأت تظهر في منطقة منخفضة مزارع تساقطت أوراق أشجارها. رفعت ياقة معطفي، كان يهب هواءٌ رطبٌ وسريع، وفي داخلي، كانت هناك رغبةٌ رائعة في أن أمشي وأركض، كالتى تأتيني عندما أكون ثملاً. أحسست بأنني أستطيع المشي لساعات، بل أيام. مشيت مسافة طويلة ونسيت أن أنظر إلى ما حولي. ومع اشتداد هبوب الريح شعرت وكأن أحداً يدفعني في صدري، أصبح المشي أكثر متعة وأنا أقاوم هذه القوة الدافعة. فكرت فجأةً بسبب مجيئي إلى هنا. أبداً، لم يكن هناك سبب. مشيت من دون هدفٍ وجئت. كانت الأشجار التي بجانب الطريق

تنحني مع الريح، والسحب تجري وتمر بسرعة كبيرة. كانت التلال الصخرية السوداء مازالت تلمع قليلاً في الأفق والسحب تبدو وكأنها تتسلقها وتترك قطعاً منها فيها. كنت أتقدم مغمضاً عينيّ وساحباً الهواء الرطب إلى جوفي.

عاد السؤال الذي رميته من رأسي إليه مجدداً: لماذا أتيت إلى هنا؟ كان الجو اليوم يشبه جو ليلة البارحة كثيراً، ربما بعد قليل سيبدأ الثلج بالتساقط أيضاً. بالأمس كان هنا رجل آخر، نظارته مضببة، قبعته في يده وصدرة مفتوح، يمشي بسرعة وكأنه يجري. النسيم يتخلل شعره القصير والمتناثر، من يعلم كيف كان رأسه المشتعل بالحرارة الآن، كان يبدي كل تلك البرودة. ماذا كان بدخل ذلك الرأس؟ لماذا قاد ذلك الرأس المريض ذو الجسد العجوز إلى هنا؟ كنت أحاول تصور شكل وجه رائف أفندي وهو يمشي في ذلك الظلام أثناء تلك الليلة الباردة. فهمت الآن سبب مجيئي إلى هنا: ظننت بأني أستطيع أن أرى رائف أفندي وأفهم ما يدور في رأسه هنا بشكل أفضل. لكنني لم أكن أرى غير السحب المتشكلة بأشكال كثيرة وأنا أركض هرباً من الريح التي تحاول الإطاحة بقبعتي، ومن هزيز الأشجار. أن أعيش في نفس المكان الذي عاش فيه لا يعني أن أعيش ما عاشه هو، يجب أن يكون الشخص ساذجاً ومغفلاً مثلي حتى يظن ذلك. عدت إلى الفندق بسرعة. خمد صوت الجراموفون والمرأة السورية. كان صديقي ممدداً على السرير وهو يقرأ كتاباً. نظر إليّ بطرف عينه وقال:

– “ما هذا؟ هل كتبت تجالس الفتيات؟”

أتساءل كيف يفهم الناس بعضهم جيداً إلى هذا الحد؟! حتى أنا كان بودي لو أن لي هذه المهارة لأحلل ما بعقل إنسان ما وأرى روحه المعتدلة أو المنحرفة. حتى أكثر الناس بساطة، وبؤساً، بل وحقاً، لهم أرواح غريبةٌ ومعقدةٌ توقع الإنسان من الدهشة! لماذا نهرب من فهم هذا ونظن أن فهم الإنسان والحكم عليه من أسهل الأشياء؟ لماذا نتهرب من الحكم على نوع جنبة رأينا له لأول مرةٍ بينما لا نتورع عن إصدار حكمنا بشأن إنسان ما فور رؤيتنا له، وبضميرٍ مرتاح؟ لم أنم منذ وقت طويل. كان رائف أفندي نائماً يتلظى وسط نار الحمى على سريره ذي الأغشية البيضاء، وهو يشم الرائحة المنتشرة من أطراف بناته وزوجته المتعبة في الغرفة. عيناه مغلقتان، لكن من يعلم أين تكون روحه، وأين كان يتجول؟

استمر مرض رائف أفندي هذه المرة طويلاً. كان يبدو أنها نزلة بردٍ كالعادة. أوصى الدكتور المسن الذي أحضره نور الدين بك لرائف أفندي بمزيج الخردل وكتب له وصفة علاجٍ للسعال. كنت أمر به كل مساء، وفي كل مرةٍ كنت أجد حالته متدهورةً أكثر. لكنه لم يُقلق نفسه كثيراً ولم يبدي أنه يعطي للمرض أية أهمية. ربما لم يكن يريد أن يثير قلق أفراد المنزل. فقد كان القلق يصيب نجلاء ومهرية هانم من أبسط الأشياء. المرأة التي كانت منذ سنوات لا تفكر إلا في أشغال البيت، كانت وبهلع كبير تدخل وتخرج من غرفة المريض، تُوقِع صحناً أو منشفة من يدها وهي تضع مزيج الخردل، كانت دائماً ما تنسى شيئاً في الخارج أو الداخل وتبحث عنه باستمرار.

لا أزال أراهم يركضون بأحذيتهم البسيطة في كل الاتجاهات، وأشعر بنظراتهم التي كانوا يقابلون بها كل من يصادفونه كأنها يستجدون المساعدة المعلقة بي إلى الآن. كانت نجلاء فوق أنها مضطربةً كأمها، غارقةً في حزنٍ كبير. وفي آخر الأيام كانت تنتظر أباهما ولا تذهب إلى المدرسة. وعندما أجيء لتفقدته في المساء كنت ألاحظ أنّ عينيها متورمتان من بعد طول بكاء. لكن كأنها كان كل ذلك يسبب لرائف أفندي الضجر. كان يشكولي ويعبر عن ضجره عندما نكون وحدنا. في إحدى المرات قال لي:

- ”يارجل، مالذي يحدث لهم؟ هل أنا على فراش الموت؟ ولو متنا ما الذي سيحصل! ما شأنهم؟ من أنا بالنسبة لهم؟..“ ثم أردف بمرارةٍ وشكوى:
- ”أنا لاشيء بالنسبة لهم. لست ولم أكن. عشنا مع بعضنا في نفس المنزل سنواتٍ طويلة، لم يخطر ببالهم أن يفكروا من هذا الرجل. والآن يفزعون من احتمال ذهابه.“

- ”ما هذا يارائف بك!“، قلت له وأتبعته: ”وهل هذا كلام يقال؟.. صحيح أنهم بالغوا في قلقهم قليلاً، لكنك جانبت الصواب بتفسيرك لهم بهذه الطريقة.. أنت تتحدث عن زوجتك وابنتك!“
- ”صحيح، زوجتي وابنتي. لا أكثر ولا أقل.“

حوّل رأسه إلى الجهة الأخرى. لم أفهم ماذا كان يرمي بكلماته الأخيرة ولكنني كنت متردداً من أن أستفسره عن مقصده. وللتهدئة من روع من في المنزل، أحضر نور الدين بك استشاري باطنية. بعد فحص ومعاينة طويلين أعلن الطبيب بأن السيد رائف مصاب بوباء ذات

الرثة، وليهدئ من روعهم قال:

- ”لا يا عزيزي، ليس هو بالشيء الخطير... ماشاء الله، بنيتة مقاومة وقلبه سليم، يستطيع تجاوزه. لكن يجب أن تعتنوا به، حذار أن يبرد. سيكون من الأفضل لو أخذتموه إلى المستشفى.“

بمجرد أن سمعت مهريّة هانم كلمة مستشفى اعترتها دوخةٌ خفيفة وانهارت تبكي بصوت عالٍ على إحدى الكراسي الموجودة في الردهة. اعترض نور الدين بك عابساً وكأنه مُسّ في كرامته: «لا داعي إلى ذلك. سيلقى عنايةً في بيته أفضل من عناية المستشفى.»

هزّ الطبيب كتفيه ومضى.

في البداية أراد رائف أفندي الذهاب إلى المستشفى، كان يقول: ”هناك أستطيع أن أريح رأسي على الأقل!“ . كان جلياً من كل حالاته أنه يفضل البقاء وحده، لكنه وبعد أن قوبل طلبه برفضٍ شديدٍ سكت ولم يعد يصدر صوتاً. تتمم بابتسامةٍ ملؤها اليأس: ”حتى لو ذهبت إلى هناك فلن يتركوني على راحتني!“

يبقى هناك يوم من الأيام مازالت تفاصيله في ذاكرتي. كنت جالساً على كرسي بجانب سريره، وبصمت تام، كنت أشاهده نائماً وهو يتنفس بصفيرٍ خفيف. كانت هناك بين زجاجات العلاج التي على الطاولة بجانب مرقده ساعةٌ تملأ الغرفة بصوت جرس معدني. قال وهو يفتح عينيه الهاربتين إلى داخل جمجمته:

- ”أشعر اليوم بتحسن!“

- ”بالتأكيد... لن يستمر هذا الحال إلى الأبد طبعاً.“

في تلك اللحظة، سأل بصوت حزين:
 - "حسناً ولكن، إلى متى سيستمر هكذا؟"
 أدركت المعنى الحقيقي لسؤاله واحترت. كان السأم الذي في صوته
 يفصح عن ما كان يقصد.
 قلت: "ماذا يحدث لك يا رائف بك؟"
 سألني بإصرار وهو يثبت عينيه في عيني:
 - "حسناً ولكن، مالزوم كل هذا؟ ألا يكفي بعد؟ .."
 دخلت مهريّة هانم وقالت وهي تجلس بجانبني:
 - "اليوم أفضل! براء من مرضه بإذن الله."
 ثم التفتت إلى زوجها قائلة:
 - "سنغسل الملابس يوم الأحد، لو يُحضر هذا السيد منشفتك!"
 هز رائف أفندي رأسه موافقاً. خرجت المرأة مجدداً بعد أخذ شيءٍ
 بحث عنه في الخزينة. أزال تحسن رائف أفندي الطفيف كل قلق زوجته
 واضطرابها وأخفاه. عاد عقلها إلى الإنشغال بمشاكل البيت كعادته
 القديمة، من أكل وغسيلٍ وغيره. كانت تتحول من الكدر إلى السرور،
 ومن الهلع إلى السكون، ومثل كل النساء تنسى كل شيء بسرعة. كان في
 وجه رائف أفندي نظرات مليئة بالحزن وابتسامة عميقة. قال مشيراً إلى
 معطفه المعلق على طرف السرير:
 - "في جيب المعطف الأيمن هناك مفتاح، خذه. افتح درج مكتبي الأول،
 وأحضر المنشفة التي تحدثت عنها السيدة. سأتعبك معي لكن .."
 قاطعته: «سأحضرها غداً مساءً».

صمت لمدة طويلةٍ محققاً في سقف الغرفة. واستطرد فجأة:
”أحضر كل ماتجده في الدرج، أياً كان! يبدو أن سيدتنا عرفت بحدسها
أنني لن أذهب إلى الشركة مرة أخرى، فهذه المرة ستكون رحلتي إلى
مكان آخر.“
ودفن رأسه في الوسادة مجدداً.

في اليوم التالي ذهبت إلى مكتب رائف أفندي قبل أن أخرج من الشركة.
كان في جنبه الأيمن ثلاث أدراج فوق بعضها البعض. بدأت بفتح
السفلي أولاً، كان خالياً، والذي يليه كان ممتلئاً بأوراقٍ ومسودات
ترجمة. شعرت بقشعريرة وأنا أدير المفتاح في قفل الدرج الأول؛
أدركت أنني أجلس في المقعد الذي كان يجلس فيه رائف أفندي منذ
سنوات طويلة وأمارس نفس تصرفه الذي كان يكرره كل يوم لعدة
مرات. فتحت الدرج على عجل، وقد كان يبدو خالياً. عدا أن في زاويته
البعيدة كانت هناك منشفةٌ متسخةٌ جداً وقطعة صابون ملفوفة بورق
صحيفة وسفراطس -حافظة طعام- وشوكة وسكين صغيرة. لففتهم
كلهم داخل ورقة سريعاً، ثم دفعت الدرج إلى مكانه ونهضت، لكنني
أردت التأكد من أني لم أترك شيئاً خلفي ففتحت الدرج مجدداً وفتشت
داخله بيدي. في الواقع كان هناك شيء أشبه بالدفتر. تناولته هو أيضاً
ووضعتة بجانب الأغراض الأخرى ونهضت خارجاً. لم يكن احتمال
عدم جلوس رائف أفندي على هذا المقعد مرة أخرى أو استعماله للدرج
يفارق تفكيري.

استقبلت في المنزل باضطرابٍ وهلعٍ من جديد. عندما فتحت نجلاء

الباب هزت لي رأسها قائلة: "لاتسألوا، لاتسألوا!". بحلول ذلك الوقت كنت قد أصبحت كأحد أفراد المنزل ولم يعد أي منهم يستقبلني كضيف غريب. تابعت الفتاة: "ساءت حالة أبي مجدداً! تدهور وضعه اليوم مرتين، خفنا كثيراً. أحضر صهري الطبيب وهو بجانبه الآن. إنه يقوم بإعطائه حقنة." وأسرعت إلى غرفة المريض.

لم أدخل إلى الغرفة. جلست على أحد كراسي الردهة واضعاً حزمة الأغراض بجانبني. ورغم أن مهريّة هانم خرجت من الغرفة عدة مرات إلا أنني خجلت من أن أناولها الكيس وهي في ذلك الحال. سيكون تصرفاً غير لائقٍ حقاً أن أعطيها منشفةً متسخةً وشوكة طعام قديمة بينما ينازع إنسان مع روحه بالداخل. نهضت وبدأت بالتجول حول الطاولة التي في المنتصف، لكنني انشدهت عندما رأيت نفسي في المرآة، فقد شحب لوني إلى الأصفر تماماً. بدأ قلبي بالخفقان بشدة. ليكن من يكن، فمعاناة إنسان يراوح في جسرٍ بين الحياة والموت لشيءٍ مرعب حقاً. بعد ذلك، فكرت بأنه لاحق لي في أن أظهر حزناً وتأثراً كبيراً في ظل وجود زوجته وبناته وأقربائه.

في تلك الأثناء، نظرت إلى باب غرفة الضيوف المشرع قليلاً. وعندما اقتربت رأيت إخوة زوجة رائف أفندي جهاد ووداد وهما جالسان على أريكةٍ جنباً إلى جنب يدخانان السجائر. كان بادياً عليهم الضجر والإنزعاج لعدم قدرتهم على ترك المنزل. بينما كانت نورتان جالسة على أحد المقاعد، مطرقة برأسها على ذراعها، تبكي، أو ربما نائمة. وبجانبها كانت فرهونده جالسة تحاول إلهاء طفلها اللذان كانا في حضنها بهمهمة

أشياء عشوائية، لكنها كانا يبدو ان مدركين أن في الموضوع خدعة.
فُتح باب غرفة المريض وخرج الطبيب يتبعه نور الدين بك. ورغم كل
لباقته إلا أنه لم يبد مرتاحاً.

- "لا تتركوه وحده، وإذا تكررت النوبة احقنوه بهذه الإبر."

سأل نورالدين بك رافعاً حاجبيه: «هل وضعه حرج؟»
أجاب الطبيب كما اعتاد كل الأطباء أن يقولوا في مثل هذه
الحالات: "لست متأكداً!"

وكي لا يتعرض لمزيد من الاستجواب، أو المضايقة من زوجة رائف،
ارتدى معطفه وقبعته على عجل وتناول الثلاث ليرات الفضية من نور
الدين مقطباً وجهه وترك المنزل.

دلفت إلى غرفة المريض بهدوء. نظرت إلى الداخل. كانت السيدة مهريّة
ونجلاء يتفرجان على النائم المريض بفضولٍ وقلق. أشارت لي الفتاة
بإصبعها منادية عندما رأته. كانوا يريدون أن يشاهدوا تأثيري الموقظ
للمريض. ولأني أدركت رغبتهم حاولت بكل قوتي أن أسيطر على
نفسي. هززت رأسي بشكل خفيفٍ وكأني مطمئن مما أراه. ثم إلتفت
لهنّ وهنّ واقفات وقلت بابتسامة مصطنعة:

- "لا يوجد ما يقلق! .. سيشفى إن شاء الله!"

فتح المريض عينيه بثقل، ونظر إليّ لمدةٍ كأنه لم يعرفني. ثم وبجهدٍ فائقٍ
استدار بوجهه إلى زوجته وابنته، وتمتم عابساً بكلمات غير مفهومة.
تدخلت نجلاء:

- "هل أردت شيئاً يا أبت؟"

- "هيا، أخرجوا قليلاً!"

كان صوته خفيفاً جداً ومتقطعاً.

أشارت إلينا ماهرة هانم، لكن المريض لاحظ ذلك فأخرج ذراعه من تحت اللحاف وسحبني من خصري وقال:

- "ابق أنت!"

تفاجأت السيدات بعض الشيء. قالت نجلاء:

- "أبتي، لا تخرج يدك! .."

هز رائف أفندي رأسه بسرعة وكأنه يقول «أعرف، أعرف!» وأشار لهم مجدداً بأن يخرجوا. غادرت السيدتان الغرفة وهن تتابعنني بنظراتٍ مستفسرة. عند ذلك أشار رائف أفندي إلى الكيس الذي نسيته تماماً:

- "هل أحضرت كل شيء؟"

في البداية نظرت إليه مستوضحاً. هل كنت أفعل كل ذلك ليسألني هذا السؤال فقط؟ كان المريض مازال ينظر في وجهي وعيناه تلمعان في فضولٍ شديد. تذكرت الدفتر الأسود في هذه اللحظة لأول مرة. لم يكن قد انتابني فضولٌ لأفتحته ولو لمرة قبل أن أجيء. ولم أحزر أبداً أن هذا الدفتر قد يكون شيئاً ذا قيمة خاصة لرائف أفندي. فتحت الكيس بسرعة ووضعت المنشفة على كرسي خلف الباب. وعندما وجدت الدفتر عرضته على رائف أفندي:

- "هل هذا ما كنتم تريدونه؟"

- أوماً برأسه: "نعم".

قلبت صفحات الدفتر على مهل. أحسست بداخلي فضولاً يتضخم

ولا يقاوم. في بعض الصفحات كانت هناك أسطرٌ مكتوبةٌ بأحرفٍ كبيرةٍ وغير متناسقة، بدا لي أنها كُتبت على عجل. ألقىت نظرة سريعةً على أول صفحة، لم يكن هناك عنوانٌ أو شيءٌ من هذا القبيل. في جانب الصفحة الأيمن سُجِّل تاريخ 20 حزيران 1933 تتلوه هذه الأسطر:

” حصل لي البارحة حادثٌ غريبٌ جعلني أعيش ذكرياتٍ حصلت لي قبل عشرة سنواتٍ من جديد.“

لم أستطع إكمال القراءة. أخرج رائف أفندي يده مجدداً ممسكاً بيدي: ”لاتقرأ!“ قالها ثم أشار برأسه إلى الطرف الآخر من الغرفة قائلاً بصوت خافت:

- ”ألق به هناك!“

نظرت إلى ما كان يشير إليه. من خلف لوحات الميكا، كان هناك موقد تدفئةٍ يلمع بعيونٍ حمراء.

- ”إلى النار؟“

- ”نعم!“

في هذه اللحظة تضاعف فضولي أكثر. كان إحراق دفتر رائف أفندي بيدي شيئاً مستحيلاً:

- ”ما السبب يا رائف بك!“ قلت مردفاً: ”أليس هذا مؤسفاً؟ هل يليق

أن تحرق دفترأ كان صديقاً لك لزم من طویل وكأنه لايعني لك شيئاً؟“

- ”لم يعد له ضرورة!“

أدركت بأنني لن أستطيع ثنيه عن رأيه. يبدو أنه يريد الرحيل مع دفتره الذي يحتمل أنه سكب فيه روحه التي كان يخفيها عن كل الناس.

استيقظ بداخلي إحساس بالعطف وشفقة لامتناهية تجاه الرجل الذي كان حتى وهو في طريقه إلى الموت يفضل أن يأخذ وحدته معه ولا يترك شيئاً منها للناس.

قلت: ”أتفهمكم يارائف بك!.. نعم، أفهم جيداً. لكم حق في الغيرة على أشياءكم من الناس. وقراركم بإحراق الدفتر أيضاً قراراً مصيباً.. لكن ألا تبقي عليه لمدة بسيطة، على الأقل ليوم واحد؟“

رمقني بنظرةٍ تستفهم عن السبب. دنوت منه محاولاً تجميع كل المحبة والمودة التي أكنها له في عيني لأكمل مابدأته وأجرب الحيلة الأخيرة:

- ”ألا تتركون لي هذا الدفتر لليلة، لليلة واحدة فقط؟ رغم طول فترة صداقتنا إلا أنكم لم تخبروني بأي شيءٍ عنكم. ألا ترون اهتمامي وفضولي شيئاً طبيعياً؟ أنتم بالنسبة لي أهم إنسان في هذه الدنيا.. هل تريدون رغم هذا بذهابكم وترككم لي بأن تخبروني بأني لا أعني لكم شيئاً كالآخرين؟“

أدمعت عيني. أكملت رجائي وصدري يرتجف. كأنها كنت في هذه اللحظة أسكب كل ما تجمعت في روحي من ضيم تجاه الرجل الذي كان يهرب من محاولات تقربي له منذ أشهر.

- ”ربما أنتم محقون في سحب ثقتكم من الناس. لكن ألا يوجد استثناءات؟ أمستحيل ذلك؟ لاتنسوا أنكم أنتم أيضاً أحد هؤلاء الناس، قد يكون ماتفعلونه هو قمة الأنانية.“

صمتٌ عندما استدركت عدم ملائمة إلقائي مثل هذه الكلمات الثقيلة على مريض. كان هو. صامتاً أيضاً. أخيراً قلت بآخر جهد:

- ” يا رائف بك، أرجوكم تفهّموني أنا أيضاً! فأنا في بدايات الطريق الذي أنتم في نهايته. أريد أن أتعلم وأفهم الناس، وعلى الخصوص أريد أن أعلم ماذا فعل الناس لكم..“

هز المريض رأسه بعنفٍ مقاطعاً كلامي. كان يتمتم بشيء، انحنيت مقرباً منه، شعرت بحرارة أنفاسه في وجهي، كان يقول:

”لا، لا!.. لم يفعل الناس لي شيئاً.. لاشيء أبداً.. لكن أنا.. أنا..“
أطرق فجأة ووقع رأسه على صدره. كان يتنفس بسرعة أكبر. مؤكداً أن هذا المشهد أتعبه. بدأت أنا أيضاً أشعر بتعب نفسي كبير.

- ”لا ذنب لأحد، ولا حتى لي أنا!“

لم يستطع إكمال كلامه. كان يسعل. قال أخيراً مشيراً بعينه إلى الدفتر:

- ”اقرأ، سترى بنفسك!“

دست الدفتر ذي الغلاف الأسود بجيبي بسرعة كمن لم يصدق الفرصة.

- ”سأحضره غداً صباحاً وأحرقه أمامكم!“.

هز المريض كتفيه بلا اكتراثٍ كأنه يعني «افعل ما شئت!».

فهمت الآن سبب قطع علاقته بهذا الدفتر الذي يحتوي على أهم فصول حياته. قبلت يده مودعاً. وعندما أردت الاعتدال واقفاً لم يتركني وسحبني إليه، قبل جبھتي أولاً ثم خدي. وعندما رفعت رأسي وجدت دموعه قد إنهمرت على صدغيه. لم يكن رائف أفندي يحاول فعل أي شيءٍ ليمسح دموعه أو يداريها، كان يحدق فيّ بعينه من دون أن يرمش. لم أستطع أن أمسك نفسي عن البكاء أيضاً، كان بكاءً شديداً

وصامتاً بلا شهيق، كالذي يصدر في أوقات الحزن والهم. كنت أعرف أن وداعي ومن ثمّ تركي له سيكون عسيراً. لكنني لم أتصور أنه سيكون مؤلماً وقاسياً بهذا القدر.

حرك رائف أفندي شفّيته مرة أخرى، وقال بصوتٍ بالكاد سمعته: - "لم نجلس معكم ونتحدث كما يجب، يا للأسف يا بنيّ!"، ثمّ أغمض عينيه.

كان يعتبر هذا وداعاً. ولأجل ألا أظهر وجهي للمتظرين بالخارج، انطلقت بسرعة ماراً بالردهة وخارجاً من المنزل. في الطريق جفف النسيم البارد وجتتي. كنت أردد بيني وبين نفسي بلا توقف: «يالأسف! .. يالأسف!». وعندما وصلت إلى الفندق وجدت زميلي يغط في نومه. إستلقيت على السرير وأشعلت المصباح الذي بجانبه، ثم بدأت في قراءة الدفتر ذي الغلاف الأسود:

20 حزيران 1933

"مرّت بي البارحة حادثةٌ غريبةٌ أعادت إلى ذهني أحداثاً عشتها قبل عشر سنوات وجعلتني أعيشها من جديد. أعلم أن هذه الذكريات التي كنت أظن بأني نسيتها وقد ذهبت لن تتركني بعد الآن أبداً.. أي صدفةٍ غادرةٍ أخرجتها لي من جديد وأيقظتني من نومي الذي كنت أغط فيه، ومن الخدر مسلوب الحس الذي تعودت عليه تدريجياً. أكون كاذباً لو قلت بأني سأجنّ أو أموت. فالإنسان يعتاد سريعاً ويصبر على الأشياء التي كان يظن بأنه لن يتحملها أبداً. سأعيش، لكن كيف سأعيش! من اليوم فصاعداً ستكون حياتي عذاباً لا يطاق!

لكنني سأتحمل.. كما تحملت إلى الآن.

لكن التحمل والصبر لم يعد بشيء ممكن بالنسبة لي: لن أستطيع أن أكتب كل شيء في صدري وحدي. أريد أن أسرّ لأحد ما بدا في نفسي وأخرج ما أحبس في داخلي. لكن لمن؟ هل هناك في هذه الدنيا الكبيرة إنسان آخر بقدر وحدتي ياترى؟ لمن؟ وماذا سأحكي؟ لا أذكر أنني أخبرت أي أحدٍ بأي شيءٍ طيلة عشر سنوات. هربت من الناس وأبعدتهم عني بلا فائدة. لكن هل أستطيع أن أتغير بعد هذا؟ لم يعد هناك إمكان لتغيير أي شيء، ولا ضرورة لذلك. يبدو أن هذا الأمر يقتضي ذلك. فقط لو أستطيع أن أقول.. أن أبوح بما في داخلي لأحدٍ ما... حتى لو أردت ذلك حقاً فمن غير الممكن أن أعثر على شخص كذلك. لم تعد بي طاقة للبحث. حتى لو بقيت، فلم أكن لأبحث.. لأي سببٍ اشترت هذا الدفتر أصلاً؟ لو كان عندي ذرة أمل بسيط، هل كنت سأقرر أن أكتب وأنا الذي أكره الكتابة أكثر من أي شيءٍ في هذه الدنيا؟ إنه شيءٌ ضروريٌ للشخص أن يخبر عما في نفسه. لو لم يحصل ما حصل بالأمس.. آه لو لم أعلم.. لربما كانت حياتي القديمة المريحة ستستمر.

بالأمس وأنا ذاهبٌ في طريقي صادفت شخصين. أحدهما كنت أراه لأول مرة، أما الثاني فربما أستطيع قول أنه كان من أبعد الناس عني. هل كان ليخطر على بالي حتى بأنه سيكون لهما هذه التأثيرات الهائلة على حياتي؟

لكن وبما أنني قررت أن أكتب مرةً، فسأسرد كل شيءٍ على مهل ومن البداية. لذلك، عليّ الرجوع اثنتي عشرة سنةً إلى الوراء. ربما خمسة

عشرة سنة. سأكتب من دون كلل.. فربما بسردي لكل التفاصيل والجوانب الغير مهمة أستطيع أن أخلص نفسي من هذا التأثير. وربما يكون ما سأكتبه أقل مرارة مما عشته في الحقيقة فأسعد قليلاً. من يدري، ربما أخجل من انفعالي عندما أرى أني كنت مبالغاً وأنني أعطيت أشياء سخيفة أكبر من حجمها الحقيقي.

كان أبي من هاوران⁽¹⁾. ولدت وترعرعت وتلقيت تعليمي الابتدائي هناك، بعد ذلك ذهبت إلى مدرسة اديرميت الإعدادية اللي كانت تبعد ساعة عنّا. وفي آخر سنوات الحرب العالمية الأولى أخذت إلى الجيش، وقد كان عمري تسعة عشرة سنة. لكنهم ما لبثوا أن أعلنوا الهدنة⁽²⁾، فعدت إلى البلدة. لكنني لم أعد إلى إكمال الإعدادية. لم يكن عندي شغف للدراسة أصلاً. فانقطاعي عن المدرسة لسنة والأحوال السيئة التي كانت تدور في البلاد جعلتني أنفر من الدراسة. تفككت كل الروابط من بعد الصلح، فلم تبق حكومة جيدة يمكن الوثوق بها، ولا هدف أو فكرة واضحة. كانت بعض المناطق محتلةً بواسطة قواتٍ أجنبية، وفجأةً بدأت عصاباتٌ كثيرةٌ بالتشكّل، تحت أسماء مختلفة وكثيرة. كانت أحياناً تنشط في تشكيل جبهات لمقاومة العدو، وأحياناً أخرى تقوم بنهب القرى. لم يكن غريباً أن البطل الذي كانت تلوك اسمه أفواه الناس بالأمس، تسمع بعد أسبوع عن إعدامه شنقاً

(1) Havran مدينة صغيرة في غرب تركيا - المترجم

(2) تم التوقيع على الهدنة في 11 نوفمبر من عام 1918.

في ميدان أدرميت بعد تعذيبه والتنكيل به في قسم الشرطة. في أوقاتٍ مثل هذه، لم يكن حبس نفسي بين أربعة جدران وقراءة التاريخ العثماني أو كتب الأدب والأخلاق بشيءٍ جذابٍ بالنسبة لي. لكنّ أبي الذي كان أحد أفراد المنطقة الموسرين كان ولسببٍ ما مهتماً بتعليمي. على الأغلب أنه عندما رأى أن كثيراً من أقربائي الذين يتحزمون بالرصاص وينضمون للعصابات كان ينتهي بهم مصيرهم إلى القتل على يد الشرطة أو عصاباتٍ أخرى بدأ بالخوف على مستقبلي. في الحقيقة كنت أجهز بسرية أيضاً، لأنني مللت من الفراغ. لكن في غضون ذلك جاءت قوات الإحتلال إلى القرية، وأجبرتني على أن أبتلع حماسي وطموحي في أن أكون بطلاً.

تسكعت عدة أشهر كشابٍ متشرد. اختفى أكثر أصدقائي مع الوقت، فقرر أبي إرسالني إلى إسطنبول. لم يكن يعرف حتى إلى أين سأذهب، كان يقول: «جد لنفسك مدرسة، وتعلم!». ورغم كوني عديم الفائدة وخجول دائماً، إلا أن قول أبي هذا لي كان كافياً ليثبت لي بأنه لم يكن يعرفني بما فيه الكفاية. مهما يكن، كنت أحس في داخلي بميولٍ خفيةٍ لبعض الاتجاهات. في المدرسة كان هناك درس واحدٌ أنال فيه الدرجة الكاملة، ألا وهو الرسم. فقد كنت أرسم بشكلٍ ممتاز. كنت أفكر بين الحين والآخر في دراسة الفنون الجميلة بإسطنبول وأخلق لنفسي أحلاماً جميلة. في الواقع، كنت ومنذ صغري طفلاً هادئاً يعيش في عالم الخيال. في طبعي خجل وتردد مبالغٌ فيها لدرجة أنها يتسببان في إساءة فهم من حولي لي ويضعني في مواقف سخيفة ومحرجة، مما كان يجزئني

كثيراً. حتى عندما كان زملائي في المدرسة يسيئون إليّ لم أكن أجروء على أن أدافع عن نفسي ولا حتى بكلمة، وعندما أعود إلى البيت كنت أجد لنفسني زاوية أجلس فيها وأنتحب. أتذكر ترديد أُمي وأبي بالذات على أسماعي قول: «يا إلهي! كان من المفترض أن تولد أنثى ولكن حصل خطأ ما!». كان أكثر شيءٍ يمتعني هو الجلوس وحيداً في حديقة المنزل أو على حافة الجدول والغوص في خيالاتي. كانت خيالاتي وعلى العكس من شخصيتي: واسعةً وجريئةً، مثل أبطال الروايات المترجمة الكثيرة التي قرأتها: كنت أتخيل نفسي متحزماً بمسدسين ومرتدياً لقناع، أهرب مع الفتاة التي تسكن في الحي المجاور. فخرية، والتي أحمل تجاهها الكثير من المشاعر اللذيذة والتي لم أستطع تحديد ماهيتها، إلى مغارة في الجبل متحدّين كل شيءٍ ومنقلبين عليه. أتخيلها بعد أن كانت مترددةً خائفةً، كيف رأت أتباعي مرعوبين وهم يرتعدون خوفاً مني، وشاهدت الكنوز التي لا مثيل لها في المغارة، وحينما أكشف القناع عن وجهي تقفز صارخة ومتعلقة برقبتي بسرورٍ لا يمكن كتمانها. أحياناً كنت أصبح مثل كبار المستكشفين. أتجول في إفريقيا، وأمر بمغامراتٍ عجيبةٍ بين آكلي لحوم البشر، وأحياناً أخرى أكون رساماً وأتجول في أوروبا. كل الكتب التي قرأتها، كتب ميشال زيفاكو وجول فيرن وألكسندر دوما وأحمد مدحت أفندي ووجهي بك تركت في رأسي أثراً لا يُمحى.

كان أبي يستاء ويغضب من قراءتي، لدرجة أنه كان في بعض الأحيان يأخذ الروايات ويتخلص منها، وأحياناً يحرم غرفتي من نور المصباح في الليل. لكنه كفّ عن مضايقاته عندما رأني مرةً، أنا الذي كنت أجد حلاً

لكل شيء، أصنع من فتائل الخيط الصغيرة مصباحاً وأهرب من نفسي إلى قراءة «أسرار بارييس» أو «البؤساء». كنت أقرأ كل شيءٍ تقع عليه يدي، وأتأثر بها جميعاً، سواءً كانت مغامرات مسيو لوكوك أو تاريخ مراد بك.

عندما كنت أقرأ في تاريخ روما القديم عن مفوض اسمه ميوكوس سكيڤولا، وجدت أنه وفي أثناء عقد مفاوضة صلح، وكرّده على تهديد له بالقتل في حال عدم قبوله بشروط المعاهدة، وضع ذراعه في النار المشتعلة بجانبه وأكمل بكل هدوءٍ إجراءات التفاوض. عندما قرأت كيف أنه بفعله هذا أثبت لهم أن التهديدات لانتخيفه، أردت أن أضع يدي في النار وأجرب ما مرّ به بكل عزم وقوة، فأحرقت أصابعي بشكل بالغ. لم تترك صورة هذا الرجل الصامد الذي حافظ على ابتسامته في وجه أكبر الآلام مخيلتي أبداً. في بعض الأحيان، كنت عندما أشرع في محاولة الكتابة ونظم أشعار قصيرة سرعان ما كنت أراجع عن ذلك، إذ كان خوفي من إخراج ما بداخلي بأي شكلٍ كان وترددي الذي لا أملك له سبباً يمنعاني من الكتابة على الدوام. لكنني تابعت الرسم فقط. لم أكن أشعر بأن الرسم هو طريقةٌ أخرى للتنفيس عما في داخلي. كان يبدو لي عبارةً عن وسيطٍ لعكس ما أراه على الورق فقط. ولكن عندما اكتشفت أنه ليس كذلك توقفت عن ممارسته أيضاً. كل هذا بسبب ذلك الخوف. أدركت بنفسي ومن دون مساعدة أحد كون الرسم شكلاً من أشكال التعبير عن النفس بينما كنت أدرس في معهد الفنون الجميلة بإسطنبول، ولم أكمل بعدها دراستي. لم يكن المدرسون يجدون في شيئاً على أية حال.

كنت أعرض أكثر رسوماتي فراغاً. الخالية من المعنى والتي لاتعبر عن أي شيء وأخفي وأتخرج من إظهار أي رسمٍ بها مايعبر عني أو يعرض أي شيءٍ مني بحرصٍ شديد. وعندما كانت إحداها تقع بيد أحدٍ ما كنت أفزع وكأنني امرأة ضببت وهي عاريةٌ في وضعٍ مخجلٍ وأوَّي هارباً. تسكعت في إسطنبول لمدةٍ طويلةٍ من دون أن أعرف ماذا أفعل. في سنوات الهدنة، أضحت المدينة عديمة الحياء ومضطربةً إلى حدٍ لا أحتمله. طلبت من أبي مالاً لأعود إلى هاوران. وبعد عشرة أيام تلقيت مكتوباً طويلاً منه. وجد أبي حلاً أخيراً ليجعل مني رجلاً ذا فائدة. أخبرني فيه بأنه سمع بأن قيمة العملة في ألمانيا هبطت لدرجة أن المعيشة هناك أصبحت رخيصة جداً للأجانب، بل وأرخص منها في إسطنبول. وأنه بناءً على ذلك أرسل لي بعض المال لمصاريف السفر إلى ألمانيا لأتعلم حرفة صناعة الصابون هناك. سررت لدرجة هائلة. ليس بسبب محبتي وشغفي بهذه الحرفة أو ما يشابه ذلك. كان ابتهاجي بسبب ظهور فرصة كهذه ومن دون أي جهدٍ أو توقعٍ مني، لزيارة أوروبا التي كانت موضوعاً لجلِّ أحلامي وخيالاتي المتشكِّلة بالآلاف الأشكال. كان يقول في مكتوبه «تتقن الحرفة في غضون سنة أو ستين وتعود، عندها سأوسع مصنع صابوننا وأصلحه ومن ثم أسلمه لك، وبالتالي تدخل أنت أيضاً إلى عالم التجارة وتسد وتفرح بأطعم الذهب». لكنني لم أكن أفكر في هذا الجانب حتى.

كان توقعي هو أنني سأتعلم لغة اجنبيةً ثم أقرأ بها كتباً، وسأجد الشخصيات التي كنت أصادفها في الروايات فقط في أوروبا على

الحقيقة. ألم يكن أحد أسباب ابتعادي عن محيطي وتوحشي هو عدم إيجادي للشخصيات التي تعرفت عليها في الكتب وتقمصها؟ تجهزت في غضون أسبوع وتحركت بالقطار إلى برلين ماراً ببلغاريا. لم أكن أعرف أية لغة. وبفضل بعض الكلمات التي حفظتها من كتاب المحادثات في خلال أيام الرحلة الأربع، إستطعت أن أصل إلى المهجع الذي سجلت عنوانه لدي وأنا في إسطنبول.

مرّت أول أسابيعي هناك وأنا أتعلم الألمانية بما يكفيني لأدير أموري، وأتجول في المدينة مشاهداً ما حولي بذهولٍ وإعجابٍ كبير. لكن دهشة الأيام الأولى لم تستمر طويلاً. كانت برلين أقصى ما يمكن أن تكونه مدينة في زمانها. شوارعها أوسع بعض الشيء، وأنظف بكثير، وأناسها شقرٌ أكثر. لكن لم يكن بها ما يذهل الإنسان ويسوقه للدهشة. لم أكن أعرف ماهية أوروبا التي كانت في خيالي بالضبط، بالتالي لا أستطيع أن أقيس برلين التي أعيش فيها الآن عليها وأعرف ما ينقصها. أدركت وقتها أن الأشياء الرائعة التي نحلم بها لا تتحقق كما هي في أحلامنا أبداً.

وتحت ظن بأنني لن أستطيع أن أجد عملاً قبل أن أتعلم اللغة، بدأت في تلقي دروس خصوصية في اللغة الألمانية من ضابطٍ ألمانيٍّ متقاعد كان في تركيا أثناء الحرب العالمية الأولى، وتعلم خلالها قليلاً من التركية. كانت السيدة صاحبة المهجع أيضاً تثرثر معي في أوقات فراغها وتساعدني. نزلاء المهجع الآخرون كذلك كانوا لا يضيِّعون فرصةً لتبادل الكلام وتصديع رأسي بأسئلةٍ سخيفة. على سفر طعام العشاء كان الحشد

هجيناً متعدد الألوان. من بين أصدقائي كانت أرملةً هولندية اسمها فراو فان تيدمان، وتاجرٌ برتغاليُّ اسمه هير كامرايستورد البرتقال من جزر الكناري إلى برلين، وهير دوبكه العجوز. آخرهم هذا كان يمارس التجارة في كينيا، والتي كانت تخضع للاستعمار الألماني، لكنه ترك كل ما يملك بعد الهدنة وعاد إلى وطنه. وبالمال البسيط الذي استطاع أن ينفذ به أصبح يعيش حياة متواضعة جداً. يقضي يومه في الذهاب وحضور الاجتماعات السياسية التي كانت تغص بها برلين في ذلك الوقت، ثم يعود في المساء ليحكى لنا عن انطباعاته. كان يحضر معه في مرات كثيرة أحد الضباط الألمان العاطلين والذين تعرف عليهم ويتناقش معهم لساعاتٍ طويلة. كانوا على حسب فهمي القاصر، يرون خلاص ألمانيا في تعيين رئيس بقيادةٍ حديديةٍ كبسمارك والبدء بالتسلح فوراً لخوض حرب عالمية جديدةٍ ورفع الظلم الذي حصل.

أحياناً كان أحد نزلاء المهجع يتركه، فتُخلى غرفةٌ سرعان ماتمتملى بشخصٍ آخر. لكنني مع الوقت بدأت بالإعتياد، بل بالسأم من هذه التغيرات، ومن الثريا الحمراء التي كانت تضيء لنا صالة الطعام المظلمة على الدوام، ومن روائح أنواع الملفوف المختلفة التي كانت لا تختفي من السفارة أبداً، ومن المجادلات والمناقشات السياسية لأصدقائي. في هذه المجادلات، كان لكل واحدٍ منهم رأيٌ مختلف لخلاص ألمانيا. لكن كل هذه الآراء في الواقع لم تكن مرتبطة بمصلحة ألمانيا، بل بالمصالح الشخصية المرتبطة بكل واحدٍ منهم. فالمرأة التي خسرت ثروتها بسبب هبوط قيمة العملة كانت تحق على الضباط، وتلوم الجنود الذي لم

يرغبوا في الاستمرار في الحرب، وتاجر المستعمرة كان يسب ويشتم في من أعلن الحرب على الإمبراطورية بلا توقف. حتى الفتاة التي كانت توظب لي سريري في الصباح كانت تحاول الحديث معي عن السياسة، وفي أوقات فراغها تتصفح الجرائد. حتى هي كانت لها قناعاتها الملتهبة، وعندما تتحدث عنها كانت تلوح بقبضتها في الهواء ووجهها محتقن.

كنت وكأني قد نسيت الهدف من مجيئي إلى ألمانيا. في كل مرة يصلني مكتوبٌ من أبي يذكرني بموضوع الصابون، كنت أكتب له في ردي بأنني مشغول حالياً بتعلم اللغة، وبأنني قريباً جداً سأقدم للحصول على وظيفة في شركة محترمة؛ أغافل نفسي وأغافله. أيامي تمرّ برتابة شديدة وتشبه بعضها تماماً. تجولت في كل أنحاء المدينة، زرت كل حدائق الحيوان والمتاحف. كان مخيباً لألمي أن هذه المدينة المليونية تنتهي في خلال أشهر قليلة فلا يبقى فيها مكانٌ للزيارة. كنت أقول بيني وبين نفسي متهكماً: «هذه هي أوروبا! مالذي هنا ياترى؟» وأحكم على الدنيا كلها بأنها مملّة جداً. كنت في أغلب الأماسي أتجول وسط الزحام، وأتفرج في وجوه الناس وهم عائدون إلى بيوتهم. أناسٌ تعلو وجوههم نظراتٌ جديدةٌ توحى بأنهم يمارسون أعمالاً مهمة، ورجالٌ مازالوا يحافظون على رتم خطواتهم العسكرية وهم يمشون وأذرعهم متشابكة مع سيدات ضحكاتٍ مستندات عليهم.

وكي لا أكون قد كذبت على والدي، وبمساعدة بعض أصدقائي الأتراك، تقدمت للحصول على وظيفة في شركة لصناعة الصابون. استقبلني الموظفون الألمان في الشركة التابعة لمجموعةٍ سويدية بحفاوة

من لم ينسى رفيقه في الحرب، لكن كان يبدو لي أنهم يترددون من إفشاء الجوانب العميقة لهذه الحرفة. ربما باعتبار أنها سر صنعتهم. ربما أخفوها عني لأنني لم أكن أبدٍ شغفًا بهذه المهنة أصلاً، فلم يروا ضرورة لإضاعة وقتهم في تعليمي. ومع مرور الأيام أصبحت لا أذهب إلى الشركة أساساً، ولم يسأل الموظفون عني، وأبي لم يعد يرسلني كثيراً، فأكملت العيش في برلين من دون أن أفكر في سبب مجيئي الأولى إليها، أو بماذا سأفعل.

كنت أتعلم الألمانية ثلاث مراتٍ في الأسبوع على يد الضابط الألماني في المساء. وفي النهار أتجول زائراً المتاحف والمعارض الجديدة لأشاهد اللوحات، وفي المساء وقبل مئة خطوة من وصولي إلى المهجع كانت رائحة الملفوف تغزو أنفي. لم أعد أضجر كما كنت في السابق. شيئاً فشيئاً كنت أحاول قراءة الكتب، ومع الوقت بدأت بالاعتیاد والاستمتاع بهذا العمل. لكنه بعد مدة تحول إلى ما يشبه الابتلاء. فقد كنت أقضي الساعات الطويلة مضطجعاً على بطني، والكتاب مفتوح أمامي وبجانبه معجم لغاتٍ قديم قائم. كنت في مراتٍ كثيرة لا أكلف نفسي عناء البحث عن معنى كلمةٍ ما في المعجم، فأنظر إلى سياقها وأتجاوزها معطياً لها معنى من رأسي. كنت في حالٍ كأن دنيا جديدة تفتح أمامي. في هذه المرة لم تكن الكتب التي أقرأها تتحدث عن مغامرات لم تر من قبل وأبطال وشخصيات خارقةٍ كتلك الكتب المترجمة أو المؤلفات التي كنت أقرأها في طفولتي وبداية شبابي. ففي جلّها كنت أجد أجزاء من نفسي وبيئتي، ومشاهداتي وأحاسيسي. كنت أستذكر الأشياء التي كنت

لا أفهم كنهها مع أنني كنت أعيش فيها ومعها وأعطيها ماكنت أظن أنه معناها الحقيقي. كان الكتّاب الروس أصحاب التأثير الأكبر علي. كنت أقرأ حكايات تورجينيف الطويلة أكثر من مرة في بعض الأحيان. واحدةٌ منها بالذات سلبت لبي لأيام. إحدى أبطال حكاياته فتاة باسم كلارا ميليتش تقع في حب تلميذ أخرق جداً. لكنها من دون إخبار أي أحد، وبسبب حرجها من حبها لأحمق مثله، ذهبت ضحيةً لهذا الابتلاء العجيب. لسببٍ ما وجدت تلك الفتاة قريبة مني جداً، شبهتها بنفسني من ناحية عدم إخبارها أي أحدٍ بما يجول في خاطرها، وتخبئتها لجوانب شخصيتها بغيرة مذهشةٍ وعدم الثقة بأحدٍ ما.

كان فنانونا الرسم القديم البارعين يوفرون لي إمكانية عيش حياةٍ بغير مللٍ أو سأم. أحياناً كنت أتفرج على لوحة ما في المعرض الوطني لساعات، وفي الأيام التالية أستحضر الوجه أو المنظر الذي كان في اللوحة في مخيلتي وأعيده للحياة.

كان قد مر على إقامتي في ألمانيا ما يقارب العام. أتذكر ذلك اليوم جيداً، كان يوماً مظلماً وممطراً من أيام تشرين الأول. كنت أتصفح الصحف عندما لفت نظري مقال نقدي يناقش معرضاً افتتح مؤخراً لبعض الرسامين الحداثيين. لم أكن أفهم أعمال الفن الحديث كثيراً. ربما كانت مبالغتهم وميلهم للتباهي ومحاولتهم لجذب الأنظار بأي طريقة هي ما جعلني لا أعجب بأعمالهم، لذلك لم أقرأ المقال حتى. لكن بعد عدة ساعات، عندما كنت أجوب الشوارع عشوائياً في جولتي اليومية، اكتشفت أنني كنت واقفاً أمام المكان الذي يقام به

المعرض تماماً. لم يكن هناك شيء أفضل لأفعله، فقررت الدخول استسلاماً للمصادفة وتجولت لمدة طويلة وأنا أتفرج على اللوحات الكبيرة والصغيرة بلا اهتمام كبير.

كانت معظم اللوحات تثير على الأقل في المرء الرغبة في الابتسام: أكتاف ورُكب مربعة، رؤوس وأثداء غير متناسبة، ومناظر طبيعية بألوان صارخة وكأنها صنعت بواسطة ورقٍ لماع، ومزهريات كريستالية بلا شكل كأنها طوبٌ محطم، وورودٌ بلا روح كوردةٍ سُجنت بين صفحات كتابٍ لسنوات. وأخيراً، رسومات خفيفة كأنها أُخذت من ألبوم صور المجرمين المطلوبين للعدالة. لكن مهما يكن، فقد كان شيئاً ممتعاً. ربما كانت محاولتهم لخلق تأثير كبير بواسطة أبسط جهد يبذلونه هو ما أوجب الحق عليهم. لكن لم يكن هناك بد من أن أشعر بالشفقة عليهم عندما أفكر بأنهم يعرفون أن أعمالهم ستُفهم خطأً وسيُستخف بها، بل وأن ذلك كان يعجبهم ويرضي ذوقهم المريض.

توقفت فجأةً مقابل حائطٍ قريبٍ من باب الصالون الكبير. لم يكن باستطاعتي، ورغم مرور كل هذه السنين، أن أعبر عما شعرت به في تلك اللحظة. كل ما أتذكره أنني وقفت متسماً أمام لوحة امرأةٍ ترتدي معطف فرو. كان الناس يشاهدون اللوحات ويمرون بسرعةٍ وهم يدفعونني يميناً وشمالاً، لكنني لم أستطع التحرك من مكاني. ماذا كان في اللوحة؟ .. أعرف أنني لن أستطيع إيضاح ذلك، كان في وجه المرأة تعبيرٌ قوي - عبارة عن خليطٍ غريبٍ من الوحشية وقليل من الغرور والاستعلاء. لكن وبالرغم من علمي بأنني لم أر شيئاً لهذا الوجه في أي

زمانٍ أو مكانٍ من قبل، إلا أنه انتابني احساسٌ بألفةٍ، وكأن بيننا معرفةً مسبقةً. هذه البشرة الشاحبة، هاتان العينان السوداوان تحت الحواجب السوداء، والشعر الكستنائيّ القاتم.. والأهم من ذلك، تلك التعابير الجامعة بين البراءة والحزم، والحزن اللانهائي والشخصية القوية؛ وجهٌ مثل هذا ليس بغريبٍ عليّ أبداً. كنت أعرفها من الكتب التي كنت أقرأها مذ كان عمري سبعة أعوام، ومن الخيالات التي كنت أنسجها مذ كان عمري خمساً. كان بها صفاتٌ من نهالِ ضياء خالد أوشاك غيل⁽¹⁾، ومهجورةٍ وجيهي بك، وحببية تشيفالير، وكليوباترا التي قرأت عنها في كتب التاريخ، بل كان بها أيضاً شيءٌ من السيدة آمنة أم الرسول محمد، التي كنت أتخيلها عندما أستمع في احتفالات المولد النبوي إلى الأناشيد الدينية. كانت امرأة مركبة من كل نساء خيالي، مزيجٌ منهم. داخل معطف من فرو السنور البري، وجزءٌ بسيطٌ باهتٌ يظهر من رقبتها البيضاء رغم جلوسها في الظل، وفوق الرقبة وجهٌ بيضاوي ملتفتٌ إلى اليسار قليلاً. عيناها السوداوان تنظران إلى الأرض وكأنها مستغرقةٌ في تفكيرٍ عميق، تريد البحث عن شيء ما بأملٍ أخير، رغم تأكدها بأنها لن تجده. رغم ذلك كان الحزن الذي يكتنفها مختلطاً بالإستغناء. كأن لسان حالها يقول: «أعرف، لن أجد ما أبحث عنه.. ماذا في ذلك؟». كان تعبير اليأس هذا يُرى بوضوح على شفيتها الممتلئتين، الشفة السفلى بالذات. أجفانها متنفخةٌ قليلاً.

(1) شخصية في رواية "العشق الممنوع" لكاتبتها ضياء خالد أوشاك غيل.

وحواجبها ليست بالغليظة ولا بالخفيفة، لكنها قصيرة قليلاً. وشعرها الكستنائي الغامق يتهدل مغطياً أجزاء من جبهتها الواسعة وينسدل في النهاية ملامساً زغب الفرو. ذقنها حادٌ ومائلٌ إلى الأمام قليلاً. أنفها دقيق وطويل مع خنّابتين ممتلئتين بعض الشيء.

ارتجفت يداي وهما تتصفحان الألبوم أملاً في إيجاد مزيد من التفاصيل عنها. في النهاية، وفي الطرف الأسفل من أحد الصفحات الأخيرة، وبجانب رقم اللوحة قرأت هذه الثلاث كلمات: ماريا بودر، سيلبسبورترتيت. لم يكن هناك شيءٌ آخر. كانت هذه اللوحة هي الوحيدة التي عرضها الفنان، يفهم من ذلك أنها كانت لوحة شخصية (Self Portrait). كنت سعيداً بذلك. فربما لو كانت لها أعمال أخرى لما كان لها كل هذا التأثير علي، بل ولربما قل إعجابي باللوحة كثيراً. بقيت بالداخل لوقتٍ متأخر. أتجول أحياناً بين لوحات المعرض، أنظر إليها من دون تدقيقٍ. لكنني سرعان ما أعود إلى نفس اللوحة وأعيد تأملها لوقت طويل. في كل مرة كنت أرى فيها تعابير جديدة، كأنني أرى حياةً تُظهر نفسها أكثر فأكثر. بدأت أظن بأن العينين المحدقتين إلى الأسفل كانتا تحتلسان النظر إليّ، وبأن الشفتين تتحركان بخفة.

لم يتبق أحدٌ في الصالون. الغالب أن الرجل الطويل الواقف بجانب الباب كان ينتظر خروجي. جمعت نفسي بسرعةٍ وخرجت. كان المطر هتاناً. وعلى عكس كل ليلة، عدت إلى المهجع مباشرةً من دون تسكع. كان كل ما أريده هو أن أتناول عشائي بسرعة، وأذهب لغرفتي لأجلس وحيداً وأستحضر وجهها أمامي من جديد. لم أنطق بشيءٍ على طاولة

العشاء. سأل صاحب المهجع فراو هيبنز:

- "إلى أين ذهبتم اليوم؟"

أجبت: «تجولت فقط، ثم ذهبت إلى معرضٍ للفن الحديث.».

بدأ كل من في الصالة يتكلم عن الفن الحديث، وتسلفت أنا إلى غرفتي. بينما كنت أخلع ملابسي سقطت من جيب معطفي صحيفةً على الأرض. تناولتها وعندما وضعتها على الطاولة بدأ قلبي في الخفقان سريعاً. كانت هذه هي الصحيفة التي اشتريتها في الصباح والتي لمحت بها المقال عن المعرض بينما كنت أقرأها وأنا في المقهى. وبنية معرفة أي معلومة عن اللوحة أو الرسامة فتحت الصفحات بتعجل لدرجة أنني كنت أجعلها وأنا أبحث عن المقال. حتى أنا نفسي كنت متعجباً من هذا الاضطراب والحماس وهو يصدر من شخصٍ متأن وهادئٍ مثلي. ألقيت نظرةً على المقال من بدايته، وعندما وصلت إلى وسط المقال تسمرت عيناى فجأةً على كلمات بين السطور: ماريا بودر.

كان المقال يتحدث بإسهابٍ عن هذه الفنانة التي عرضت عملاً لها لأول مرةٍ في هذا المعرض. الرسامة التي يبدو أنها تريد المضي في طريق الفن الكلاسيكي أكثر، صاحبة الملكة المذهلة في التعبير. يقال أنها ليست كمثل الكثير من زملائها رسامي اللوحات الشخصية - بورتريه - صاحبات الميل لـ (تجميل) أنفسهم أو (تقبيحها) عناداً. يذكر المقال أيضاً أنهم وبعد دراسة فنيةٍ طويلة توصلوا من خلال النظر إلى وضعية وتعابير وجه المرأة في اللوحة، إلى اعتقاد بأنها وبتصادف فريد، تشبه

مريم العذراء في لوحة أندريه ديل سارتو (مادونا الهاربيز)⁽¹⁾، وأكمل كلامه شبه مازح متمنياً التوفيق لـ (مادونا معطف الفرو) ومتقلاً للحديث عن رسّامٍ آخر.

أصبح على سلم أولوياتي في اليوم التالي الذهاب إلى تاجرٍ مشهور بالنسخ وبيع النسخ، والبحث عن لوحة (مادونا الهاربيز). وجدتها وسط ألبوم كبير لسارتو. ورغم أن الطباعة كانت رديئةً ولم تكن تُظهر شيئاً كثيراً، إلا أن صاحب المقال كان محقاً: تلك المادونا الجالسة في مكان عالٍ ويدها الطفل المقدس - يسوع - وكأنها غير واعية بوجود الرجل الملتحى والشاب بجانبها، كان هناك مللٌ وكدرٌ بادٍ في نظراتها وشفاهها وإلتفاتة رأسها هو عينه الذي رأيته في اللوحة بالأمس. ولإمكانية شراء الصفحات متفرقة لديهم، اشتريتها وعدت إلى غرفتي. عندما دققت فيها متأملاً حكمتُ من وجهة نظرٍ فنية أن بها شيئاً فريداً يميزها. لأول مرة في حياتي أرى مادونا⁽²⁾ بهذا الشكل، ففي كل تصاوير ورسوم مريم العذراء التي رأيتهَا إلى الآن، كانت هناك براءةٌ ونقاءٌ بارزٌ بشكلٍ مبالغ فيه وزائدٍ عن اللزوم؛ كأنها تريد أن تقول للأطفال الذين ينظرون إلى الرضيع الذي في حضنها: «أرأيتم؟ كيف أحسن إليّ ربي!»، أو كانت تشبه الخادِمات الصغيرات الذين ينظرون إلى طفلٍ لا يستطيعون ذكر اسم أبيه ويبتسمن بذهول.

Madonna of the Harpies (1)

(2) كلمة مادونا نفسها تعني: "مريم العذراء".

بينما كانت مريم التي في لوحة سارتو تبدو وكأنها تعلمت التفكير، وأصدرت أحكامها بحق الحياة وأصبحت تستخفّ بها. لا إلى الراهبين الواقفين بجانبها، ولا إلى المسيح، ولا حتى إلى السماء، بل إلى الأرض كانت تنظر وترى شيئاً ما بالتأكيد.

تركتُ الرسم على الطاولة. أغمضت عينيّ، حاولت التفكير في لوحة المعرض. لم يخطر على بالي أن المرأة المرسومة في تلك اللوحة موجودة في الحقيقة إلا الآن. هذا هو الواقع، فنظرًا إلى حقيقة أن الفنانة قد رسمت نفسها في تلك اللوحة، فهذا يعني أن هذه المرأة الرائعة موجودة على قيد الحياة، تتجول وسطنا، تنظر بعينيها السوداوين العميقتين إلى الأرض أو إلى مايقابلها، تفتح فمها ذا الشفة السفلى المكتنزة وتتكلم. هناك احتمال بأن أراها في أي مكان. عندما فكرت في هذا الاحتمال، كان أول شعورٍ يمتدني هو الخوف. فمقابلة شخص لم يخض أي مغامرة في حياته مثلي لامرأةٍ مثلها سيكون شيئاً مرعباً.

رغم أن عمري أصبح أربع وعشرين سنة، إلا أنه لم يكن لي أي مغامرة مع أي امرأة من قبل. لم تكن المغازلات التي فعلناها في هاوران بإرشاد بعض أصدقاء الحي الأكبر سنًا أكثر من مجرد مغامراتٍ عابرةٍ تحت تأثير السكر. كان الملل السريع في طبعي كافيًا لمنعي من تكرارها. فالمرأة التي كانت بالنسبة لي منشط خيالي، وتشغل أحلامي عندما كنت أتمدّد مستلقيًا تحت أشجار الزيتون في أيام الصيف القائظة وتجعلني أعيش مغامراتٍ لانهائيةٍ معها، كنت أراها مخلوقًا بعيدًا عن المادة، مخلوقًا لا يُقرب منه. جارتنا فخرية التي كنت أعشقها لسنوات طويلة من دون

علم أحد، ورغم أني عشت معها في خيالاتي مغامرات كثيرة مليئة بقلّة الأدب والحياء، كنت عندما أواجهها في الشارع صدفةً تهجم عليّ أزمة تسارع نبضٍ تكاد من شدتها أن تطرحني أرضاً، فأبحث عن مفرٍ ووجهي يلتهب ناراً. وفي ليالي رمضان، كنت أختبئ مقابل باب بيتها لأشاهدها خارجة مع أمها ويدها فانوس وهما ذاهبتان إلى صلاة التراويح، لكن ما أن يكاد الباب يُفتح وتظهر تحت النور المتسرب من الداخل أجساد متجلبية حتى أسرع بإشاحة وجهي وأبدأ في الارتعاد خوفاً من أن يروني.

عندما كنت أعجب بأي أنثى وبأي شكل كان، كان أول شيءٍ أفعله هو الهرب منها. عندما نتصادف في مكان ما كنت أخاف من أن تبوح حركة من حركاتي أو نظرة من نظراتي بسري ويتتابني شعوراً لا يمكن وصفه، خجلٌ خانق يجعلني أشعر بأنني أكثر الناس بؤساً. لا أذكر أني حدقت في عين أي امرأةٍ في حياتي كلها، حتى عين أمي. في السنوات الأخيرة، وفي ظرف المدة التي كنت فيها في إسطنبول بالذات، عزمت التغلب على حس الخجل الزائد هذا، وحاولت التصرف طبيعياً مع بعض الفتيات اللاتي تعرفت عليهنّ بواسطة بعض الأصدقاء. لكن سرعان ما كان عزمي وقراراتي تطير، وتهرب اللحظة التي كنت أبدأ فيها بالإحساس بالألفة تجاه إحداهنّ. لم أكن إنساناً بريئاً أبداً: فالنساء الذين كنت أحييهم في مخيلتي عندما أكون وحيداً، كنت أعيش معهم لحظاتٍ لا تخطر على ذهن أكثر العشاق فحولة. أحس بضغط شفاههن الساخنة والمُسكرة على فمي. كان إحساسي بها أكثر مما هو ممكنٌ في الحقيقة

بأضعاف. لكن مادونا التي رأيتها في المعرض شغلت عقلي لدرجة لا تسمح لي بالمساس بها حتى بخيالي. لم تكن الصعوبة في تحيّل مشهد حب بيني وبينها، بل حتى في التفكير بالجلوس مقابلها كصديق. في مقابل ذلك، كانت رغبتني في الذهاب إلى المعرض لأأمل اللوحة وأغوص في عينيها، اللتان بت متأكداً أنها لم تكونا تتابعاني، تزداد وتتضخم مع مرور الوقت. ألقيت بالمعطف على ظهري وسلكت طريق المعرض، واستمر هذا الحال أياماً متتالية.

كنت أذهب إلى المعرض في ظهيرة كل يوم، وأتظاهر بمشاهدة وتأمل اللوحات المعلقة على جانبي الرواق بتأن، بينما في داخلي كنت لا أطيق الانتظار حتى أصل إلى هدي في الحقيقي وأتجول وأنا بالكاد أضبط خطواتي المتعجلة، حتى إذا وصلت إلى (مادونا صاحبة معطف الفرو) تظاهرت بأني قد وصلت إليها صدفة، فأبقى متأملاً ومتفرساً فيها حتى موعد إغلاق المعرض. أدركت في هذا الوقت أن حراس المعرض وكثير من الفنانين لاحظوا تواجدي هناك بشكل يومي. فبمجرد دخولي إلى المعرض تبدأ وجوههم بالإبتسام وعيونهم بمتابعة مهووس اللوحة العجيب. في آخر الأيام تركت الدور التي كنت أمثله في الأيام قبلها في تصنع الاهتمام باللوحات الأخرى. فأصبحت أتوجه مباشرة أمام (مادونا صاحبة معطف الفرو)، وأجلس على أحد المقاعد متفرجاً على اللوحة لفترة، وناظراً أمامي عندما تصاب عيني بالتعب.

كان من المؤكد أن وضعي هذا سيقظ فضول المتواجدين في المعرض. في يوم من الأيام حصل ما كنت أخشاه. جاءت إحدى الفنانات الشابات

اللاتي كنت أصادفهن في المعرض ووقفت بجانبني سائلة: «هل أثارت اللوحة فضولك كثيراً؟ كل يوم تأتي لمشاهدتها!»

رفعت عيني وخفضتها بسرعة. ضايقتني لهجتها اللامبالية وضحكتها المستهزئة جداً. كان يبدو أن صاحبة الحذاء ذو المقدمة الطويلة الواقفة أمامي المحدقة في وجهي، تنتظر جواباً. كانت ساقها العاريتان أسفل تنورتها القصيرة، ولا أنكر بأنهما كانتا جميلتان، تمتازان بين حين وآخر فتعطيان جسدها موجات تمتد حتى جواربها مارةً بركبها المستديرة. عندما رأيت بأنها لا تنوي الذهاب من غير جواب أجبتها: «نعم، لوحة جميلة!». ثم لا أدري، شعرت بأن علي أن أكذب وأعطي إيضاحاً فهمت مستطرداً:

- «إنها تشبه أُمي.»

- «آها، معنى ذلك أن هذا هو سبب مشاهدتك لها بالساعات!»

- «نعم!»

- «هل أمك متوفية؟»

- «لا!»

انتظرت وكأنها تريدني أن أكمل كلامي. أكملت مطأطأً من دون أن أحرك رأسي:

- «تعيش في مكانٍ بعيد.»

- «صحيح؟.. أين؟»

- «في تركيا!»

- «أنت تركي؟»

- ”نعم!“

- ”خمنت كونك أجنبياً!“

أطلقت ضحكة خفيفة، وبراحةٍ ومن دون كلفةٍ جلست بجانبني .
عندما وضعت ساقاً على ساق ارتفعت تنورتها إلى مافوق الركبة
فشعرت بالنار تشعل وجهي كالعادة. كان يبدو أن حالي هذا مسلٌّ
بالنسبة لها. سألت مجدداً:

- ”أليس لديك صورة لأمك؟“

كان يزعجني فضول هذه المرأة الزائد. أدركت أنها كانت تفعل ذلك
للتسلية فقط ليس إلا. والرسامون الآخرون ينظرون إلينا ويتضحكون
بالتأكيد.

- ”عندي ولكن.. هذه مختلفة!“

- ”صحيح؟ يعني هذا أنها مختلفة!“

وأطلقت ضحكة صغيرة أخرى على الفور.

تحركت كأني أريد الخروج والهرب. لاحظت المرأة ذلك وقالت:

- ”لاتزعج، أنا ذاهبة. سأتركك مع والدتك وحدكم.“

نهضت ومشيت عدة خطوات ثم توقفت فجأة وعادت إلى جانبي، هذه
المرّة قالت بنبرة مختلفة وجدية، بل وحرينة:

- ”هل تريد أمّاً مثلها حقاً؟“

- ”نعم.. ولأيّ درجة!“

- ”حقاً؟“

أدارت ظهرها ومضت بخطوات شابةٍ وسريعة. رفعت رأسي أخيراً

ونظرت. كان شعرها القصير يتماوج على عنقها، ولأنها تضع يديها في جيوب تيورها الضيق أساساً، أصبح ملتصقاً بجسدها أكثر. عندما استوعبت أني قد كذبت عليها في آخر جملةٍ قلتها لها، وقعت في ذهولٍ شديد، ونهضت لحظتها من مكاني من دون حتى أن أجروء على أن ألتفت حولي وفررت خارجاً. في داخلي شعور انسان اضطر ان يودع ويفارق شخصاً تعرّف عليه وألفه في إحدى رحلات السفر. أدركت بأنني لن أستطيع أن أخطو بقدمي داخل المعرض مجدداً. فالناس، الناس الذين لا يفهمون أو يتفهمون بعضهم، نفروني من هذا المكان أيضاً.

بمجرد عودتي للمهجع، وبعدهما خطر على بالي أن أيامي السابقة الفارغة ستعود من جديد، وأنني سأعود لسماح خطط إنقاذ ألمانيا وتذمر أصحاب الطبقة المتوسطة الذين خسروا ثروتهم بسبب التضخم على مائدة الطعام، وبأنني سأعود أغلق على نفسي غرفتي وأقضي وقتي مع حكايات تورجينيف أو ثيودور ستورم، أدركت حينها معنى فقدان حياتي للمعنى الذي اكتسبته في خلال هذين الأسبوعين. فرصة واحدة، فرصة لم يكن بإمكانني تخيل تحققها حتى، جاءت إلى عمري أنا الذي يضيع ويمضي هدرأ. ثم فجأة ومن دون سابق انذار، وكما جاءت بغتة من قبل، انسحبت واختفت من دون أي سبب. لم أبدأ في استيعاب ذلك إلا الآن. مذ عرفت نفسي، وأنا أقضي من دون أن أدرك أو أعترف لنفسي، كل أيام عمري بحثاً عن إنسان بعينه، ولذلك كنت أهرب من الناس الآخرين. تلك اللوحة جعلتني أوّمن - ولو لمدة قصيرة -

بإمكانية عثوري على ذلك الإنسان، وبأنني قريب منه جداً، وأيقظت في داخلي أملاً لا يُمكن إخماده. لهذا السبب أصبحت خيبة أمني في هذه المرة كبيرة. هربت مما حولي أكثر، وتواريت داخل نفسي بشكلٍ أعمق. فكرت بالكتابة إلى أبي عن نيتي في العودة إلى تركيا، لكن بماذا كنت سأجيبه لو سألني: "ماذا تعلمت في أوروبا؟". فقررت المكوث لعدة أشهرٍ أتعلم في ظرفها حرفة "صابون المسك" إلى الدرجة التي ترضيه وتسعده. تقدمت لنفس الشركة السويدية من جديد، ورغم استقبالهم البارد نوعاً ما لي إلا أنني باشرت في الانتظام بالعمل. بدأت بتدوين صيغ وأصول صناعة الصابون التي كنت أتعلمها في دفترٍ باعتناء كبير، ولم أنس قراءة الكتب المتخصصة في هذا المجال أيضاً.

ازدادت صداقة زميلة المهجع الهولندية فراو تيدمان معي أكثر في الفترة التي تلت. ففي أنصاف الليالي، كانت تناولني إحدى روايات الأطفال التي اشترتها لابنها ذي العشر سنوات لأقرأها لها وتسالني عن رأيي بها. وفي بعض الأماسي كانت تأتي إلى غرفتي بعد العشاء تحت حججٍ واهيةٍ وتجلس مثرثرة لمدة. في أكثر الأحيان كانت تحاول معرفة نوع المغامرات التي خضتها مع الفتيات الألمانيات، وعندما كنت أخبرها بالحقيقة كانت تقابلني بنظرةٍ وابتسامةٍ خبيثتين، ملوحة لي بسبابتها في الهواء وكأنها تقول لي: "يالك من قوادٍ لعوب!". عرضت عليّ في يوم من الأيام أن أخرج معها لتتمشى سوية، وفي المساء وبينما نحن عائدون أصرت على ذهابي معها إلى الحانة. شربنا إلى وقت متأخرٍ من دون أن نلاحظ الوقت.

منذ قدومي إلى هنا كنت أشرب الجعة بين حين وآخر، لكنني لم أشرب بهذا القدر أبداً من قبل. أذكر أنه عندما بدأ المكان بكامله يدور حولي لم أتمالك نفسي وسقطت مترنحاً على حضن فراو تيدمان. بعد مرور مدة لا أعلمها وعندما عاد إلي بعض الوعي استيقظت بفضل المنديل المبلل الذي كانت تمسح الأرملة الهولندية طيبة القلب وجهي به.

”لنعد إلى البيت حالاً.“، قلت، وأصرّت المرأة على دفع الحساب. وعندما خرجنا لاحظت بأنها أصبحت أكثر قرباً وحميمية معي. كنا نمشي متشابكي الذراعين ومصطدمين بمن حولنا في الطريق. لم تكن الطرق مزدحمة بما أن نصف الليل قد اقترب. في مكاننا وبيننا نحن نعبر الطريق إلى الجهة الأخرى حصلت حادثة غريبة: لحظة وصولنا للرصيف المقابل علق حذاء فراو تيدمان في حافته؛ عندما حاولت المرأة البدينة قليلاً التمسك بي لتفادي السقوط، وبسبب أنها أطول مني غالباً، تعلّقت برقبتي. لكنها هذه المرة لم تتركني حتى بعد استعادتها لتوازنها، كانت تجذبني بشدة بين ذراعيها. لا أدري أكان ذلك من تأثير السكر أم ماذا، نسيت خجلي وحضنتها بشدة. وفجأة أحسست بشفاة هذه المرأة الثلاثينية في وجهي. مع أنفاسها الدافئة، نشرت هذه المودّة الفياضة شيئاً يشبه الرائحة القوية والجميلة في داخلي. كان المارون من جانبنا يبتسمون كأنهم يتمنون لنا السعادة. في هذه الأثناء، وقعت عيني على امرأة تحت عمود إنارة على بعد خمسة عشرة خطوةً ومتقدمةً باتجاهنا. شعرت بجسمي كله بدأ يرتعش بشكل ودرجة لا توصف. عندما لاحظت المرأة التي كانت مازالت متعلقة بي ذلك تهيّجت أكثر

وأغرقت رأسي بالقبلات. لكنني في تلك اللحظة كنت أحاول الفكاك منها والنظر إلى المرأة المقتربة نحونا. كانت هي. الوجه الذي لمحتة للحظة، أشعل شيئاً كشرارة في عقلي المغيّب. هذه، داخل معطف فرو السنور البري، بوجهها الشاحب، وعيناها السوداوان وأنفها الحاد، هي نفسها التي رأيتها في لوحة المعرض، (مادونا صاحبة معطف الفرو). بتعابير وجهها الدالة على الحزن والملل، كانت تمشي كأنها غير واعية بما حولها. عندما رأتنا تعجّبت لثانية وتلاقت نظراتنا في نفس اللحظة. لمحت في عينيها شبح ما يشبه الابتسامة. فانتفضت وكأني تلقيت ضربة سوط على رقبتني. ورغم ثمالي إلا أنني كنت أعني تماماً معنى فاجعة أن تكون هذه هي المرة الأولى التي تصادفني فيها، وبالتالي تحكم عليّ منها. نفذت بنفسي من بين ذراعي السيدة الكبيرة، وركضت فوراً للحاق بـ(مادونا صاحبة معطف الفرو). ركضت إلى رأس زاوية الشارع من دون أن أعرف ماذا سأفعل أو أقول لها. لقد اختفت من الوجود. بحثت عنها في نواحي المنطقة لدقائق، لكن لم يكن هناك أحد. لحقت بي فراو تيدمان مجدداً وسألتنني: "ماذا أصابك؟ أخبرني، ماذا حدث لك؟". ساقتنني إلى المهجع وهي تشبك يدها في ذراعي. كانت تضغط بيدي على جسدها وتميل على وجهي ونحن نمشي في الطريق. في هذه المرة أحسست بأنفاسها الحارة ثقيلةً لدرجة لا تحتمل، لكنني ورغم ذلك لم أكن أقاوم. لم أعتد في حياتي على مقاومة أي أحد. كل ما كان بيدي فعله هو الهرب. لكنني لا أستطيع فعل ذلك الآن. كانت المرأة تمسك بي قبل أن أستطيع الإبتعاد لثلاث خطوات. زيادة على ذلك، كانت الصدفة

التي حصلت قد تركتني مذهولاً. بدأت مع انجلاء السكر عن عقلي
أحاول التفكير بشكل مترابطٍ وأستذكر عينيها اللتين نظرتا إلى عينيّ
وابتسما قبل دقائق قليلة. لكن كل ذلك أصبح الآن يبدو لي كخيال.
لا، لم أرها. لا يمكن أن أكون قابلتها على وضعي هذا. كل هذا كان
كابوساً صنعه احتضان وتقبيل المرأة التي بجانبني لي وأنفاسها التي
كانت تلمح وجهي. أردت الذهاب إلى غرفتي والتمدد على سريري
والنوم متخلصاً من كل هذه الأوهام السخيفة، لكن لم يبدو أن في نية
المرأة أن تتركني أبداً. مع اقترابنا إلى المهجع كانت تصرفاتها تحتاج أكثر،
وذراعاها تشبثان بي بحرص أكبر.

وبينما نحن نصعد الدرج ارتمت على عنقي من جديد، فاستخلصت
نفسي منها بحركةٍ رشيقَةٍ وهربت صاعداً. ركضت خلفي بأنفاس
متلاحقة مزلزلة الدرجات بجسمها الممتلئ. وبينما كنت أدخل المفتاح
في قفل الباب ظهر تاجر المستعمرة هير دوبكه في الردهة. كان يمشي
ببطئٍ شديد. ونظراً لأنه لم ينم إلى هذه الساعة، فهمت بأنه كان ينتظرنا
فتنفست الصعداء، كان كل نزلاء المهجع يعرفون أن هير دوبكه شديد
الثراء، كان يغذّي الأرملة التي كانت في ذروة إشتعالها على آمالٍ وأحلامٍ
لذيذة. حتى أنه كان يقول لي بأنها لم تستهجن ما يكرهها من حميم
المشاعر، وبأنه مازال يتمتع بعافيته رغم تجاوزه سن الخمسين، حكى لي
عن نواياه بخصوص ربط هذه المرأة به بأربطةٍ ناعمة. وكصديقين قابلا
بعضهما في الردهة، توقفا متحدثين لبعض الوقت. فدخلت لغرفتي
وأقفلتها من الداخل في الحال. كانت هناك محادثة تدور في الخارج،

واستمرت لمدة طويلة عن طريق التهامس. يُفهم منها أن الأجوبة على الأسئلة التي كانت تُسأل كان لها تأثير مطمئن على أذن السائل الذي كان مستعداً لتصديق أي شيء من دون شك. بعد قليل بدأ تهامسهم يتعد مع صوت وقع أقدامهم إلى طرف الردهة، ثم اختفى.

استغرقت في النوم بمجرد استلقائي في السرير، وإلى حلول الصباح رأيت أحلاماً مقلقة. كانت مادونا صاحبة معطف الفرو تظهر أمامي بأشكالٍ عديدة. ترعبني بابتسامتها العجيبة والساحقة تلك. أردت أن أكلّمها، أن أخبرها بأشياء، أن أوضح لها، ولكنني لم أفلح في ذلك. كانت تعابير عينيها السوداوين الحادة تجمّد حنكي عن الكلام. وعندما كنت أرى نفسي كمدحومٍ عليه، وأرى عدم استعدادها لتغيير حكمها، أرتعد وأقع في قنوطٍ شديد. استيقظت قبل انبلاج الصباح، وانتابني صداعٌ بمجرد استيقاظي. أشعلت المصباح وحاولت قراءة بعض الأشياء. كانت السطور تمحي من أمام عينيّ، وتظهر من بين الغبش في وسط الصفحات البيضاء عينان سوداوان ساخرتان، كانتا تضحكان بصمتٍ على بؤسي. لم أستطع تهدئة نفسي رغم علمي بأن ما رأيته البارحة كان محض خيالٍ فقط. ارتديت ملابسني وخرجت. كان صباحاً بارداً ورطباً من صباحات برلين. لم يكن في الشوارع أحد عدا أطفالٍ يجرون عرباتهم اليدوية لبيع الحليب والزبدة والخبز للمنازل. وفي طرف الشارع رجال شرطةٍ يحاولون تمزيق بياناتٍ ومنشوراتٍ ألصقتها بعض المتمردين. مشيت بمحاذاة ضفة النهر حتى تيفرتان. على سطح المياه الساكنة إوزتان تطفوان من دون أي حركةٍ وكأنهما دميّتان. العشب

ومقاعد الحديقة مبتلةً بالندى. على الأرض كانت هناك صحيفة مجمعة وشبه ممزقةٍ ودبوس شعر. عندما رأيتها تذكرت حالي ليلة البارحة. على الأرجح أن فراو تيدمان أوقعت الكثير من دبائيس الشعر في الحانة والشوارع، والآن يحتمل أنها غاطة في نوم عميق بجانب هير دوبكه، وربما تفكر بأن لا ضرورة لاستيقاظها مبكراً وعودتها إلى غرفتها قبل استيقاظ الخدم.

ذهبت للمصنع أبكر من العادة وحيّيت البواب من قلبي. عزمت على التخلص من أوهامي عن طريق الانشغال والانهاك حتى رأسي في مشاكل العمل، وبجانب مرّجل الصابون الذي تفوح منه رائحة الورد دوّنت في دفترتي ملاحظاتٍ طويلة. سجلت حتى أي نوع من الشركات صنعت المكابس التي نستخدمها للوسم على الصابون. كنت أتخيل نفسي مديراً لمصنع الصابون الكبير الذي أسسه في تركيا، و أتخيل صابوني الورد والبيضاوي الشكل مختوماً بشعار «محمد رائف -هاوران»، مغلفاً بأوراق تعبق برائحةٍ جميلةٍ وهو ينتشر ويشتهر في كل أرجاء تركيا.

لاحظت بحلول الظهر أن همي وقلقي بدأً بالتلاشي، وأناي بدأت أرى الحياة بلونٍ وردي. عرفت لأي قدرٍ كنت أكدر على نفسي بأموّرٍ تافهة، وألقيت باللوم كله على كوني شخصاً حالمًا واهماً منغلِق على نفسي أنسج الخيالات. لكنني سأتغير اليوم، سأقلل من قراءة الكتب التي لا تتعلق

بمهنتي. مالذي ينقص ابن أشرافٍ مثلي كي يكون سعيداً؟
في هاوران كانت تنتظرنى مزارع زيتون أبي، ومصنعين ومنتجر صابون.

بأخذي لحصص أخواتي الكبار المتزوجات من أغنياء، سأعيش كأحد تجار تركيا المعبرين. دُحر الأعداء من الوطن، وحرر الجيش الوطني هاوران⁽¹⁾. كان أبي في رسائله مسروراً محتفلاً، مسطراً إياها بجملٍ تعبر عن حب الوطن. وحتى نحن هنا، تجمعننا في السفارة التركية وذقنا شيئاً من طعم الانتصار. بين حينٍ وآخر كنت أخرج عن صمتي المعتاد وأشارك مع هير دوبكه وأصدقائه الضباط بأرائي في مواضيع إنقاذ ألمانيا وثورة الأناضول⁽²⁾ اعتماداً على ما لدي من معلومات. في تلك الأجواء لم يكن هناك ما ينغص عليّ. ما الدور الذي ستلعبه صورةٌ لا معنى لها - أو حتى ذات معنى، مهما يكن - منبثقةً عن روايةٍ من نسج الخيال في حياتي. لا، من اليوم فصاعداً سأتغير تماماً.

ورغم كل هذا إلا أنه بمجرد انتشار الظلام وحلول المساء جثم على صدري غمٌ لا سبب له. وكى لا أواجه فراو تيدمان على سفرة الطعام قررت أن أتناول طعامي في الخارج، وشربت كأسين من الجعة. لكن على الرغم من كل محاولاتي إلا أنني لم أستطع استعادة روح التفاؤل التي كانت تغمرني في النهار. كأنها كان هناك في زوايا قلبي المخفية شيء مضغوطٌ يُسحق. حاسبت عن عشائي بسرعةٍ لأخرج وأتمشى في الهواء الطلق، راجياً أن يتحسن مزاجي. في الخارج كانت ذرات المطر تبدأ

(1) حررها الجيش الوطني بقيادة مصطفى كمال أتاتورك بعد أن احتلها اليونانيون لثلاثة سنوات.

(2) الثورة التي انطلقت بقيادة أتاتورك من الأناضول ضد الاحتلال.

بالتساقط بينما السماء مكفهرة. كان بالإمكان مشاهدة انعكاس أضواء المدينة الحمراء الكثيفة على السحاب المنخفض المار من فوق تلتنا. جاء بي المسير إلى جادة كورفورستاندام الرحبة والطويلة. هنا كانت السماء تأخذ وضعاً مشعاً، وكانت حبات المطر الذي يهطل من ارتفاع مئات الأمتار تأخذ لوناً برتقالياً. وجدت أن الكازينوهات والمسارح وصالات السينما التي تقع على جوانب الطريق مقفلة. وعلى الأرصفة أناسٌ يتجولون دون أن يخرب المطر نسقهم. كنت أمشي الهويناً مفكراً بأشياء كثيرة لاعلاقة لها ببعضها. وكأنني بذلك أحاول إبعاد فكرة مصرّة على الظهور. كنت أقرأ كل اللافتات والياфطات وأدق في الإعلانات الضوئية. قطعت الجادة الممتدة لعدة كيلومترات أكثر من مرة ذهاباً وإياباً. ثم منحنيّاً إلى اليمين، مشيت باتجاه ميدان ويتنبرغ. هنا وعلى الأرصفة المواجهة لسوق كبير يدعى «كا-دا-وي» يتجول شبّانٌ مرتدين أحذيةً حمراء وصابغين وجوههم كالنساء، ينظرون إلى الذهاب والقادم من المارة بنظراتٍ غاوية.

أخرجت ساعتني، كانت تتجاوز الحادية عشرة. معنى هذا أن الوقت تأخر. بدأت خطواتي بالتسارع فجأةً، سلكت طريق ميدان نوليندورف القريب. هذه المرة كنت أعرف وجهتي جيداً. هناك وفي نفس هذا الوقت من ليلة البارحة صادفت (مادونا صاحبة معطف الفرو). كان الميدان خالياً، وفي طرفه الجنوبي ومقابل بناء المسرح كان يتجول أحد أفراد الشرطة. دخلت إلى الشارع المواجه له وجئت إلى المكان الذي توقفنا به أنا وفراو تيدمان ونحن ثملين. ثبتت عيني أسفل عمود

الإنارة وكان الشخص الذي أبحث عنه سيظهر إلى الوجود فجأة. رغم كل إقناعي وتلقيني لنفسي بأنه ما رأيته كان مجرد وهم إلا أنني ها هنا الآن، أنتظر هذه المرأة، أو هذا الخيال. منذ الصباح كان النسيم يهفهف مقابل البناء الذي كنت عنده. مجدداً، أصبحت كما كنت في السابق، لعبة بيد خيالاتي البعيدة عن الدنيا وعالمي الداخلي.

في هذه الأثناء تماماً، ظهر شخصٌ يمشي من منتصف الميدان ماراً باتجاه الشارع الذي كنت أقف فيه. اختبأت عند أحد أبواب الأبنية التي كانت هناك وانتظرت. وعندما مددت رأسي خارجاً ونظرت، تعرفت على (مادونا صاحبة معطف الفرو) من خطواتها القصيرة والحادة. لا يمكن أن أخطئ هذه المرة. لم أكن سكراناً. في هذا الشارع الخالي، كانت أصداً صوت كعب حذائها تتردد مصطدمة بجدران البيوت على جانبي الطريق. بدأ قلبي يؤلمني وكأنه يتفتت وازدادت نبضاته بالخفقان بسرعة عجيبة. كان وقع أقدامها يقرب أكثر. أدت ظهري إلى الشارع وانحنيت على الباب متظاهراً بأني أحاول فتحه للدخول. وعندما وصلت خطواتها إلى خلفي مباشرة، ضببت نفسي بجهد كبير كي لا أصرخ وتشبثت بالجدار خشية السقوط. تابعت المرأة طريقها، خرجت من مخبئي وبدأت بتعقبها خوفاً من أن تفلت عن ناظري من جديد. لم أر وجهها، ورغم كل خوفي ورهبي من مواجهتها إلا أنني أمشي الآن خلفها على بعد خمسة أو ست خطوات. لم يكن يبدو عليها أنها لاحظت ذلك. لماذا أتيت إلى هنا وانتظرتها إذا كنت سأختبئ متوارياً عنها؟ ولأي هدفٍ أمشي خلفها الآن؟ هل هذه هي يا ترى؟ من أين

حكمت بوجوب مرورها من نفس الشارع وفي نفس الوقت من الليلة التالية؟ لم أكن في وضع يسمح لي بالجواب على كل تلك الأسئلة. كنت أمشي خلفها بخفقانٍ لا يخفّ وانفعالٍ وهيجانٍ يتضاعفان كلما فكرت في احتمال أن تقف وتلتفت خلفها فتراني. كنت أمشي متعقباً أصوات خطواتها، مطأطئ الرأس ومن دون أن أنظر إلى أي شيء غير الرصيف. توقفت الصوت فجأة. بقيت مكاني وانتظرت حانياً رأسي كمحكوم بالإعدام. لم يدن مني أحد، لم يسألني أحد: «لماذا تتعقبنني؟». لم ألحظ أنني كنت في القسم المضيء من نفس الجادة إلا بعد عدة ثوان.

رفعت نظراتي ببطء، لم يكن هناك امرأة أو أي أحد. وعلى بعد بضعة خطواتٍ كان هناك نادٍ ليلي مشهور جداً، بابه مضاًءٌ بأنوار كهربائية. وعلى لوحته الكبيرة مكتوب كلمة «أتلاتنيك» وهي تومض وتنطفئ بالمصابيح الزرقاء، وتحتها بالأنوار أيضاً أشكالٌ تشبه أمواج البحر. دعاني الرجل الطويل الواقف على الباب والمرتدي لباساً منمقاً وملوناً، ومعمراً طاقيّة حمراء منحنياً للدخول إلى النادي. استنتجت بأن المرأة قد دخلت إلى هنا فدخلت بلا تردد:

- "هل دخلت المرأة صاحبة معطف الفرو والتي كانت تمشي أمامي قبل قليل إلى هنا؟"، سألته.

قال البواب منحنياً من جديد:

- "نعم!"

كانت في وجهه ابتسامة ذات معنى عميق. خطر فجأةً بعقلي احتمال أن تكون أحد زبائن هذا المكان الدائمين، مجيئها إلى هنا كل ليلة وفي نفس

الساعة يُظهر ذلك. خلعت معطفي وأنا آخذ نفساً عميقاً ومستريحاً،
وولجت إلى القاعة.

كان النادي مزدحماً. ساحة الرقص منخفضةً تتوسط المكان، وفي مقابلها
فرقة أوركسترا، وفي زوايا القاعة مقصورات مغلقة. كانت ستائر أكثر
من نصف تلك المقصورات مسدلة؛ وكان الأزواج بداخلها يخرجون
ليرقصون قليلاً بين فينةٍ وأخرى، ثم يعودون لمقصوراتهم مسدلين
الستائر خلفهم. ذهبت إلى واحدة يبدو أنها لم تكن محجوزة وجلست
فيها. طلبت بيرة. ولّى خفقاني بلا رجعة. تفحصت المكان حولي
بنظراتٍ غير متعجلة. تمنيت أن أجدها، صاحبة معطف الفرو، سارقة
أحلامي منذ أسابيع، على أحد الطاولات بجانب عريبيد شاب أو مسن،
فثبتت لي بذلك عدم صحة تلك الأهمية والمعاني العميقة والاستنتاجات
المبالغية التي صبغتها بها، فأخلص نفسي بذلك من أوهامي الفارغة. لم
تكن على إحدى الطاولات المحاذية لساحة الرقص. على الأغلب أنها
بداخل إحدى المقصورات. شعرت بنفسي أضحك بآلم. أحقق على
نفسي لإصراري على النظر إلى الناس بغير ما هم عليه في الحقيقة. أصبح
عمري أربعٌ وعشرون سنة، لكنني لم أنخلص من سذاجة طفولتي بعد.
لوحةٌ بسيطة، بل وربما ليست جميلةً أبداً، كم تركت فيّ من انطباعات،
وكم ولدت من آمال. ذلك الوجه الشاحب، أعطيته معانٍ وتفسيراتٍ
تملاً كتباً، ووجدت لها أوصافاً غير موجودةٍ في الحقيقة أصلاً. بينما هي
في الواقع ليست سوى إحدى أولئك النسوة الشابات، اللاهثات وراء
المتعة في مثل هذه الأماكن. على الأغلب أيضاً أن معطف فرو السنور

البري الذي كنت أشاهده بكل إجلالٍ، كان من ثمن خدماتها التي تقدمها هنا.

قررت متابعة المقصورات المسدولة الستائر بالتالي لأعرف من بداخلها. بعد مرور نصف ساعة، ميّزت كلّ الأزواج الملتهين الذي كانوا في المقصورات المستترة. تأكدت من أن مادونا صاحبة معطف الفرو لم تكن في إحداها. في كل مرةٍ كانت ترفع ستائر إحداها، كنت أستमित للنظر داخلها بشكلٍ يثير الانتباه. لم تكن هناك مقصورة لا يخرج من فيها للرقص.

وقعت في حيرةٍ محزنة مرةٍ أخرى. يا ترى هل تميّأ لي أني رأيتها هذه المرة أيضاً؟ فليست هي المرأة الوحيدة التي ترتدي معطف فروٍ في برلين. لم أر وجهها حتى. هل كان بإمكانني أن أميز امرأةً نظرت إليّ البارحة بابتسامةٍ ساخرةٍ وأنا سكرانٌ من مشيتها فقط؟ لنرّ، هل كانت هي التي رأيتها بالأمس فعلاً؟ أم كانت كل تأويلاتي وتفسيراتي منذ الصباح عبارةً عن وهمٍ وخيال؟ بدأت بالخوف من نفسي. ما الذي يحصل لي؟ الوقوع تحت تأثير شديد للوحةٍ ما... ثم الظن بأنني سأقابل تلك المرأة التي في اللوحة، ثم تتبّع امرأةٍ عشوائيةٍ ظاناً بأنني قد تعرفت عليها من معطفها الفروي ووقع أقدامها.. لم يكن أمامي خيارٌ غير الخروج فوراً ومحاولة السيطرة على نفسي في المرات القادمة.

أظلمت القاعة فجأة. وُسِّط ضوء خفيف على الأوركسترا. أُخليت ساحة الرقص من الراقصين. وبدأت موسيقى ثقيلةٌ بالعزف بعد زمن

بسيط. ومن بين أنغام عزف آلات البزق⁽¹⁾ برز صوتٌ خفيفٌ لعزف
كمان. كان الصوت يقترّب شيئاً فشيئاً. استمرت المرأة المرتدية لفستانٍ
يبرز مفاتنها كثيراً بالعزف وهي تنزل، وبدأت وبطبة خفيفةٍ وقريبةٍ
لصوتِ ذكوري بغناء إحدى الأغاني المشهورة في ذلك الوقت. كان
الضوء يرسم دائرة بيضاويةً على مكان المغنية.

عرفتها على الفور. كل تردداتي وآلاف تخميناتي طارت مختفية. وتلوى
صدري من جديد. أحزنني جداً كونها مجبورةً في عملها هذا على توزيع
الابتسامات الكاذبة في كل الجهات والتصرف بغنج ودلالٍ مع الزبائن.
كان بإمكانني أن أتصور المرأة التي كانت في اللوحة في كل الوضعيات،
حتى وهي تنتقل من حضن إلى آخر. لكن لم يخطر على بالي أني سأراها
على هذا الوضع أبداً. في حالها هذا بؤسٌ صريحٌ لا يمكن مقارنته بحالها
الذي رسمته في مخيلتي مغرورة مستغنية وذات إرادة قوية. فكرت في
نفسي «لو أراها تفعل ماتوقعت أنها تفعله هنا أنفاً، تشرب وتسكر مع
الرجال، تراقصهم وتتبادل معهم القبل لكان أفضل لي. لأنها ومهما
كانت ما تفعله، فهي ستفعله باختيارها. ستفعله ساهية وتاركةً لنفسها
الحبل على الغارب. لكن ما تفعله الآن ليس ما كانت تريد فعله أبداً.
لم يكن عزفها على الكمان مميّزاً. صوتها هو الشيء الوحيد الذي كان
جميلاً، بل مؤثراً إذا صح التعبير. تغني أغاني مرتعدة بالشكوى وكأنها
تسكب من فم طفل ثمل. تقف وعلى وجهها ابتسامةٌ معوجة؛ كانت

(1) آلة موسيقية شرقية تشبه العود - المترجم.

كمن ينتظر أي فرصة صغيرة لكي يختفي من الوجود. حين كانت تقرب منحنية من أحد طاولات الزبائن، وبعد أن تعزف له عدة نغمات مبهمة، كان وجهها يأخذ طابع الجدية ريثما تنتقل للطاولة التالية. كان نفس التعبير الذي رأيته في اللوحة بتماماً. لم أر في هذه الدنيا شيئاً أكثر إيلاماً من محاولة شخصٍ حزين أن يضحك ويتصنّع السعادة. نهض أحد السكارى من إحدى الطاولات التي كانت قريبةً منها بهدوءٍ وقبلها بغتةً على ظهرها العاري. إرتعدت المرأة وانقبض وجهها كأنها لدغها ثعبان، لكن ردة الفعل تلك لم تستمر لأكثر من ثانية. بعدها إعتدلت واقفةً ومبتسمة تنظر إلى الرجل وكأنها تقول له: «ياه، ما أجمل ما فعلت!»، وبجانبها رجل يظهر عليه أنه غضب من ردة فعلها تلك. رأيت المرأة التي كانت تجالس الرجل على الطاولة تلتفت إليها وتمز رأسها لها، وكأنها تقول: «تصرفي بشكلٍ حسن، فالرجال أحرار في أن يفعلوا بنا مثل هذه الأشياء!».

كان يُسمع تصفيق متقطع بعد كل أغنية، ثم تومئ المرأة برأسها للأوركسترا ليعزفوا أغنية أخرى. ثم تبدأ بغناء أغنية أخرى بنفس الصوت الحي والمليء بالشكوى، تدنو بساقيها المتواريتان خلف تنورتها البيضاء على الأرضية الخشبية، مقتربةً من طاولة ومنتقلة إلى أخرى وهي تعزف على رؤوس الأزواج الثملين الحاضنين لبعضهم، أو مقابل ستائر المقصورات التي لا يُعرف ما يحدث بداخلها، مميلةً رأسها على الكمان ومداعبةً أوتاره بأصابعها الغير محترفة.

عندما رأيتهما تقرب من طاولتي وقعت في اضطراب شديد. لم أعرف

كيف سأنظر لها أو ماذا سأفعل. ثم سخرت من حالي هذا. فهل من الممكن لها أن تتعرف على رجل لمحتة البارحة في طريق مظلم؟ ماذا من الممكن أن أكون بالنسبة لها غير أحد الشبان القادمين إلى هنا للمتعة وإيجاد رفيقة لتلهو معهم؟ رغم هذا حنيت رأسي. رأيت أطراف تنورتها المغبرة بفعل احتكاكها بالأرضية ومن تحتها حذائها الأبيض بمقدمته البارزة إلى الأمام. لم تكن ترتدي جورباً. ورغم الإضاءة الباهتة، إلا أنني استطعت رؤية بقعة وردية كانت تبرز على جلد أحد أصابع قدمها. عندما وصلت عيني إلى هنا شعرت بي وكأنني رأيتها عارية تماماً فرفعتها وأنا أرتعد وأشعر بالخزي. كانت تُمعن في النظر. لم تكن تغني، بل تعزف الكمان فقط. اختفت من على وجهها الابتسامة المصطنعة، وعندما إلتقت عينانا حيتني بود. نعم، من دون مبالغة أو ابتسامة فاترة، حيتني وكأنني صديق قديم. فعلت ذلك وهي تومئ إليّ مغمضةً وفاتحة عينها مرة واحدة فقط، لكن بشكل صريح لا يمكن معه أن أكون مخطئاً. ثم ضحكت، وكأنها تضحك لصديق قديم. بعد أن عرفت المدة، وبعد أن حيتني برأسها وعينيها، انتقلت لطاولاتٍ أخرى. انتابتني رغبةٌ عجيبةٌ بأن أففز من مكاني وأعانقها وأقوم بتقبيلها وأنا أبكي. لا أذكر أنني كنت في حياتي كلها سعيداً ومنشرح الصدر كما أنا اليوم. هل من الممكن لإنسان أن يكون سبباً في سعادة إنسانٍ آخر إلى هذا القدر ومن دون حتى أن يفعل شيئاً يُذكر؟ تحيةٌ ود وضحكةٌ نقية.. لا أريد شيئاً آخر في هذه اللحظة. كنت أغنى رجال العالم. تابعتها بعينيّ مردداً في نفسي: «شكرًا لك.. شكرًا لك!» ومسروراً لأن ظنوني

في معرض اللوحات لم تحب. كانت كما تصورتها تماماً. لو لم تكن كذلك هل كانت لتُنظر إليّ وكأنها تعرفني؟ وتحييني؟

بعد لحظاتٍ باغت قلبي شكُّ كماءٍ رُش على نار. يا ترى هل شبّهتني بأحدٍ تعرفه، قلت في نفسي. أم يا ترى هل كان وجهي مألوفاً لها لأنها رأنتني في الشارع ذلك اليوم، ولكنها لم تستطع تذكر أين ومتى رأنتني، فارتأت أن من الأفضل أن تسلم عليّ احتياطاً؟ لم يبد على وجهها أدنى ترددٍ أو حيرة، أو أي شيءٍ يدل على أنها كانت تحاول مراجعة ذاكرتها لتتذكر. نظرت إلى عينيّ بأمانٍ ثم ضحكّت. ليكن ما يكن، فإظهارها لهذا التودد والقرب إليّ كان كافياً لجعليّ أسعد إنسان في الدنيا. كنت جالساً على طاولتي بابتسامةٍ وبهجةٍ الناس الراضين عن حياتهم، أنظر إلى المرأة التي ذهبت إلى الطرف الآخر من القاعة. خصلات شعرها الكستنائي، المتموجة والقصيرة كانت تنسدل على كتفيها. وعندما تحرك ذراعيها العاريتين كان قدّها يتثنى بخفةٍ يميناً وشمالاً، وتتحرك عضلات ظهرها قليلاً.

بعد أن أنهت آخر أغنيةٍ مشيت بخطواتٍ متعجلةٍ إلى خلف الأوركسترا واختفت، ومن ثم أشعلت الأضواء من جديد. في نشوة سعادتي الغامرة، جلست لبعض الوقت من دون أن أفكر في شيء. ثم سألت نفسي «ماذا عليّ أن أفعل الآن؟». هل أخرج وأنتظر خروجها عند الباب؟ ولأي مقصد؟ رغم أنني لا أستطيع أن أقول لها كلمتين حتى، فماذا لو أنني انتظرتها وسألتها عندما تخرج: «هل تسمحين لي أن أرافقك إلى منزلك؟»، ماذا كانت ستظن بي؟ هل أقابل إظهار توددها وطيبتها

لي بتصرفي هكذا، كزير نساءٍ محترفٍ؟

قررت بأن أكثر تصرف لبق أفعله هو أن أعود إلى بيتي، وفي مساء الغد أجيء إلى هنا مجدداً. وشيئاً فشيئاً سأطور علاقتي بها أكثر. يكفي هذا القدر لليلةٍ واحدة. فأنا ومنذ طفولتي كنت أخاف دائماً من الإسراف في السعادة، أملاً أن أخبئ بعضاً منها لأوقات أخرى. كان ذلك سبب تفويتني لكثير من الفرص، لكنني كنت أتردد دائماً من طلب المزيد، خوفاً من أن أنفّر بختي.

نظرت حولي باحثاً عن النادل فوقعت عيني على المرأة القادمة من خلف الأوركسترا باتجاه القاعة. لم يكن بيدها كمانٌ هذه المرة. تمشي بعجلةٍ واضحة. وعندما رأيتها تدنو باتجاه المنطقة التي كنت أجلس فيها تلفتُ حولي. كانت قادمة إلي، إلى طاولتي. تبسم بمودةٍ وصدقٍ كما فعلت من قبل. توقفت أمامي ومدت يدها:

- "كيف حالك؟" سألتني.

بالكاد تخلصت من بعض زهوري في تلك اللحظة ونهضت مصافحاً إياها.

- "شكراً.. أنا بخير!"

جلست على كرسيٍّ مقابل لي. هزت رأسها بخفة لإبعاد الشعر الذي كان يغطي وجنتيها.

- "تبدو مستاء مني غالباً!" قالت.

فوجئت. ولعدم فهمي ماترمني إليه، بدأت العديد من الاحتمالات بالتوافد إلى عقلي.

جاوبتها: "لا. ما المناسبة؟!"

لم يكن صوتها بغريبٍ عليّ أبداً. كان من الطبيعي أن أتذكر كل خطوط وتفصيل وجهها، وأن أجد معانٍ وتفسيراتٍ أكثر مما كان هنالك في الحقيقة. فبتأملي للوحتها لأيام، نقشتها في ذاكرتي، ثم أتممت النقش بلوحة مادونا. لكن صوتها.. يبدو أني سمعته في مكانٍ ما على كل حال. ربما قبل زمنٍ طويل. في طفولتي.. أو ربما في خيالي فقط.

ولأنّقد نفسي من أفكارٍ المتلاحقة، حرّكت يدي. فها دام أنها أمامي، وتتكلم معي، فليس هناك داعٍ للانشغال بأشياءٍ أخرى. كرّرت المرأة سؤالها:

- "يعني هذا بأنك غير مستاء مني؟ حسناً، ولكن لم تأت مرةً أخرى أبداً؟"

يا للمصيبة! يبدو أنها شبهتني بأحدٍ آخر فعلاً. فتحت فمي لأسألها: «من أين تعرفيني؟»، لكنني تراجعته عندما مرّ بيالي تساؤلٍ مريب. ماذا لو أدركت خطأها واعتذرت ونهضت ذاهبة؟ سيكون من الجيد أن يستمر هذا الحلم الرائع لأطول وقتٍ ممكن. لم يكن من حقي أن أنهض مقاطعاً إيها وأترك الحديث في منتصفه، ولو في سبيل قول الحقيقة.

انتقلت المرأة إلى سؤالٍ آخر عندما رأت عدم استجابتي:

- "هل تصلك رسائل من أمك؟"

بعد أن وقعت في حيرةٍ لم تدم أكثر من ثانية، قفزت قائماً من كرسيي. وصرخت ممسكاً بيدها:

- "آه ياربي، هذا أنت؟"

فهمت كل شيء الآن. تذكرت من أين تعرفت على صوتها.
ألقت المرأة بضحكةٍ رنانة:

- ”يالكَ من ولدٍ غريب!“، قالت.

تذكرت ضحكتها أيضاً. لقد كانت تلك المرأة التي قطعت علي تركيزي وأنا أتأمل اللوحة في المعرض، وعندما سألتني عن ما أجده في اللوحة وأجبتها بأنها تشبه أُمِّي سألتني: «أليس لديك صورةٌ لأُمك؟» وهي تضحك. لم أفهم كيف لم أستطع التعرف عليها من قبل، هل سلبت اللوحة لبيّ لدرجة أنها أعمتني عن تمييز أصلها؟

تمتت: «لكنك، يبدو أنك لم تكوني تشبهين اللوحة في ذلك الوقت!»

- ”كيف كنت ستعرف ذلك؟ إذ لم تكن قد نظرت في وجهي حتى!“

- ”لا، أستبعد ذلك.. فكيف لي ألا أفعل؟“

- ”نعم، نظرت قليلاً، ولكن كيف؟ وكأنك تتفادى الرؤية!“

ثم قالت ساحبةً يديها اللتين كنت مازلت أعصرهما:

- ”عندما عدت إلى أصدقائي لم أخبرهم بأنك لم تتعرف عليّ، وإلا كانوا

سيضحكون عليك كثيراً!“

- ”شكراً!“

فكرت لوهلة، كأنها مرت من أمام عينيها سحابة. وفجأةً قالت بلهجةٍ

جادة:

- ”هل مازلت تريد أمّاً مثلها؟“

توقفتُ للحظةٍ غير مدركٍ مقصدها، ثم جاوبت بسرعة:

- ”طبعاً.. طبعاً.. ولأي درجة!“

- "نفس جوابك في المرة الفائتة!"

- "ربما.."

ضحكت مجدداً.

- "لكن هل يمكنني أن أصبح أمك؟"

- "إنها! لا، لا!"

- "ربما أختك الكبرى!"

- "كم عمركم؟"

- "وهل تُسأل امرأة هذا السؤال؟ لكن لا يهم، ست وعشرون سنة.."

ماذا عنك؟

- "أربع وعشرون!"

- "أرأيت؟ أستطيع أن أصبح أختك الكبرى!"

- "نعم، صحيح."

سكتنا لمدة.. كنت أشعر أن بداخلي أشياء واسعة ولا نهاية لها لأخبرها بها، أشياء لا تكفيني سنوات لأخبرها كلها بها. لكن لم يكن يحضرنني أيُّ منها الآن أبداً. هي أيضاً، كانت تنظر أمامها من دون أن تنطق بشيء. أسندت مرفقها الأيمن على الطاولة، وتركت يدها تستريح على الغطاء الأبيض. كانت لها أصابع دقيقة الأطراف تعطي انطباعاً بأن عظامها نحيلة جداً، وكانت أطراف أصابعها حمراء، من البرودة ربما. تذكرت أنني عندما صافحتها قبل قليل كانت يداها باردتان فعلاً. فانتهزت هذه الفرصة قائلاً:

- "يداك باردة!"

أجابت بلا تردد:

”أدفعها!“، ومدتها إليّ.

تطلّعت إلى وجهها. كان في عينيها هيمنة وإرادة قوية. كأن تركها يديها لشخصٍ تكلمه لأول مرةٍ لم يكن شيئاً ذا أهمية. ياترى؟.. كانت الاحتمالات المعتادة وغير المتعلقة بالموقف تتدفق على عقلي. ولكي أبعدها عن عقلي قررت أن أقول شيئاً:

- ”أنا معذورٌ لعدم قدرتي على التعرف عليك في المعرض! فقد كنت مبتهجة، بل وهازلة أيضاً، لدرجة أنك.. لا أعرف كيف أشرح لك؟.. كل ما كان فيك من الصفات معاكسٌ لما كانت عليه اللوحة. شعرك قصير، تنورتك أيضاً قصيرة وردائك ضيق، ومشيتك أشبه بالجري، عجولة. كان صعباً بطبيعة الحال أن أشبّهك بـ(مادونا) التي يصفها النقاد بالوقورة، المتأملة، والمتكدّرة قليلاً. لكنني متعجّب... يبدو أنني أسرفت في التأمل!“

- ”صحيح، جداً. أتذكر أول يومٍ قدمت فيه إلى المعرض. بعد أن تجوّلت لمدةٍ والضجر بادٍ عليك، توقفت فجأةً عند لوحتي. وبدأت في النظر إليها بشكلٍ غريبٍ لدرجة أن زوار المعرض تعجبوا من ذلك أيضاً. في أول وهلةٍ ظننت بأنك رأيت فيها شيئاً من أحد تعرفوه، ثم أصبحت تتردد عليها كل يوم. فوقعت في فضولٍ أظنك تتفهمه. وفي عدة مراتٍ وقفت بجانبك وتفرجت على اللوحة معك، لكنك لم تشعروا بوجودي، رغم أنكم كنت بين فينةٍ وأخرى تلتفت إلى هذه الفضولية التي تقاطع تركيزك، إلا أنك لم تتعرف عليّ. كان هناك شيء

جذابٌ في شرودك.. مثلما قلت لك، كنت تثير فضولي. وفي النهاية قررت التحدث معك. حتى الرسامون الآخرون كانوا فضوليين أيضاً، أصروا عليّ أن أفعل، لكن ياليتني لم أفعل. فقد خسرناك تماماً بعدها، لم تعد إلى المعرض أبداً!

قلت: «ظننت أنكم تتسلون بالسخرية مني!». لكنني ندمت على الفور، فربما ستفعل من كلامي هذا. لكنها قالت:

- «صحيح، معكم كل الحق!»

ثم حدقت في وجهي بعينها كأنها تبحث عن شيء ما وقالت:

- «أنت وحيد في برلين، أليس كذلك؟»

- «ماذا تقصدين؟»

- «أعني.. وحيد، غريب، بلا أحد. روحك وحيدة، كيف أشرح مقصدي.. فيك حالٌ..»

- «أفهم، أفهم ما تعنين. نعم، أنا وحيدٌ جداً.. لكن ليس فقط في برلين. أنا في كل هذه الدنيا وحيد.. وحيدٌ منذ طفولتي.»

- «حتى أنا وحيدة..» قالتها هذه المرة وهي تمسك يدي براحتي يديها.

ثم استطرَدت: «وحيدةٌ لدرجة الإختناق.. وحيدةٌ مثل كلبٍ عليل.»

رفعت يدي ضاغطةً على أصابعي بقوةٍ ثم ضربت بها على الطاولة:

- «أستطيع أن أصبح صديقك!» قالت، «لم تتعرف عليّ إلا مؤخراً،

لكنني راقبتك لمدة خمس وعشرين يوماً. فيك شيءٌ لا يوجد عند غيرك.

نعم، أعتقد أننا سنكون أصدقاءً جيدين..»

نظرتُ إلى وجهها باستغرابٍ شديد. ما الذي كانت تقصده؟ ماذا كان

يمكن أن يكون عرض امرأة لرجل بهذه الطريقة؟ لم أكن أفهم شيئاً. فلم يكن لدي أي خبرة، ولم أكن أعرف الناس أبداً. لاحظت هي ذلك أيضاً. فقالت وفي وجهها قلق من اعتقد بأنه قد تمادى قليلاً، وخاف من أن يُساء فهمه:

- "لا تفكر مثل الذكور الآخرين. لا تحاول إعطاء كلماتي معاني أخرى. فأنا دائماً هكذا أتكلم بوضوح وصراحة، كالرجال. في الحقيقة أنا أشبه الرجال في كثير من جوانب شخصيتي، وربما هذا هو سبب وحدتي." تفحصتني بعينها من رأسي حتى أخمص قدمي. ثم قالت فجأة:

- "أنت أيضاً فيك شيء من الأنوثة.. الآن عرفت لماذا. ربما لهذا السبب حكمت بأني وجدت فيك شيئاً يعجبني منذ رأيتك في أول مرة، فيك حالٌ يشبه حال الفتيات اليافعات.."

ورغم أنني اعتدت على سماع هذا الكلام من أمي وأبي كثيراً، إلا أن صدوره عن شخصٍ أتحدث معه لأول مرة أحزني وفاجأني. قالت مكلمةً كلامها:

- "لن أنسَ حالك ليلة البارحة أبداً! كنت أضحك طوال الليل عندما أتذكرك.. كنت مضطرب كفتاةٍ تحاول الدفاع عن شرفها، لا أعتقد أن الخلاص من فراو تيدمان سهلٌ على كل حال." فتحت عينيّ بدهشة قائلاً:

- "أعرفينها؟"

- "كيف لا أعرفها وهي قريبتى! ابنة خالي.. لكننا متخاصمتان حالياً؛ لست أنا، ولكن أمي لا نريدنا أن نتواصل بسبب تصرفاتها هذه. كان

زوجها محامياً، وقُتل في الحرب العالمية. والآن هي بتعبير أمي، تعيش حياة "غير لائقة". لكن ما دخلنا؟ ماذا حدث البارحة؟ هل نفذت بجلدك منها؟ من أين تعرفون بعضكم؟

- "نقيم في نفس المهجع، أنقذت نفسي ليلة البارحة بفضل مصادفةٍ عجيبة. فقد صادفنا في المهجع رجلاً كان على علاقةٍ حميمة بابنة خالك، اسمه هير. دوبيكه."

- "ليتزوجوا على الأقل!"

أدركت أنها أرادت إنهاء الموضوع بجملتها الأخيرة هذه. صمتنا لوهلة، كلانا كان يحاول تفحص الآخر من دون أن يظهر ذلك، وعندما كانت تلتقي أعيننا نبتسم ابتسامة تنمُّ عن رضا كلِّ منا عن الآخر، ونستمر في تبادل النظرات.

كنت أنا من مزَّق الصمت:

- "يعني ذلك أن لك أمّاً؟"

- "مثل مالك أنت!"

شعرت بالانزعاج، كأن ما سألتُه كان سؤالاً سخيفاً. لاحظت هي ذلك وغيّرت الموضوع:

- "هذه أول مرة أراك فيها هنا!"

- "نعم، لا آتي إلى مثل هذه الأماكن أبداً، باستثناء هذه الليلة."

- "هذه الليلة؟"

مستجمعاً كل جرأتي، قلت:

- "أتيت إلى هنا متتبّعاً لك!"

فوجئت قليلاً:

- "هل كنت أنت من تبعني إلى عند البوابة؟"

- "نعم، يعني ذلك أنك لاحظت."

- "طبعاً، وهل يُعقل أن لا تلاحظ امرأةً مثل هذه الأشياء؟"

- "لكنك لم تنظري خلفك أبداً!"

- "لا ألتفت لأنظر خلفي أبداً!"

صمتت وفكرت ملياً، ثم قالت بضحكةٍ جريئة:

- "هذا أيضاً شكّل من أشكال تسلّيتي. عندما أحس بتتبع شخص

لي في الطريق، أقاوم فضولي الشديد وأصرّ على عدم الالتفات إليه، وفي

تلك الأثناء أمّرر بذهني العديد من الاحتمالات: قد يكون متتبعي

شاباً، أو مسناً يصطاد النساء الضعيفات، أو أميراً غنياً، أو طالباً فقيراً،

ربما يكون سكيراً عربيداً حتى. أحاول تمييز ماهيته من وقع خطوات

أقدامه وبهذه الطريقة ينتهي طريقي من دون حتى أن أدرك ذلك. يعني

هذا أنك أنت من كان يتبعني، ها؟ على الرغم من أنني، ومن خطواتك

الترددة حذرت بأنك رجلٌ عجوزٌ ومتزوج."

ثم أردفت بعبته وهي تنظر في داخل عيني:

- "هل كنت ترصد طريقي؟!"

- "نعم."

- "كيف حذرت بأني سأمر بنفس الطريق هذه الليلة؟ هل كنتم تعرف

بأني أعمل هنا؟"

- "لا، لكن لا أعلم!. قلت لنفسي ربما، ربما لم أقل حتى، وجدت

نفسي ومن دون أن ألحظ ذلك، أقف هناك في نفس الوقت. ثم اختبأت عند أحد الأبواب خوفاً من أن تريني.
- ”هيا لنمض، ستحدث في الطريق.“
وعندما رأّت ذهولي سألت:

- ”ألا تريد مرافقتي إلى منزلي؟“

نهضت من مكاني فوراً. أضحكته حركتي هذه:

- ”لا تتعجل يا صديقي“ قالت. ”سأذهب لأغير ملابسني أولاً. انتظرنى مقابل البوابة بعد خمس دقائق!“

نهضت بسرعة. ذهبت بخطوات متعجلة وهي تمسك بطرف تنورتها، واختفت خلف الأوركسترا. نظرت في وجهي مجدداً ونحن ذاهبون، حيثني عيناها المدهشتان تلك بإغماضةٍ وكأني صديقها منذ أربعين سنة. استدعيت النادل ودفعت الحساب. عادت لي جسارتي وجرأتي فجأة. كنت أهدق في وجه الرجل الذي كان يقيد أرقاماً في دفتره ذي الأوراق الطويلة وكأني أقول له: ”ألم تلاحظ كم أنا سعيد يا أحمق!“, وشعرت برغبةٍ قويةٍ في السلام ضاحكاً على كل من لم يترك القاعة من الزبائن وفرقة الأوركسترا. كان تشبثي وتعلقني المفاجيء بالناس كشعور من اجتمع بأصدقائه بعد فراق سنين طويلة، يريد مصافحتهم وتقيلهم مع محادثاتٍ مليئةٍ بالبهجة والحماس.

قمت من مكاني. مشيت إلى غرفة تغيير الملابس بخطواتٍ واسعة مرتاحة وواثقة، هبطت السلم متخطياً عدة درجات في القفزة الواحدة. رغم أن مثل هذا السخاء المبذر وأنا أصرف أموالني للحساب لم يكن من

طبعي أبداً، إلا أني أعطيت ماركاً للمرأة التي ناولتني معطفي . مقابل البوابة تطلعت حولي أخذاً أنفاساً عميقة. أُطِفْتُ كتابة أتلانتيك التي كانت على اللافتة فوقِي، واختفت موجات البحر معها. السماء صافية وفي الغرب البعيد يظهر هلال صغير يقترب من الأفق.

سمعت صوتاً رقيقاً خلفي:

- "هل انتظرت كثيراً؟"

- "لا... للتو خرجت!"، قلت ذلك وأنا ألتفت نحوها.

كانت واقفة أمامي، أعيننا ترمش وكأننا أناس يفكرون من دون أن يصدروا قراراً. أخيراً حركت شفتيها بخفة:

- "حقاً تبدو كإنسان طيب!"، قالت.

اضمحلّت كل جسارتي وجراّتي فوراً عندما عادت إلي، ورغم أن هناك رغبة بداخلي لشكرها، وأن أضم يديها وأقبلها، إلا أن كل ما استطعت هو أن أنطق بصوتٍ لا يكاد يسمع:

"لا أدري!".

أمسكت المرأة ذراعي بلا تكلف، ويدها الأخرى أمسكت ذقني. قالت بصوت ناعم كمن يدلّل طفلاً صغيراً:

- "أوه، حقاً أنت خجول مثل فتاةٍ صغيرة!".

نظرت أمامي مقطباً وجهي. كنت قد بدأت في السأم من معاملة امرأة لي بهذه الجرأة وعدم المبالاة. لم تبلغ في ذلك على كل حال. تركت ذقني أولاً، ثم أسقطت يدها التي كانت ممسكةً بذراعي ببطيءٍ إلى جانبها، وعندما رفعت رأسي فوجئت. فقد كان في وجهها ذهولٌ عجيب، بل

كان فيه حياةً أيضاً. كان الاحمرار يمتد على خدها وإلى رقبتها. عيناها نصف مغلقتين وخائفتان من النظر إلي. مر ببالي تساؤلٌ مفاجئ: «لماذا ياترى تفعل ذلك؟ رغم أنها بالتأكيد ليست بذلك النوع من النساء.. لكن لماذا تفعل ذلك؟».

قالت كمن حزر ما في خاطري:

- «أنا هكذا! أنا امرأةٌ غريبة. إذا أردت مصادقتي فعليك تحمل أشياء كثيرة، مثل تقلباتي السخيفة، فلي أحوالٌ لاتلائم بعضها. الخلاصة أنني مخلوق مزعجٌ ولا يفهم من أي أحدٍ أصادقه.»

ثم أتبع بصوت حاد وفظي، وكأنها قد غضبت من سوء فعلتي:

- «لكن إذا أردت، فليس لي حاجةٌ لأحد. ليس في نيتي أن أكون ممتنة لأحد، أو أن أطلب صداقة أحدٍ ولطفه. هذا إذا أردتم.»

قلت بنفس صوتي البطيء والمتردد: «سأحاول فهمك.» مشينا لعدة خطوات. وشيئاً فشيئاً تشبثت بذراعي. وكمن يتحدث عن أشياء عادية جداً، بدأت في الكلام بصوت لا لون له:

- «يعني ذلك أنك ستحاول فهمي؟ ليست فكرة سيئة. لكنني أشعر بأنه سيكون زرعاً بلا حصاد!.. رغم أنني أحياناً أعتقد أن بإمكانني أن أكون صديقةً جيدة. سيثبت الزمان ذلك، ولو افتعلت بعض الشجارات الصغيرة فلا أهمية لذلك، لا تبالي.»

توقفت في منتصف الطريق، وأشارت ملوحة بسبابه يدها اليميني كمن ينذر طفلاً ليتصرف بأدب قائلة:

- «لكن تنبه لما سأقول. في اليوم الذي ستطلب مني فيه شيئاً ما سيعتبر

كل شيء منتهياً. ولا أي شيء.. أتفهم؟ لن تطلب مني أي شيء. “ ثم تابعت بصوت شرسٍ كمن يتعارك مع عدو له: ”أعلم لماذا أنفر منكم، أعني كل الرجال في هذه الحياة؟ لطلبهم كل شيء من المرأة وكأن ذلك من أبسط حقوقهم الطبيعية. لا تسيء فهمي، فليس من الضروري أن تكون طلباتهم عن طريق الكلام. فنظرات الرجال، وضحكاتهم تلك، وحركات أيديهم، بل تعاملهم مع المرأة في الخلاصة.. على المرء أن يكون أعمى حتى لا يلاحظ ثقتهم الزائدة والحمقاء في أنفسهم. ويكفي رؤية الذهول الذي يقعون فيه عندما يُرفض لهم طلب - بأي طريقة - لفهم كبرياءهم المتعجرف. فهم لا يتوقفون أبداً عن رؤية أنفسهم كصيادين، والتفكير بنا نحن كفرائس. مهمتنا الوحيدة هي أن نكون تابعات، مطيعات، وأن نفعل مايراد منا. نحن لا نريد ذلك، ولا نعطي شيئاً من أنفسنا. أنا أتقرّز من غرور الرجل المتعجرف الأحمق. هل تفهمني؟ لهذا أعتقد أن بإمكانني أن أكون صديقتك. لأن في حالك هذه لا يوجد أي ثقة في النفس. لكن لا أدري، فما أكثر ما رأيت من الخراف التي تظهر أسنان الذئاب من أفواهها.“

استمرينا في المشي مجدداً وهي في منتصف كلامها. كانت تمشي بخطوات متعجلة وقوية. تتكلم مشيرةً بيدها، وعيناها تارة في الأرض، وتارة في السماء. كانت في منتصف جملها تترك فواصلاً تعطي إحساساً بأنها قد أنهت كلامها، وتغمض عينيها نصف إغماضة مجدداً وتستمر في مشيها. مشينا لمسافة طويلة، وغاصت في صمت طويل من جديد. أما أنا، فقد كنت أمشي خائفاً بجانبها دون أية كلمة. توقفت عند بناء ذو ثلاث

أدوار مجاور لشارع من شوارع حي تيرغارتان.

- "أسكن هنا.. مع أمي. سنكمل حديثنا في الغد، لكن لاتأت إلى هناك. لا أعتقد بأني سأسرّ من رؤيتك لي على تلك الحال. أسجل هذه كنقطة لمصلحتك. لنلتق غداً نهاراً ونتمشى سوياً. لدي في برلين أماكن تنزه خاصة. لنرى هل ستعجبك أم لا. هيا، ليلة سعيدة. لحظة! لم أزل لأعرف اسمك!"

- "رائف!"

- "رائف؟ فقط؟"

- "رائف خطيب زاده!"

- "لا، يستحيل أن أتذكر ذلك، فضلاً عن أن أنطقه! ألا يكفي رائف؟"

- "يسعدني أكثر!"

- "أنتم أيضاً تستطيع مناداتي بهاريا. قلت لك، لا أريد أن أكون تحت تفضّل أحدا!"

ضحكت مجدداً، وأخذ وجهها الذي كان يتغير بتعابير كثيرة ذلك الطابع الحلو الأليف. مدت ذراعها ضاغطةً على يدي في راحة يدها. تمت لي مجدداً ليلة سعيدة بصوت ناعم يعطي إحساساً بأنها تحاول الاعتذار، وأدبرت مخرجةً مفتاحها من شنطتها. ابتعدت ببطء. لم أبتعد أكثر من خمسة أو عشرة أقدام حتى سمعت صوتها يناديني:

- "رائف!"

إلتفت منتظراً في مكاني.

- "تعال! تعال!"، قالت وهي بالكاد تضبط قهقهاتها. قالتها بغاية الرقة

- "كم أنا محظوظة لحصولي على شرف مناداتك باسمك بهذه السرعة!"
ولأنها كانت على درجات السلم العليا، رفعت رأسي لأنظر إليها. لم أستطع رؤيتها لأن السلم كان مظلماً. كنت أنتظرها أن تكمل كلامها. حاولت اصطناع الجدية، ولكن بنفس ذلك الصوت الأشبه بالضحك، قالت:

- "يعني هذا أنك ذاهب؟"

تقدمتُ خطوةً وقلبي يتقاذف حماساً، قلت وفي عقلي احتمال لست متأكداً إن كان سيسرني أم لا، وبأمل أخشى حتى من التفكير فيه:

- "ألا تريدان أن أذهب؟"

هبطت درجتان على السلم. استبان لي وجهها تحت أشعة إضاءة الشارع. سألتني وعيناها تتفرسان في وجهي بفضولٍ يشوبه مكر:

- "ألم تفهم سبب استدعائي لك بعد؟"

كنت سأرتمي بنفسي على ذراعيها هاتفاً: «فهمت، فهمت، ها أنا ذا قادم». لكنني شعرت في داخلي بإحساس مغاير لهذا وأقوى منه. إحساس بالتحطم، بالذهول، والكآبة. احتنق وجهي محمراً ونظرت أمامي، لا! لأريد ذلك!

مسحت المرأة بكفها على وجنتي:

- "ماذا يحدث لك؟ تبدو على وشك البكاء. أخبرني هيا، كنت ستودعني وتذهب الآن، صحيح؟"

- "صحيح!"

- "لن تأتِ إلي الأتلاتينك للبحث عني، هكذا اتفقنا!"

- "صحيح! ستقابل غداً نهراً!"

- "أين؟"

نظرت إلى وجهها شاعراً بغبائي. لم يخطر هذا على بالي أبداً. سألتها بنبرة فيها رجاء:

- "ألهذا دعيتني؟"

- "طبعاً. أنت حقاً لاتشبه الذكور الآخرين، فهمهم الأول هو تحديد مكان اللقاء ثم الإطمئنان بعد ذلك. الإنسان الذي تبحث عنه لن يظهر في طريقك صدفةً دائماً كما حدث الليلة."

شعرت بثقل الشك، وقد انزاح من روحي. كنت أخشى من أن أعيش معها مغامرة نسائية عادية. لم أكن لأقدر على ذلك. كنت أفضل أن أبدو في نظرها كأحمقٍ ساذجٍ على أن أرى مادونا صاحبة معطف الفرو على تلك الحال. لكن هذا الاحتمال كان مزعجاً أيضاً. كان التفكير في أنها ستضحك من وراء ظهري على سذاجتي وتسخر من جبني من الممكن أن يعطي نتائج توجب عليّ إعطاء ظهري لكل الناس وقطع أملي منهم والآنزواء على نفسي من جديد.

لكن فؤادي الآن مرتاح. شعرت بحياءٍ وخجلٍ كبيرين من ظنوني السافلة تلك، وبإمتنان كبير لإنقاذ المرأة لي من تلك الظنون. استجمعت نفسي بجرأةٍ بائسة:

- "يا لك من امرأةٍ رائعة!"، قلت.

- "لا تستعجل. كن محتاطاً جداً عند حكمك عليّ!"

ضغطت على يديها وقبلتها. على الأغلب أن عينيّ دمعتا. رأيت دنوّ

وجهها من وجهي، وعينيها اللتين كانتا أدفاً من العادة وكأنهما تحتضناني. كاد قلبي أن يتوقف في مواجهة هذه السعادة التي يفصل بينها وبين وجهي بضعة سنتيمتراتٍ فقط، لكنها وفجأةً سحبت يديها بأسلوب فظ جداً واستقامت.

- "أين تسكن؟"

- "على شارع لوتزاو!"

- "ليس ببعيد! .. في هذه الحال تعال غداً بعد الظهر وخذني من هنا!"

- "في أي شقة تسكنين!"

«سأنتظرك على النافذة. لاجابة لصعودك!»

أدارت مفتاحها في قفل الباب ودخلت.

في هذه المرة سلكت طريق البيت بخطى سريعة. شعرت بجسدي أخف مما هو على العادة، وفي مقابل عيني كان خيالها متجسداً. أتممت بأشياء لا أعرف ما هي. وعندما استجمعت تركيزي أدركت أنني كنت أردد اسمها وأخاطبها بكلماتٍ لطيفة ورومانسية، وألقي بين حين وآخر بضحكاتٍ حادةٍ وعالية يستحيل كبحها. وعندما وصلت إلى المهجع كان الصباح قد بدأ بالانبلاج.

لأول مرة منذ طفولتي أعط في النوم من دون أن أقول وأنا أشعر بتحطم في صدري، ومفكراً بفراغ حياتي وسخافتها: "هذا يوم آخر قد ولى. وكل أيامي ستمضي هكذا، ما الذي سيختلف لاحقاً ياترى؟!".

لم أذهب إلى المصنع في اليوم التالي. وفي تمام الساعة الثانية والنصف مررت بتيرغارتان متوجهاً إلى حيث تسكن ماريابودر. كنت أتساءل

ما إذا كان الوقت مبكراً أم متأخراً، ومتردداً من أن أزعجها وهي التي سهرت إلى الصباح، ولديها عمل شاق في الليل أيضاً، كنت أحمل بداخلي نحوها شفقةً يصعب وصفها. أتخيل تمددها على السرير، وتنفسها الثقيل العميق، وبعثرة شعرها على الوسادة، ولا أفكر بوجود شيء في هذه الحياة أسعد من رؤية هذا المنظر. كان الشعور بالصلة والانتفاء الذي استأثرت به عن الناس، والحب الذي لم أشعر به تجاه أي أحدٍ بمعناه الكامل، كأنه قد تجمع ككتلة واستفحل حجمه ثم خرج أخيراً بين يدي هذه المرأة. كنت أدرك بأنني لا أعرف عنها أي شيء بعد، وأني قد استمدت كل أحكامي عليها من تصوراتي وخيالاتي. ومع ذلك كانت عندي قناعةً ثابتة لا تهتز بأن ظني لن يخيب أبداً. طوال حياتي كنت أبحث عنها وأتأملها. هل كان يمكن أن تخيب أحاسيسي المصاحبة لدقةٍ شديدة وموهبةٍ شبه مرضية، والتي تجعلني باستجماع كل تركيزي ووجودي في نقطة واحدة، أبحث عن هذا الإنسان في كل الجهات مدققاً النظر في كل من أصادفه؟ هذه الأحاسيس لم تخطئ أبداً إلى الآن. هي من يكون لها الحكم الأول على الإنسان، ولاحقاً يغيرها عقلي وتجاربي، وغالباً ما يكونا مخطئين. لكن في كل مرة ينتهي الأمر باكتشاف أن الحس الأول كان محقاً من البداية. في بعض الأحيان، كان الشخص الذي أصدر بحقه حكماً قاطعاً تبدأ صورته في التغير نحو الأسوأ في عيني مع الوقت، أو يظهر على عكس ما ظننته تماماً. عندها أقول لنفسي: ”معنى هذا أن انطباعي الأول خائني!“، لكنني وبعد مدة - قد تكون قصيرة أو طويلة جداً - أكتشف أن حكمي الأول كان

مصيباً، وأضطر فوق ذلك على قبول حقيقة كون المنطق كاذباً ومؤقتاً بسبب تعرضه للتأثيرات الخارجية والوقائع الخداعة.

الآن ولكي أعيش، أصبحت ماريا بودر الإنسان الذي أحتاج إليه بلا قيدٍ أو شرط. في أول اللحظات كنت أشعر بغرابة هذا الشعور. كيف لي أن أشعر فجأةً بهذا القدر من الحاجة إلى إنسان لم أكن أعرف بوجوده حتى؟ لكن أليس هذا هو الحال أبداً ودائماً؟ ألسنا لا نكتشف حاجتنا الملحة لأشياء كثيرة إلا عندما نراها ونتعرف عليها؟ حتى أنا، بدأت بالشعور بأن فراغ حياتي من هدف أو معنى إلى هذا اليوم كان بسبب حرمانني من هذا الإنسان فقط. فانزوائي عن الناس وهروبي منهم وتخوفي من أن أشعر أياً ممن كان حولي بأي ذرةٍ من ما كان يختلجه صدري، كان ذلك يبدو لي سخيلاً وغير ضروري. كنت أخاف أن تكون هذه الأحزان التي تلفني من وقت لوقت، والسأم من الحياة من أعراض مرضٍ نفسي. وعندما كنت عقب استغراقي في قراءة كتاب ما لساعتين ألاحظ بأن هاتين الساعتين كانتا أكثر أهمية وثقلاً من سنواتٍ كثيرة في حياتي، يراودني التفكير في العدمية المروعة لحياة الإنسان وأقع في يأسٍ محبط.

لكن من الآن فصاعداً تغير كل شيء. منذ اللحظة التي رأيت فيها لوحة هذه المرأة قبل حوالي أسبوعين أحسست بأنني عشت أكثر من كل سنوات حياتي. كل أيامي، كل ساعاتي، بل وحتى منامي كان ممتلئاً عن آخره. لم تكن أطرافي هي التي تتعبني فقط، بل مباشرةً روحي بالحياة وبكل هذه القوة أشعرتني بالتعب أيضاً، وظهور المناظر الجذابة والبديعة الجمال التي

تشكّلت بخروج مكنونات ما كبت في صدري وبهذه الفجاءة من دون علمي إلى الوجود.

أعلمتني ماريابودر بوجود روح لدي. وحتى أنا، لأول مرة أشعر بوجود شخص له روح من بين كل الناس الذين صادفتهم. من المؤكد أن لكل الناس أرواح خاصة بهم، لكن كثيراً منهم لا يستوعبون ذلك، وسيعودون إلى المكان الذي جاؤوا منه قبل أن يعوا ذلك أيضاً. بمجرد أن تجد الروح ما يشابهها، ومن دون حاجة إلى حساباتنا واستشاراتنا، تخرج نفسها وتظهر على السطح. ولانبدأ إلا وقتها فقط بالعيش الحقيقي، - وذلك أن نعيش مع أرواحنا - . في ذلك الوقت يُترك كل ترددنا وخجلنا جانباً، لتتواضع الأرواح مع بعضها، ساحقة كل شيء في طريقها، وهي تجري إلى من تتعلق به.

استحال كل خجلي وتحفظاتي عدماً. كنت أنتظر بفارغ الصبر لأسكب كل ما بنفسي بين يدي هذه المرأة. كل جوانبي الجيدة والسيئة، الضعيفة والقوية، ومن دون إخفاء نقطة واحدة حتى، ترافقها رغبة بأن أنشر روحي أمامها عارية. كم كان هناك كثير من الأشياء لأخبرها بها وأحكيها لها.. لو تكلمت طوال ما بقي من حياتي لما كفت لأكملها. لأنني بقيت طوال سنوات عمري الماضية صامتاً، ومقابل كل ما يمر بخاطري أقول لنفسي: "يارجل، ماذا سيحدث لو تكلمت؟". في الماضي كنت عند مصادفة أي شخص، ومن دون اعتماد على أي أساس عدا شعور لا يقاوم، كنت أقول لنفسي: "هذا لن يفهمني!"، لكن وفي هذه المرة، وبلا استناد على أي أساس أيضاً غير ذلك الإحساس الأول

الذي لا يخطئ قلت: ” نعم، هذه ستفهمني! “.

وصلت وأنا أمشي بخطى ثقيلة إلى قناة تمرّ بجنوب حي تير غارتان. من فوق الجسر هنا كان بيت ماريا بودر يبدو واضحاً من بعيد. الساعة لم تتجاوز الثالثة، وبسبب زجاج النوافذ العاكس لم أستطع تبيّن إذا ما كان هناك أحدٌ خلفها أو لا. نظرت إلى المياه الساكنة مقرباً إلى حافة الجسر. كانت قطرات المطر الخفيف البادئ منذ قليل تنزل عليه بلطف. وعلى بعد مسافةٍ لأبس بها كان هناك زورقٌ يفرغ حمولته من الخضار والفاكهة إلى العربات التي كانت على المرسى، والأوراق التي كانت تتساقط من الأشجار التي على جوانب القناة كانت تطير وهي تبرم في الهواء قبل أن تسقط. كم كان هذا المنظر السوداوي والمغموم جميلاً! كم كان الهواء الرطب الذي تنشقته منعشاً! أن تحيا، متأملاً أصغر اهتزازات الطبيعة، أن تحيا هو أن تراقب انسكاب الحياة ومضيها بمنطق لا يتزعزع. وتعرف بأن لحظةً ما قد تملأ عمراً كاملاً.. والأهم من ذلك، أن تؤمن بوجود إنسان ستحكي له كل ذلك، وأن تحيا وأنت تنتظر قدومه.

هل في الدنيا شيءٌ باعث للسرور والإنشراح أكثر من هذا؟ سنمشي بعد قليل سويةً في هذه الطرق المبتلة، وسنجلس في مكان منعزلٍ ومعتم وستقابل عيناى عينيها. سأحدثها عن أشياء كثيرة، أشياء لم أبح بها لأحدٍ حتى الآن، ولا حتى لنفسى. أكثرها كانت تولد في لحظة مفاجئة، وبسرعةٍ تثير دهشتى كانت تترك أماكنها لغيرها وتذهب. سأمسك يديها براحتى كفى، وأدفع أطراف أصابعها الحمراء الباردة بفرك لطيف. وبكلمةٍ واحدة، سأكون قريباً منها.

جاوَزت الساعة الثالثة والنصف. ”هل استيقظت ياترى؟“، قلت
لنفسي. هل من الصواب أن أذهب إلى مقابل منزلها وأتجول إلى أن تظهر؟
قالت بأنها ستكون منتظرةً في النافذة. هل ستخمن بأني أنتظر هنا؟ هل
ستأتي حقاً؟.. طردت هذا الشك من رأسي فوراً. شعرت بكون هذه
الفكرة التي تحمل عدم الثقة بها وظلماً لها، كنسفٍ للبناء الذي شيده
بنفسي. لكن الاحتمالات هذه كانت تتلاحق وتطارد بعضها بسرعة
كبيرة. قد تكون مريضة، أو ذهبت لقضاء شيءٍ ضروري. نعم هذا
أكيد. فقدوم سعادةٍ كبيرة جداً بهذه السهولة ليس بالشيء الطبيعي. مع
مرور كل دقيقةٍ كان اضطرابي يزيد أكثر، وقلبي يخفق بشدة أكبر. ما
مررت به ليلة الأمس كان مجرد صدفةٍ من الصدف التي يمر بها الإنسان
مراتٍ قليلةٍ في حياته. وانتظار تكرارها ليس صواباً أبداً. بدأ عقلي حتى
بإيجاد تعازٍ تواسيه. ربما لم يكن شيئاً جيداً لحياتي أن تسلك طريقاً جديداً
ومظلماً لا تبدو نهايته فجأةً هكذا. أليست عودتي لسكوني، والرضوخ
لأغلال أيامي المخدرة والبقاء فيها ستكون مريحة أكثر؟
عندما أدرت وجهي، رأيتها وهي تمشي قادمةً باتجاهي. على ظهرها
معطفٌ خفيف، وعلى رأسها قبعة زرقاء داكنة، ومرتدية لحذاء منخفض
الكعب. كان وجهها باسماً. وعندما وصلت إلى جانبي مدت يدها:

- ”هل انتظرتني هنا؟ منذ متى؟“ قالت.

- ”منذ ساعة!“

كان صوتي يرتجف من الحماس. ظننتُ بأني قلتها شاكياً، فقالت بعتابٍ
نصف مازح:

- ”أنت المخطئ، سيدي.“، وأكملت ”فقد انتظرتك لساعة ونصف الساعة. وأدركت قبل قليل صدفةً بأنك فضّلت مشاهدة هذا المنظر الشعري على أن تأتي لمقابل المنزل!“

معنى هذا أنها انتظرتني، وبالتالي فأنا أعتبر إنساناً ذا أهميةٍ بالنسبة لها. نظرتُ إليها بعيون قطة تتعرض للتمسيد قائلاً:

- ”شكراً!“

- ”على ماذا؟“

تلقت ذراعي من دون أن تنتظر جواباً:

- ”هيا لنذهب!“

بدأت بالمشي كتابع لها. كانت ترمي بخطوات قصيرة ولكن سريعة. كنت خائفاً من أن أسألها عن وجهتنا. لم نتكلم عن شيءٍ بينما كنا نمشي. رغم أني كنت مرتاحاً للسكوت جداً، إلا أني كنت آكل نفسي ظاناً بأنه يتوجب علي قول شيء ما. ليس هناك أية أثر لأية فكرة من الأفكار الجميلة والمهمة التي كانت تتابع في ذهني قبل قليل. ومع اجتهادي بالتفكير أكثر، أحسست كأن رأسي يفرغ من كل شيء ويصبح وضعه بائساً، ولم أشعر بكون دماغي أكثر من قطعة لحم تؤلم رأسي. وعندما نظرت إليها بطرف عيني، أدركت أن كل ما اعتراني من اضطرابٍ وهيجانٍ لم يترك عليها أثراً. كانت تمشي وعيناها السوداء وان مطرقتان إلى الأرض، ووجهها يعلوه سكون ثابت، وعلى طرف شفيتها انحناء يذكّر بابتسامة. تركت يدها اليمنى تستند على ذراعي بارتياح، وإصبع سبابتها المنتصب قليلاً كان وكأنه يشير إلى نقطة ما أمامنا.

وفي كل مرة أنظر إلى وجهها كنت أرى حواجبها مرتفعة وكأنها تفكر في شيء ما. في أجفانها كانت تظهر عروق زرقاء دقيقة، ورموشها السوداء الكثيفة ترتجف بخفة وتلمع عليها نقاط صغيرة من قطرات المطر، وكان معظم شعرها قد ابتل.

قالت ملتفتةً نحوي فجأة:

- "لماذا تنظر إلي بهذا التمعن؟"

خطر على بالي هذا السؤال في نفس اللحظة أيضاً: كيف حدث هذا؟ أن أنظر ومن دون أي تردد أو خوف، وربما لأول مرة في حياتي، في وجه امرأة وأدقق النظر لفترة طويلة من دون أن أفكر في فعلي هذا. وكيف لهذا أن يستمر إلى اللحظة، كيف لي حتى بعد أن سألتني ونظرت إلي لم أخسر جرأتي واستمررت بالتحديق فيها؟ قلت لها بشجاعة أذهلتني:

- "أيزعجك ذلك؟"

- "لا، ليس هذا السبب، سألت فقط. ربما أريدك أن تنظر ولذلك سألتك!"

كانت عيناها سوداوان وعميقة الدلالة لدرجة اني لم أتحمّل فسألت:

- "هل أنت ألمانية؟"

- "نعم، لماذا سألت؟"

- "شعرك ليس بأصفر ولا عيونك زرقاء!"

- "ربما!"

حدثت في وجهها حركة تشبه الإبتسامة المعتادة، ولكنها ظهرت مترددة نوعاً ما.

- "أبي كان يهودياً!"، قالت. "أمي الألمانية. لكن حتى هي ليست شقراء."

سألت بفضول:

- "معنى هذا أنكم يهود؟"

- "صحيح.. هل تعادي اليهود أنت أيضاً؟"

- "ما العلاقة؟! ليس عندي شيء من هذا القبيل. كل الموضوع أنني لم أتوقع ذلك!"

- "نعم، أنا يهودية. أبي من براغ. وقبل أن أولد تحول إلى الكاثوليكية!"

- "في هذه الحال أنتم تعتبرون مسيحيين!"

- "لا.. أعني أي شخصياً ليس لي علاقة بأي دين!"

مشينا مسافةً طويلةً. لم تكمل كلامها، ولا أنا سألتها سؤالاً آخر. اقتربنا ببطءٍ من أطراف المدينة. بدأ الفضول يجتاحني لمعرفة وجهتنا. لم نخرج لتتمشى في مثل هذا الجو على كل حال. كان المطر مستمراً في الهطول بنفس الغزارة. قالت ماريا في لحظة:

- "إلى أين نحن ذاهبون؟"

- "لا أعلم."

- "ألا تشعر بالفضول؟"

- "أنا تابع لك، أينما تريدون أذهب!"

قالت ملتفتةً إلي بوجهها الذي كان كوردة بيضاء غُطيت بقطرات الندى:

- "يا لسذاجتك. أليس لك فكر مستقل ورغبات خاصة؟"

استذكرت كلماتها بالأمس على الحال:

- "لقد منعني من طلب أي شيء منك!"

لم تجب. استطرذتُ بعد صمتٍ قصير:

- "أيعني هذا أنك لم تكوني جادة بالأمس؟ أو أنك غيرت رأيك اليوم؟"

- "لا! لا! أنا لا أغير رأيي!"

وغرقت في أفكارها مجدداً.

وصلنا إلى أمام حديقة كبيرة مسيجة. قالت وهي تحثُ خطاها:

- "ندخل إلى هنا؟"

- "ما هذا المكان؟"

- "حديقة نباتات!"

- "أنت أدرى!"

- "لندخل إذن. أجيء إلى هنا دائماً، حتى في أجواء ممطرة كهذه."

لم يكن هناك أحد بالداخل. تمسينا في الطرق الموحلة لمدة طويلة. جوانب

الطريق كانت ممتلئةً بأشجار كثيرة لم تتساقط أوراقها رغم فوات

مواسمها، وأحواض الماء الكبيرة الصخرية محاطةً بأنواع كثيرة من

أعشاب مختلفة الألوان، كان هناك أزهار وطحالب مائية أيضاً، ووجه

الماء تغطيه أوراق كبيرة. وبدخل بساتين الحمضيات المرتفعة تتواجد

نباتات المناطق الحارة ونباتات كثيفة صغيرة الأوراق. قالت ماريا:

- "هنا أجمل مكان في برلين. في هذا الموسم أستطيع القول بأنه خالٍ

لا يأتيه أحد.. ثم إن هذه الأشجار الغريبة تذكرني دائماً بأوطانها

وتجعلني أتأسف وأتوجع لها. عندما أراها بعد أن اجتثت من الأرض التي اعتادت عليها، وأحضرت إلى هنا وهم يحاولون إبقائها حية تحت ظروفٍ غير طبيعية أحزن عليها بعض الشيء. أتعلم؟ في مئة يوم من أيام السنة تكون برلين مشمسة وجوها صحو، ومغيمة قائمة في مئتين وخمس وستين يوماً. أستطيع إضاءة البساتين وشموسها الصناعية إشباع حاجة أوراق الأشجار التي اعتادت على الضوء والجو الحار؟ رغم ذلك فإنها تعيش ولا تجف. لكن يمكن القول عن هذه المعيشة بأنها حياة؟ ألا يعتبر فصل كائن حي عن بيئته المناسبة له، وجعله تابعاً تحت هذه الظروف الفظيعة لإرضاء بعض الفضوليين نوعاً من أنواع التعذيب؟“

- “لكنك أنت أيضاً أحد الفضوليين.“

- “صحيح، لكن في كل مرة أجيء فيها إلى هنا يغمر داخلي حزن عميق!“

- “لماذا تأتين إذن؟“

- “لا أعلم!“

جلست على أحد المقاعد المبتلة. جلست بدوري إلى جانبها. قالت ماسحةً حبات المطر عن وجهها:

- “مشاهدي لهذه النباتات هنا تجعلني أفكر في نفسي. ربما أتذكر أجدادي الذين عاشوا قبل عصورٍ مع هذه الأشجار والأزهار الغريبة في نفس المكان. ألسنا نحن أيضاً مثلهم؟ انتشلنا من أماننا وفرقنا؟ لكن هذا لا يهكم.. بالأصح هو لا يهمني أنا كثيراً أيضاً، لكن تفكيري في أشياء

كثيرة يمكنني من عيش أشياء كثيرة داخل عقلي. سترون، فأنا إنسانة أعيش في داخل رأسي أكثر مما أعيش في العالم الخارجي. في الحقيقة، حياتي ليست بأكثر من حلم ممل. ربما وجدتم عملي في الأتلانتيك محزناً، لكنني لست واعية حتى لكونه أو عدم كونه ذلك. أحياناً يكون مسلياً لي حتى.. أنا لا أعمل هناك إلا لأجل أمي، فأنا مجبورة على الاعتناء بها. العيش على ما أكسبه من بيع لوحاتي التي أرسمها في السنة لا يكفي. هل لكم خبرة في الرسم؟“

- ”قليلاً!“

- ”لماذا لم تستمروا؟“

- ”لم أحس بأني مستعد لذلك!“

- ”لا يمكن! كانت تعابير وجهك وأنت تشاهد اللوحات في المعرض تظهر استعدادك لذلك. فهمت بأنك لست بجريء، جرب. فليس من الجميل أن يكون هناك رجلٌ جبان إلى هذه الدرجة. أقول هذا لمصلحتك. عندما يتعلق الأمر بي، فعندي الشجاعة لفعل ذلك. أريد الرسم وعكس أحكامي على الناس على الورق، وربما أنا ناجحةٌ في ذلك، لكن هذا جهد فارغ أيضاً. لا يمكن للناس الذين أستخف بهم فهم ما أفعله، والذين يستطيعون الفهم لا يستحقون الاستخفاف بهم أصلاً. في هذه الحال، ومثل ما هو الوضع في كل الفنون، فالرسم فنٌ بلا مُتلقٍ معين، يعني ذلك أنه عاجز عن مخاطبة من يقصده في الأصل. ورغم هذا فإنه العمل الوحيد الذي آخذه على محمل الجد في هذه الدنيا. لهذا لا أريد العيش على ما أكسبه من الرسم. لأنني لو

فعلت ذلك، فسأفعل ما يريد غيري مني، لا ما أريده أنا، لا، أبداً،
إني أفضل أن أعرض جسدي في السوق على أن أفعل ذلك، لأنني أرى
جسدي بلا أهمية.

ضربت ركبتي وقالت:

- ”هكذا يا صديقي العزيز، مانفعله نحن أيضاً ليس بالشيء المختلف
كثيراً. كنت موجوداً البارحة عندما قبل ظهري أحد المخمورين، أليس
كذلك؟ يقبل طبعاً، من حقه، إنه يصرف ماله لذلك. يقولون أيضاً أن
ظهري جذاب، هل تريد تقييله أنت أيضاً؟ أمعك نقود؟“

تسمرت مكاني وكأن في لساني عقدة. وبدأت عيناى ترمشان بسرعة
وأسناني تعض على شفتي. عندما لاحظت ماريا ذلك عبست وأصبح
وجهها شاحبا أكثر من أي وقت مضى، قالت ووجهها كالجص:

- ”لا، لا أريد هذا ياسيد رائف. قطعاً. فأكثر شيء لا أستطيع تحمله
هو الشفقة. في اللحظة التي أشعر أنك أشفقت فيها علي، سأقول مع
السلامة! لن ترى بعدها وجهي حتى.“

وعندما رأت تفاجئي وكوني أنا من يستحق العطف، رمت بذراعها على
كتفي:

- ”لا تفعل من كلامي! علينا ألا نتردد من التحدث صراحةً عن أشياء
قد تنغص علينا صداقتنا في المستقبل. الجبن في مثل هذه المسائل مضر.
ماذا سيحدث؟ إذا أدركنا عدم إمكانية تفاهمنا، توادعنا وافترقنا.. هل
هذه مصيبة عظمى؟ ألا تقبل بحقيقة أن كون الشخص وحيداً في هذه
الحياة هو الطبيعي؟ كل التقاربات وشتى أنواع الترابط كاذبة، فالناس

يستطيعون الاندماج مع بعضهم إلى حد معين فقط، وما غير هذا فهو تصنع؛ وفي يوم من الأيام وعندما يدركون أخطائهم، يتركون كل شيء ويهربون بسبب يأسهم. لكن لو أنهم اقتنعوا بما هو ممكن فقط، وتراجعوا عما اعتقدوا في عقلهم بأنه الحقيقة لما كان لهذا أن يحصل. عندما يقبل الكل بما هو طبيعي، لن تبقى أية خيبة أمل أو انكسار. كلنا نستحق الأسف والشفقة في حالنا هذا؛ لكننا يجب أن نكون نحن من نشفق على أنفسنا، فالعطف والشفقة على غيرك تعني أنك تعتقد بأنك أقوى منه، وما هو حقنا في أن نرى أنفسنا كباراً، أو في أن نرى غيرنا بؤساء؟ أأنذهب الآن؟“

اعتدلنا واقفين، نفضنا عن ملابسنا ماعلق بها من قطرات المطر، كان الطين اللزج الملتصق بأحذيتنا من الاسفل يسبب صوتاً غريباً. بدأت الشوارع تكتسي بالظلام، لكن أعمدة الانارة لم تضيء بعد. كنا عائدين كما أتينا، بخطوات مسرعة مارين من نفس الشوارع. في هذه المرة كنت أنا من أدخل يدي في ذراعها، ملتصقاً بها كطفل صغير، وملصقاً وجهي بها. في داخلي حالٌ غريبٌ يتردد بين الحزن والبهجة، مع رؤيتي أن كثيراً من أحاسيسها وأفكارها تتشابه مع أحاسيسي وأفكاري يجعلني أشعر باقترابنا لبعضنا بقوة أكبر وأبتهج؛ لكن إدراكي كونها ستفترق عني في نقطة ما، وفهمي كونها لا تريد إخفاء الحقائق عنها أو التعرض للخداع أبداً، يبقيني خائفاً. كان هنالك حس غامض يهمس لي بأنك إذا رأيت أحداً - كائناً من كان - على حقيقته، ولم تحف مارأيته عن نفسك فلن تستطيع الاقتراب منه مجدداً أبداً.

لكنني لم أرد أن أكون أحد محبي الحقيقة. كنت مدركاً بأنني لن أتحمّل أي حقيقةٍ قد تبعثني عنها. بعد عثورنا على أهم وأغلى الأشياء الموجودة فينا من أجل أرواحنا، أليس تجاهل التفاصيل، أو بتعبير أصح، التضحية بالحقائق الصغيرة من أجل الحقيقة الكبرى أكثر إنسانية وإنصافاً؟

من المؤكد أن سبب تفكير هذه المرأة بهذه الطريقة وكونها محقة بخصوص كل شيءٍ وسليمة الحكم على ما حولها هو تأثيرها بتجارب الحياة المرة وتأثيرات محيطها المفسدة. فبسبب عيشها بين أناس لا تريدهم ولا يعجبونها، وكونها مجبورة على الابتسام والضحك لهم، كانت تقع في انفعال عميقٍ وتشتبه في كل الناس. بينما في حالتي، ولكوني مبتعداً عن الناس طوال عمري، ولم أتعرض لمضايقاتٍ كثيرة منهم فلم يكن بي حنقٌ على أحد. ما كان يضايقني فقط هو شعوري بالوحدة، وبسبب تأثيرات هذه الوحدة فأنا مستعد لخداع نفسي في نقاط كثيرة مقابل الإنسان الذي أحسست بالقرب منه.

وصلنا إلى أواسط المدينة. الشوارع مزدحمة ومضاءة. كانت ماريا بودر غارقةً في التفكير ومحزونة قليلاً. سألتها بخوف:

- "هل أزعجك شيء ما؟"

- "لا!،" أجابت. "لم يحدث شيء يزعجني. بل أنا سعيدة بهذه النزهة. سعيدة على كل حال.."

كان جلياً أنها كانت تفكر في أشياء أخرى وهي تتكلم، ففي نظراتها التي كانت تلتفت لي بين كل حين وآخر حالٌ سارحٌ، وفي ابتسامتها غرابةً مقلقة. في لحظة توقفت وسط الطريق.

- "لا أريد الذهاب للبيت!" قالت. "هيا، لنأكل سوياً في مكانٍ ما، ونتكلم إلى أن يحين موعد عملي!"

قابلت هذا العرض الغير المتوقع بحماسٍ شديد، لكنني عندما رأيت أن حالي هذا سيجعلها تتوحش أكثر هدأت نفسي ونظرت أمامي. دخلنا إلى مطعم كبير في غرب المدينة، لم يكن داخله مزدحماً جداً. في أحد زواياه امرأةٌ بافاريةٌ ترتدي زياً شعبياً وتعزف موسيقى صاحبة على الأوركسترا. جلسنا على طاولةٍ في الركن وأكرمناها طعاماً وشراباً.

انتقل إلي أيضاً وجوم وهدوء ماريّا. في داخلي قلقٌ وشعور تحطم ليس له دافع. عندما لاحظت المرأة ذلك علي حاولت التخلص من أفكارها والإبتسام لي وتسلّيتي. ضربت بيدها يدي المسندة على الطاولة:

- "لماذا تعبس؟ في العادة يكون الخارجون لتناول الطعام مع امرأةٍ لأول مرةٍ مبتهجين وثرثارين!"

قالت مازحةً، لكن عدم تصديقها لما تقوله هي كان واضحاً، فأخذت على إثر ذلك وضعها السابق بسرعة. تمشت بعينها في المكان لا لشيء إلا لتكون قد فعلت شيئاً ما. احتست عدة جرعاتٍ من الشراب أمامها ثم حولت نظرها إلي فجأة:

- "ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ لا أستطيع أن أصبح شيئاً آخر، لا أستطيع أن أتغير!"

ما الذي كانت تعنيه؟ لم أستطع تفسير كلامها إلا بشكل سلبي. أحسست بأن الشيء الذي قالت بأنها لا تستطيع فعله أصبح يزعجني أنا أيضاً، لكنني لم أستطع استيضاح ماهيته أو معرفته بعد.

عينها تريدان التعلق بكل شيءٍ تقعان عليه، ويبدو أنها بالكاد كانت ترفعهما عما تنظران إليه. أثناء جلوسنا كانت تسري في وجهها الناصع كيباض اللؤلؤ رعدات خفيفة لا تكاد تبدو للعيان. قالت فجأة بصوت به ارتعاش شديد وهيجان بالكاد يُضبط:

- ”إياك أن تزعل مني. سيكون كلامي معك بصراحة شديدة أفضل لكيلا تقع في أمانٍ وآمالٍ فارغة. لاسيء فهمي ولا تزعل مني. بالأمس أتيت إليك، وطلبت منك مرافقتي إلى منزلي، واليوم عرضت عليك أن نتزّه سويةً، وفي المساء عرضت عليك تناول العشاء معاً، وكأنني أصبحت مربوطة بك. لكنني لا أحبك. هذا كلّ ما كنت أفكر فيه.. لا، حتى أنت لا أحبك. ماذا أفعل؟ ربما أجدك لطيف بالفعل، بل وجذاب أيضاً. ربما أرى فيك جوانب مختلفةً أو غير موجودة عند كل من عرفتهم من الرجال، فقط إلى هذا الحد. فالكلام معك، والتحدث عن أشياء كثيرة، والنقاش، والجدال... فالخصام، والاعتذار والتصافي من جديد، كل هذا سيجعلني مسرورة بالتأكيد.. لكن الحب؟ لا أقدر على ذلك. أعتقد أنك تريد معرفة سبب قولي هذه الأشياء الآن؛ كما قلت، لا تنتظر مني شيئاً في المستقبل فيخيب أملك وتسخط علي. أنا أعلمك من الآن بما أستطيع منحه لك حتى لا تزعم بأني خدعتك وتلاعبت بك في المستقبل: مهما كنت مختلف في طباعك، ففي النهاية أنت رجلٌ أيضاً. وكل من عرفتهم من الرجال عندما علموا ذلك، أعني عدم حبي لهم، عدم استطاعتي لحبهم، هجروني بتأثر كبير، بل وحدة شديدة أيضاً.. هكذا، مع السلامة.. لكن لماذا اعتقدوا بأني المذنبة؟ أنا لم أعدهم

بشيء قط، ألا أنني لم أستطع أن أعطيهم ماتخيلوه في عقولهم فقط؟ أليس هذا ظلم؟ أنت أيضاً لا أريد منك التفكير بتلك الطريقة عني، يمكنك تسجيل هذه كنقطة لصالحك.

أصابني الذهول. لكنني قلت محاولاً ضبط نفسي:

- "ما لزوم كل هذا الكلام؟ طبيعة صداقتنا لا أصيغها أنا، بل أنت.

ليكن ماتريدين أنت!"

اعترضت بشدة قائلة:

- "لا، أبداً، هذا لا يصلح. انظر، هل رأيت؟ أنت أيضاً مثل كل

الرجال، تجعلون كل شيء يخضع لإرادتكم متظاهرين بأنكم أنتم من

يذعن لكل الشروط. لا يا رفيق! لا تُحلّ المشاكل بمثل هذه العبارات

المسكّنة. فكر في هذا، ليكن هذا الموضوع ضدّي أو ضد غيري، فدائماً

ورغم محاولاتي لإبداء رأيي صريحاً بلا رياء، إلا أنني لا أصل إلى نتيجة

أبداً. علاقات النساء والرجال معقدة جداً، ورغباتنا ومشاعرنا غامضة

وضبابية لدرجة أن لا إنسان يعلم ما يفعله تماماً، الكل يذهب منجرافاً

مع التيار. أنا لا أريد هذا.. ففعلي لأشياء لست مقتنعة بها، يجعلني

صغيرة حينما أفكر في ذاتي. الشيء الذي لا أتحمله بالذات هو كون

المرأة مجبورة على الهدوء والطاعة أمام الرجل دائماً. لماذا؟ لماذا نهرب

نحن دائماً وأنتم تلاحقوننا؟ لماذا نحن المسلمّين دائماً وأنتم المستلمين؟

لماذا حتى في رجاءاتكم لنا لكم هيمنة وتحكم، وفي رفضنا عجز؟ منذ

طفولتي وأنا متمردة على ذلك، لم أستطع تقبله إطلاقاً. لماذا أنا هكذا،

لماذا النقطة التي لا تعيها حتى معظم النساء تبدو مهمة لي بهذا القدر؟

فكرت في هذا كثيراً. هل هناك جانب طبيعي في شخصيتي يا ترى، أقول لنفسي. لا، على العكس، ربما لأنني عادية أكثر من كل النساء، فلهذا أنا أفكر في ذلك. لأن حياتي وبمحض مصادفة، مرّت بعيداً عن التأثيرات التي تعود النساء على رؤية أقدارهم الطبيعية. توفيّ أبي وأنا صغيرة، فبقيت أنا وأمي في البيت لوحدها. كانت أُمِّي تمثل إحدى النساء اللاتي اعتدن على أن يكنّ تابعاتٍ، معتاداتٍ على الطاعة. فقَدَت الإعتياد على المشي وحدها في الحياة، بل من الأصحّ قول أنها لم تنله أبداً في حياتها. بدأت أنا بإدارتها رغم كوني صغيرة في السابعة من عمري. أرشدتها، لقتها الصواب والخطأ، وكنت داعماً لها. وهكذا كبرت من دون هيمنة ذكر، أعني كبرت طبيعية. في المدرسة كان تمسكُن الفتيات وتصرفاتهنّ تقززني. لم أتعلم أي شيء يجعل الذكور يعجبون بي، إطلاقاً. لم يحمر وجهي في مقابلهم، ولم أنتظر منهم مجاملةً أو مغازلةً أبداً. هذا الحال حكم عليّ بوحدة فظيعة. حتى صديقاتي يجدن صعوبة في تقبل آرائي، فهي لا تعجبهن ولا تريحهن. يفضلون، بل ويجدونّه أبسط وأكثر جاذبية أن يكونوا مجرد دميّ يلعب بها بلطف على أن يصبحوا كاملي الآدمية. لم أستطع مصادقة الذكور. عندما يكتشفون أنني لست باللقمة السائغة الناعمة التي يبحثون عنها، يفضلون الهرب على أن يشعروا بأنني أمثل قوة مساوية لهم. وقتها أدركت ماهية وحقيقة عزم وقوة الذكور تماماً، ليس في الدنيا أي مخلوق يركض خلف الإنجازات السهلة ولا يوجد أي مخلوق مغرّبٌ ومعجّبٌ بنفسه كالذكر، وفي نفس الوقت جبانٌ ولا يهتم إلا براحته. من بعد أن أدركت ذلك أصبح حبي

للرجال مستحيلاً بالفعل. حتى الرجال الذين أعجبت بهم كثيراً، ورأيت بأنهم يشبهونني في خصائص عديدة، وبأبسط الطرق، رأيتهم يظهرن أنياب الذئاب؛ فبعد رفقتنا التي أمتعتنا سوياً بنفس الدرجة، أراهم يحاولون الإعتذار إليّ والمحافظة على علاقتنا، وفي نفس الوقت يجلسون بجانبني تعلوهم نظرات أحمق يظنّ بأنه انتصر بشكل أو بآخر. لكنهم هم من كان حالهم يؤسف فعلاً، هم من كانوا يُظهرون بؤسهم إلى العلن. فليس هناك أي امرأة مثيرة للسخرية وعاجزة بقدر ما يكون رجلٌ طموحٌ. لكن ورغم ذلك يظنون أن هذه الأحوال هي من مظاهر القوة لدرجة تجعلهم مغرورين جداً. يا إلهي، الإنسان يُجنّ حينها يرى ذلك. رغم أني متأكدة من عدم وجود ميول غير طبيعية فيّ، إلا أني أفضل أن أقع في حب امرأة.

سكنت قليلاً ثم دقت النظر في وجهي. شربت قليلاً من الخمر. ومع استرسالها في الكلام كان يبدو أنها ترتاح وتتخلص من همها أكثر. - "مالذي فاجأك؟"، قالت مكملة. "لا تخف، فلست كما تظن. لكن ليتني أكون كذلك. سأكون قد فعلت شيئاً يحطّ من روح الإنسان أكثر. لكنني رسامة، تعلم.. لي معايير جمال خاصة بي. لا أجد تبادل الحب مع امرأة شيئاً جميلاً. كيف أعبر لك؟ لا أراه جمالياً. في النهاية أنا أحب الطبيعة، وأتصرف بتردد تجاه كل ماهو غير طبيعي. بالتالي أو من بأن عليّ أن أحب رجلاً في النهاية. لكن ليس أي رجل، رجل حقيقي، رجلٌ يستطيع جذبني إليه بلا اعتماد على أي قوة، ومن دون أن يطلب مني أي شيء، من دون أن يتسلط علي. رجلٌ يحبني ويمشي إلى جانبي من دون

أن يدلني. أعني قوياً حقاً، رجلٌ بمعنى الكلمة. هل تفهم الآن لماذا لا أحبك؟ لم يمض وقت كاف ليحصل حبُّ أصلاً، لكن لست أنت ما أبحث عنه. مع أنك في الواقع ليس بك ذلك الكبر الذي تحدثت عنه، لكنك في كثير من النواحي تبدو كطفل، بل أكون دقيقة أكثر لو قلت كامرأة. مثل أمي تماماً، تبدو كمن يحتاج شخصاً ليقودك. أستطيع أن أكون ذلك الشخص إذا أردت، لكن لا أكثر من ذلك. نستطيع أن نكون صداقة رائعة. أنت أول رجلٍ ينصت إليّ دون أن يحاول مقاطعتي، أو يغير رأبي، أو يقنعني بشيء ما. يتضح لي من نظرتك أنك تفهمني.. كما قلت لك، نستطيع أن نكون رفاقاً في غاية الروعة. كما تحدثت أنا معك بصراحة تستطيع أنت أيضاً أن تخبرني عما بداخلك. هل هذا قليل؟ أم إضاعة هذا أيضاً بالطبع في المزيد أفضل؟ لا أريد ذلك أبداً. قلت لك مساء البارحة أيضاً أن لي أحوال تناقض بعضها، لكن لا يجب لذلك أن يسوقك لأفكار خاطئة. ففي النقاط الرئيسية أنا لا أغير أبداً. ما رأيك؟ هل نصبح أصدقاء؟..“

أبقاني كل كلامها هذا مبهوراً. كنت خائفاً من إصدار حكمي الأخير بحقها وشاعراً بأنه لن يكون مصيباً. كانت هناك رغبة واحدة في عقلي: أن أكون قريباً منها، وألا أنفصل عنها، وليكن الثمن ما يكون. لا تهمني البقية. لم أعتد أن أطلب من أي إنسان أكثر مما أعطاني. رغم ذلك كان في داخلي وجومٌ غريب. نظرت في عينيها السوداوين اللتين كانتا تنتظران جواباً وقلت بصوتٍ ثقيل:

– ”ماريا، أتفهمك تماماً. أرى أن تجاربك الحياتية ساقطت لقول كل هذه

الإيضاحات، وأشكرك لفعلك ذلك منعاً لأي شيء قد يهز صداقتنا فيما بعد. معنى هذا أن للصداقة هذه قيمة لديك.“
هزت رأسها مصادقةً على كلامي، فأكملت:

- ”ربما لم يكن هناك ما يدعو لقول هذا كله. لكن من أين لك أن تعرف؟ فنحن لم نتعرف على بعضنا إلا منذ فترة بسيطة. الإحتياط واجب. ليست لي تجاربٌ في هذه الحياة بقدر تجاربك، لم أتعرف إلا على أناسٍ قليلين وعشت دائماً مع نفسي. أرى أننا ورغم سلوكنا طرقاً مختلفة، إلا أننا وصلنا لنفس النتيجة: كلانا يبحث عن إنسان بعينه. إذا وجدنا هذا الإنسان في بعضنا فسيكون ذلك ممتازاً. هذا هو أهم شيءٍ في الحقيقة، وكل المسائل المتبقية تعتبر من الدرجة الثانية. مجيئاً إلى علاقات الرجل والمرأة، تستطيع التأكد من أي لن أكون في أي وقتٍ رجلاً يستحق الخوف منه. رغم أي لم تكن لي أي مغامرات نسائية، إلا أنه لا يخطر على بالي أبداً أني أستطيع أن أحب إنساناً لا أقدره وأجده قوياً مثلي. تحدثت عن الإذلال قبل قليل، الذكر الذي يسمح لكل ذلك بالحصول ينكر شخصية ذاته، وفي الحقيقة يذل نفسه. أنا أيضاً مثلك أحب الطبيعة وكل ما هو طبيعي، بل أستطيع أن أقول أيضاً أنني بقدر ما أبتعد عن الناس أكثر فإني أقرب من الطبيعة. وطني هو من أجمل أماكن الدنيا. كثيرٌ من الحضارات التي درسناها في التاريخ نشأت واندثرت هناك. كنت وأنا أضطجع تحت أشجار الزيتون المعمرة لعصورٍ طويلةٍ أفكر في الناس الذين جمعوا محاصيلها قبلي. في الجبال المكسوة بأشجار الصنوبر، رأيت جسوراً رخاميةً وعواميد مزخرفة في أماكن كان يُعتقد أنه لم

تدسها قدم إنسان. هؤلاء كانوا أصدقاء طفولتي ومواضيع خيالاتي، منذ ذلك الوقت وأنا أقدم الطبيعة ومنطقها على كل شيءٍ آخر. لنر، لتمشٍ صداقتنا في طريقها الطبيعي أيضاً. دعينا لا نضع لها إتجاهاتٍ صناعية، أو نربطها بقراراتٍ مسبقة!“

ضربت ماريًا بسبابتها يدي التي كانت على الطاولة:
- ”لست طفلاً بالقدر الذي ظننت!“، قالت.

عينها حائرة ومترددة تتجول في وجهي. شفتها السفلى والتي كانت مكتنزة برزت إلى الخارج أكثر، وهكذا أخذت حال طفلةٍ صغيرةٍ على وشك البكاء. وعلى عكس ذلك، كانت عينها مفكرةً باحثة. أذهلتني قدرة وجهها على التغير وأخذ تعابير عديدة في زمن قصير.

- ”هل لك أن تحكِ لي أشياء كثيرة عن حياتك، ووطنك، وأشجار زيتونك؟“، هكذا بدأت بالكلام. ”وأنا أحدثك عن طفولتي وبعض الأشياء التي أتذكرها عن والدي. لا أعتقد أننا سنواجه صعوبة في إيجاد موضوع لتكلم فيه، لكن المكان هنا صاحبٌ جداً. ربما كان سبب ذلك أن الصّالون خالٍ. المساكين يريدون أن ينتشي المدير بموسيقاهم على الأقل. أخ، لو تعلم معنى أن تكون مديراً هنا!“
- ”هل هم فظون جداً؟“

- ”ولأي درجة تتخيلها! هذه أيضاً أحد طرق التعرف على حقيقة الرجال عن قرب. فمثلاً مدير الأتلاتيك رجلٌ طيبٌ جداً، لكن ليس مع زبائنه، بل مع كل امرأةٍ ليس له بها علاقة مدير وموظف. من المؤكد أنني لو لم أكن أعمل في ناديه الليلي لعاملني بلطف النبلاء

وأذهلني بلباقته، بيد أنه يتغير في مواجهة الناس الذين يتلقون مالاً منه ويطلق على تصرفه عبارة ”أخلاقيات العمل“. لو قال أخلاقيات الكسب“ لكانت العبارة أبلغ وأصدق. لأن الناس الذين يندفعون إلى الظلم وأحياناً إلى قلة الأدب، يغلب عندهم الخوف من التعرض للخيانة والخداع على الرغبة في الحفاظ على جدية مؤسساتهم. هذا الرجل الذي من المحتمل أن يكون أباً لعائلة أو مواطناً مخلصاً، لو ترى كيف أنه لا يطلب منا أن نبيع أصواتنا، ضحكاتنا، وأجسادنا فقط، بل إنسانيتنا أيضاً لا قشعر جلدك.“

قطعت حديثها مغيراً دفة الحديث:

– ”بماذا كان يعمل والدك؟“

– ”ألم أخبرك من قبل؟ كان محامياً. لماذا سألت؟ أكان تفكيرك فيما أوصلني إلى هذه الحال هو السبب؟!“
لم أنطق.

– ”بيدو أنك لم تتعرف على ألمانيا جيداً بعد. ليس هناك ما يثير التعجب في حالي. أكملت دراستي بالمال الذي تركه أبي خلفه. لم يكن وضعنا بالسيء، وفي أثناء الحرب عملت كممرضة أعنتني بالجرحى ثم أكملت إلى الأكاديمية. ذهب دخلنا الضئيل ضحية التضخم، وأصبحت مجبورة على التكبسب. لست متدمرة من ذلك، فالعمل ليس بشيء سيء أبداً. ما كان يثير حنقي هو عدم تقبل طلبنا للعمل من دون إهانتنا نفسياً. ثم أيضاً يزعجني أن أكون مجبورة على التعامل مع سكارى وأناس جائعين للحم البشري. أحياناً تكون لهم نظرات.. لا أكتفي بأن أقول عنها

حيوانية، ولو كانت بذلك القدر لكان معقولاً.. لكنه شيءٌ أخط من الحيوانية. شيءٌ مقرف...“

تجولت بنظرها في المكان. صخب الأوركسترا كان قد تضاعف أكثر وأكثر. المرأة البدينة المرتدية للزّي البافاري والتي يشبه شعرها ظفائر الذرة كانت تغني أغانيً جبليّةٍ مرحةٍ بصوت عالٍ، تُخرج من جوفها أصواتاً عجيبةً وهي تدور حول نفسها.

قالت ماريّا: ”هيا لنرّ، لنجلس في مكانٍ هادئ... فما زال الوقت مبكراً!“. ثم حدقت في وجهي بدقة وقالت:

- ”أوربما ضجرت مني؟ منذ الصباح وأنا أجرجرك من مكانٍ إلى مكانٍ وأزعجك بثرثرتي. كون النساء لصيقات بهذا القدر ليس بشيءٍ جيد. أنا جادة، إذا شعرت بالضجر فسأتركك تذهبن!“

أمسكت بيديها. لم أستطع أن أجبها لمدة طويلة. لم أنظر حتى إلى وجهها. فقط عندما تأكدت من أنها فهمت ما يدور بخلدي قلت:

- ”أنا ممتنٌ لك!“

- ”وأنا أيضاً!“، قالتها وسحبت يداها.

وعند خروجنا إلى الشارع قالت:

- ”تعال، لنذهب إلى مقهىٍ قريبٍ من هنا!“

- ”إلى مقهى رومانيسشه؟“

- ”نعم، أتعرفه؟ هل ذهبت إليه من قبل؟“

- ”لا، سمعت به فقط!“

ضحكت قائلةً: ”من أصدقائك الذين لا يحل آخر الشهر إلا وهم

ابتسمت ونظرت أمامي.

سمعت عن هذا المقهى الذي يُعد وجهة للفنانين في كل الأوقات بأن لياليه، وابتداءً من الساعة الحادية عشرة، تمتلئ بالمسنيين وهواة الفن، والفضوليين الشبان، ونساء الليل والقوادين من كل الجنسيات والأعمار، وهم يحاولون جذب الأنظار. ولقدومنا إلى المقهى في ساعة مبكرة لم يكن بها إلا فنانون شبان. جالسون في مجموعات هنا وهناك، ويتناقشون بأصواتٍ مرتفعة. صعدنا على درجات سلم من بين الأعمدة إلى الطابق العلوي. وبشق الأنفس وجدنا طاولةً فارغةً.

حولنا رسامون شبان يقلدون في هيئتهم الفرنسيين بقبعاتهم الواسعة وشعورهم الطويلة، ومحرروا صحفٍ إخبارية في أفواههم غليونات، يكتبون أوراقاً بأصابعهم ذات الأظافر الطويلة. جاء إلينا شابٌ طويل القامة، أشقر، وذو عارضين طويلين بعد أن أشار إلينا من بعيد.

”مرحباً، مادونا صاحبة معطف الفرو!“ قالها ممسكاً رأس مارييا بين يديه؛ قبل جبهتها ثم خديها.

أطرقت برأسي إلى الأرض وانتظرت، تحدثوا عن أشياء مختلفة، فهمت بأنهم كانوا قد عرضوا أعمالهم في نفس المعرض. وأخيراً شدّ الشاب على يد مارييا وصافحها مودعاً وقال لي:

”في أمان الله أيها السيد الشاب!“، يبدو أنه حياني على طريقة الفنانين وذهب.

مازلت ناظراً أمامي. سألت مارييا:

- "بماذا تفكر؟"

- "خاطبتني بصيغة المفرد، ألاحظت ذلك؟"

- "نعم. ألا تريد ذلك؟"

- "ولم لا؟ شكراً!"

- "أف! الشكر لك كثيراً!"

- "نحن الشرقيون لبقون جداً. أتعلمين بم كنت أفكر؟ أن ذلك الرجل

قبلك ولم أشعر بأي غيرة."

- "أصحيح ذلك؟"

- "أتعجب من عدم شعوري بالغيرة!"

تبادلنا النظرات لمدة بكل ثقة.

- "حدثني عن نفسك قليلاً." قالت.

هزرت رأسي موافقاً. طيلة اليوم وأنا أفكر في أشياء أحدثها عنها،

لكنني لا أجد أيًا منها في ذاكرتي الآن. كانت تمر بعقلي أشياء جديدة.

في النهاية قررت الكلام بطريقة ارتجالية. لم أكن أتحدث عن موضوع

معين. تحدثت عن طفولتي، خدمتي العسكرية، ما قرأت من الكتب،

وخيالاتي، وجارتنا فخريّة، ومن كنت أعرفهم من قطاع الطرق. كل ما

كنت أخشى قوله عن نفسي لنفسي حتى، كان ومن دون سابق إنذار،

يخرج من مكانه التي يختبئ فيها ويندفع إلى الخارج. كنت ولأني أتحدث

عن نفسي مع إنسان آخر لأول مرة، أريد أن أرى بكل عربي، ومن دون

أن أعطي أي شيء. كنت أجاهد نفسي محاولاً عدم الكذب أو تحريف

شيء عن نفسي أو تغيير أي شيء، حتى أن هذا الجهد كان أحياناً يدفعني

للمبالغة في إظهار عيوبي، وبالتالي يحرفني عن قول الحقيقة كما هي. كانت كل الخواطر والمشاعر المكتوبة لزمين طويل بداخلي، وكل تلك الهيجانات المصمتة مثل السيل، يكبر ويزداد اندفاعاً كلما تقدم، ثم يتدفق إلى الخارج. عندما أراها وهي تنصت إلي باهتمام شديد، وتحاول أن تفهم مشاعري بالنظر في تعابير وجهي وما لم أستطع أن أعبّر عنه بالكلام، كنت أشعر براحة أكبر وأسترسل في الحديث. أحياناً كانت تهزّ رأسها بشدة كأنها تحاول أن تخبرني بأنها تصدقني، وأحياناً أخرى كانت تفغر فاهاً قليلاً من الدهشة والتعجب. وعندما كنت أنفعل كانت تمسّد يدي بلطف، وعندما تأخذ كلماتي طابع الشكوى تبتسم لي بعطف. في لحظة، وكأنّ قوة خارجية مجهولة نكزتني، قطعت كلامي ونظرت إلى الساعة. كانت تقرب من الحادية عشر مساءً. لم يتبقّ أحدٌ على الطاولات حولنا. وثبت من مكاني قائلاً:

”ستأخرين على موعد عملك!“

استجمعت نفسها، ضغطت على يدي بقوة أكبر، ونهضت بلا تعجّل: ”معك حق!“، قالت. واستطردت بعد أن اعتمرت قبعتها:
- ”كانت جلسة جميلة!“

أوصلتها إلى مقابل نادي الأتلانتيك. بالكاد تحدثنا ببعض الكلمات في الطريق. كلانا كان سارحاً شارداً كأننا نريد أن نغرس انطباعات هذه الليلة في داخلنا. عندما اقتربنا من نهاية الطريق أحسست برعشة تسري في جسدي.

- ”بسببي أنا لم تستطعي الذهاب إلى البيت وارتداء معطفك،

ستبردين!“، قلت لها.

- ”بسبيك؟ هذا صحيح، بسبيك. لكن الذنب عليّ أنا. لا يهم. لنمش بسرعة!“

- ”هل أنتظر ك لأوصلك إلى البيت فيما بعد؟“

- ”لا، لا.. أبداً. نلتقي غداً!“

- ”كما تريد!“

التصقت بجانبني أكثر، ربما لكي لا تبرد. عندما اقتربنا من الباب المنار بالأضواء الكهربائية توقفت، سحبت يدها من ذراعي ومدتها إلي. كانت كأنها تفكر في شيء شديد الجدية. سحبتني إلى زاوية الجدار. أخيراً، انحنت باتجاه وجهي، غرزت نظراتها في الرصيف وقالت فيما يشبه الهمس ولكن بسرعة:

- ”معنى ذلك أنك لا تغار علي! ها؟ أتحنّني فعلاً إلى هذا القدر؟“،

وفجأة رفعت عينيها ونظرت إلي بفضول. في هذه اللحظة، ولعدم إيجادي كلمة تعبر عما أشعر به، أحسست بضيق في صدري وجفاف في حلقي. كنت خائفاً من أن أي كلمة أو أي صوت يصدر مني سيفسد عليّ سعادتي ويعكرها. كانت ما تزال تحدق في وجهي، ربما بشيء من الخوف هذه المرة. لاحظت أن عينيّ كانتا تدمعان من اليأس. عندها هدأت ملامحها، وأغلقت عينيها كأنها كانت تستريح. ثم أمسكت برأسي وقبّلتني من فمي وأدارت ظهرها. ومن دون أن تقول شيئاً، مشت بسرعة إلى الداخل.

عدت إلى المهجع وكأني أجري. لم أرد التفكير في أي شيء، أو تذكر أي

شيء. ما حدث هذه الليلة كان عزيزاً وغالياً بالنسبة إلي لدرجة أنني كنت أخاف حتى أن ألمسه بالتذكرة. كما كنت قبل قليل أخشى من أن يفسد صوتٌ يخرج من جوفي سعادتِي، فإنني الآن أخشى من أن تعبت ذاكرتي بتفاصيل ما حدث الليلة من أحداثٍ فريدة.

كان المهجع وهو مظلم السلام يبدو لي جميلاً، وممراته الممتلئة بمختلف الروائح تروقني. منذ ذلك اليوم فصاعداً، أصبحت ألتقي بباريا كل يوم وأخرج معها للتنزه. لم ينته كل شيءٍ نقوله لبعضنا من أول ليلة. كان أي شخص ممن نصادفه، والمناظر التي نراها تجعلنا نتحدث عن خواطرننا، وبالتالي نكتشف كم كانت أفكارنا قريبةً لبعضها. هذا التقارب الفكري، كان نتيجة تفكيرنا في كل شيءٍ بنفس الطريقة، رغم أنه أحياناً كان تأثير تقبُّل رأي الطرف الثاني وتبنيهِ حاضراً. لكن أليس إيجاد قناعة من أمامك صائبةً وتبنيك لها ونسبها إليك نوعاً من التقارب الروحي معه أيضاً؟

كنا نرتاد المتاحف ومعارض الفن في أكثر الأحيان. وهي تتولى شرح الفن الحديث والقديم وأساتذته لي، وتناقشني في قيمة كل منهم. ذهبنا عدة مراتٍ إلى حديقة النباتات أيضاً، وفي مساءٍ ذهبنا إلى مسرح الأوبرا، لكن الدخول في الساعة العاشرة والخروج بعد نصف ساعةٍ ومن ثم التوجه إلى عملها كان سيكون جهداً لا داعي له بالنسبة لها، ولذلك تراجعنا عن الفكرة. ثم في يوم من الأيام قالت لي:

”لم يكن السبب ضيق الوقت فقط، بل لسببٍ آخرٍ أيضاً لم أرد الذهاب إلى الأوبرا. مجرد الخروج من مسرح الأوبرا ثم الذهاب للغناء في بار

الأثلاثيتك كان يبدو لي من أكثر الأشياء سخفاً على وجه الأرض.“
كنت أذهب إلى المصنع قبل الظهر فقط، وبالكاد أصبحت أقابل نزلاء
المهجع. فراو هينز بين حينٍ وآخر كان يقول لي:
”بيدوا أنك وقعت في شرك أحدٍ ما!“، وكنت أبتسم ولا أطيل الكلام
معه. بالذات فراو تيدمان، لم أكن أريدها أن تعلم شيئاً. لم تكن ماريا تجد
في ذلك مشكلةً، لكنني أنا، بل ربما عادةً لحقت بي من تركيا كانت تقنعني
بوجوب ذلك.

في الواقع لم يكن هناك شيءٌ نخبئه عن أحد. فمنذ أول ليلة استمرت
صداقتنا في حدودها التي قررناها لها، وماحدث مقابل الأثلاثيتك
في تلك الليلة لم يذكره أيُّ منا بأي شكل. في البداية كان ما يقربنا من
بعضنا فضولٌ زائد. نقول في أنفسنا ياترى ماذا هناك أيضاً، ونسترسل
في الكلام. بعد ذلك أخذ مكان الفضول الاعتياد. عندما لانستطيع لقاء
بعضنا ليومين أو ثلاث لسبب ما فإننا نشتاقل للقاء كثيراً، وعندما نلتقي
فإننا نبتهج كأصدقاء صغارٍ افترقوا عن بعضهم، ونمشي ممسكين بأيدي
بعضنا. كنت أحبها جداً. أعتبر نفسي محظوظاً لأنني أخيراً وبعد أن كنت
أحسّ أن بداخلي حبٌّ محبوس يكفي كل الدنيا، وجدت أحداً أصرف
عليه ذلك الحب. هي أيضاً كان من المؤكد أنني كنت أروق لها، وأنها
كانت تفتقدني في غيابي. لكنها لم تكن تعط لصداقتنا أي فرصةٍ لتتحول
إلى شيءٍ آخر.

في يوم من الأيام وبينما نحن نتجول في غابةٍ قريبةٍ من برلين تدعى
غرونوالد ألقمت بذراعها على رقبتني، واستمرت بالمشي متكئةً علي. يدها

المتدلية من على كتفي تتأرجح بخفة وسبابتها تتحرك كأنها ترسم دوائر في الهواء. وبنزوة لا أدري كيف تولدت، التقطت يدها وقبلت راحتها. سحبت يدها على الفور، لكن برفق. لم نتحدث بعدها واستمرينا في التنزه. لكن جدّيتها في تلك اللحظة كانت قويةً وصریحَةً لدرجة تمنعني من الانسياق وراء نزواتي مجدداً. في بعض الأحيان كنا نتناول بعض مواضيع الحب. وفي كلّ مرة أراها تتحدث عنه وكأنه شيءٌ بعيد عنها، شيءٌ لا علاقة لها به أبداً، أشعر بشيءٍ يتحطم في داخلي. صحيح أني رضيت وقبلت بكل شروطها، لكنني ورغم ذلك، كنت أحياناً أقل موضوع الحديث ليصبح عنّا، وأحاول تحليل صداقتنا. ليس للعشق عندي مفهومٌ مجردٌ وواضح، كل أشكال المودة والتحابّ والتعاطف التي تظهر في علاقات الناس ببعضهم هي في النهاية من أشكال العشق. الإسم والشكل فقط هما ما يتغيران على حسب الظرف الذي يكونان فيه. عدم إعطاء الحب الذي يكون بين الرجل والمرأة اسمه الحقيقي ماهو إلا خداعٌ لأنفسنا.

حينها كانت ماريا تلوّح باصبع سبابتها ضاحكةً:

”لا يارفيق، لا.. العشق ليس كما تقولون مجرد تعاطف بسيطٍ أو محبةٌ عميقة. العشق شيءٌ مختلفٌ تماماً، إنه إحساسٌ لانستطيع تحليله، كما أننا لانعرف من أين يأتي، لانعرف أيضاً إلى أين يهرب في يوم من الأيام. بينما الصداقة باقية، ومرتبطةٌ بالفاهم. نستطيع أن نستعرض كيف بدأت، ولو انتهت أيضاً فنستطيع أن نحلّل أسباب انتهائها. العشق شيءٌ لا يمكن تحليله. ثم فكّروا معي. كلنا لنا أناسٌ يعجبوننا في هذه

الدنيا، أنا مثلاً لدي عددٌ من الأصدقاء الذين أحبهم صدقاً، - أستطيع أن أخبركم بأن حضر تكم تأتون في مقدمتهم - ، الآن هل أعتبر عاشقةً لهم جميعهم؟“

قلت مصراً على رأيي:

- ”نعم. أنتم عاشقون بدرجاتٍ متفاوتة لكل شخصٍ تحبونه!“
ردت ماريا بجوابٍ لم أتوقعه:

- ”في هذه الحالة لماذا لا تغارون عليّ؟“

لم أستطع أن أجد شيئاً أرد به عليها، وبعد فترة صمتٍ أوضحت:
- ”من كان في داخله القابلية على المحبة الحقيقية فهو لا يحرص هذا الحب على شخصٍ واحد، ولا يتوقع من أي أحدٍ أن يفعل ذلك أيضاً. مهما كان عدد الذين نحبهم، فالشخص الذي نحبه فعلاً نستطيع أن نحبه بنفس الدرجة التي نحب بها كل الآخرين، فالعشق ليس بالشيء الذي يتناقض إذا وزعته.“

- ”كنت أعتقد أن الحب الذي تتناوله كلمات الأغاني شيئاً مختلفاً!“
- ”أنا لا أعتقد ذلك!“

قالت ماريا بعد ثبتت عينها على نقطة ما وشردت لمدةٍ طويلة:
- ”العشق الذي أريده مختلف. عشقٌ خارج حدود المنطق، شيءٌ صعب التعريف، غامض الماهية. الإعجاب والحبّ شيئان آخران، أما الرغبة، بكل الروح، بكل الجسد، بكل شيءٍ.. هذه الرغبة هي العشق في نظري، رغبةٌ لا يمكن مقاومتها!“

عندها قلت بثقةٍ كأني أمسكت بها متلبسة:

- ”ما قلته للتو ماهو إلا مسألة وقت. فالمحبة والاهتمام الموجود في داخلك، بشكل غير معروف، وفي لحظة لا يمكن تحديد زمانها، يتجمع فجأةً وتتكاثر؛ تماماً مثل أشعة الشمس اللطيفة عندما تتجمع في نقطة واحدة وتبدأ في الإحراق، تزداد قوة هذا الحب بشكل غير عادي، فيلقكم ويلهبكم. الاعتقاد بأنه شيء يأتينا من الخارج فعلٌ خاطئ، فماهو إلا استقواء مفاجئ لأحاسيس ومشاعر موجودة بداخلنا في الأصل.“

تركنا النقاش عند هذا الحد، لكننا تداولناه مجدداً في أيام أخرى. لم أدر هل كان الحقُّ معي أم معها. لم أستطع التحديد. مهما أردنا أن نكون صريحين وواضحين مع بعضنا البعض، فمن المؤكد أن العديد مما خفي من أفكارنا الغامضة ورغباتنا كانت تلعب دورها أيضاً. ومهما كثر عدد النقاط التي نتفق فيها، فسيبقى لدينا نقاطٌ نختلف حولها أيضاً، وإذا ما وافق أحدهنا للآخر بسهولة، فإنه لا يفعل ذلك إلا في سبيل غايةٍ يراها أهم.

من بين كل الناس الذين صادفتهم، لم أكن قريباً لأي أحدٍ منهم كما أنا من ماريا الآن، ولذلك فإن أهم مسألةٍ عندي هي المحافظة عليها. ربما كانت غاية أمنيّاتي هي أن تكون لي، بكل وجودها المادّي والمعنوي، وبلا نقصان، لكنني خوفاً من أن أخسر ما بيدي حالياً، كنت أتخوف من أن أحولَ عينيّ إلى هذا الهدف، كشخصٍ يراقب عصفوراً جميلاً ويريد الإمساك به ولكن يخشى هروبه مع أي حركةٍ بسيطة تصدر عنه.

كنت أستشعر في نفسي بأن هذا الجمود، والتردد المستند على الخوف

هو أكبر ضرراً، وأنه في نقطة ما سيخرج عن صمته، وأن كل خطوة لا يخطوها الإنسان إلى الأمام فهي تعود به إلى الوراء، وأن اللحظات التي لا تقربه فهي بالتأكيد تبعده. كنت أفكر بكل هذا بشكلٍ ظلامي، وأشعر في داخلي بقلقٍ يحرقني بصمتٍ ويكبر يوماً بعد يوم.

لكنني ولكي أستطيع أن أفعل شيئاً فعلياً أيضاً أن أصبح إنساناً آخر. ورغم أني كنت أعرف بأني كنت أدور حول نفس النقطة كثيراً إلا أنني لم أكن أعرف الطريق الموصل إليها، ولم أستطع البحث عنه. اختفى خجلي وضجري القديم. لم أعد أنطوي على نفسي كما في السابق، حتى أني أحياناً كنت وبشكلٍ مفطر كنت أعرض روحي للجميع ليراها؛ لكن دائماً بشرط أن لا أمسّ هذه النقطة.

لا أعرف إذا ما كنت في ذلك الوقت أفكر في كل ذلك بهذا العمق والوضوح. اليوم، وبعد مرور أكثر من اثني عشرة سنة، أستعرض حالي في ذلك اليوم وأخرج بهذه النتائج. حتى أحكامي بشأن ماريّا تخضع لنفس عامل التصفية والتحليل الزمني.

في تلك الفترة كنت أفهم أن ماريّا أيضاً كانت تحت تأثير العديد من المشاعر المتباينة. فأحياناً تكون واجهةً جداً، وباردةً أيضاً، وأحياناً تبتهج فجأة، وترفع الكلفة معي لدرجةٍ لم أكن أفعلها مع نفسي حتى، كأنها كانت تعمل على إثارتي عمداً. لكن حالاتها هذه كانت تمر بسرعة، وتعود صداقتنا لوضعها القديم. حتى هي كان من المؤكد أنها لاحظت، مثلي تماماً، بأن صداقتنا، وبقاءها في مكانها كما هي، ستدخل في مأزق. لكنّها، ومع عدم إيجادها لمن تبحث عنه، ترى أن الكثير من جوانب

شخصيتي قيِّمةٌ جداً لديها لدرجة أنها لا تستطيع التضحية بها، فتنخوف بالتالي من فعل أشياء تظن بأنها ستتسبب بابتعادي عنها.

كانت كل هذه المشاعر المختلطة وكأنها هي خائفة من الخروج للضوء، تتجمع في أبعد ركنٍ في أرواحنا. ونحن، في الحقيقة كنا كما في السابق، صديقين حميمين يبحثان ويريدان بعضهما، وممتنان لسعادة بعضهما.

لكن فجأةً تغير كل شيءٍ وأخذ إتجاهاً لم نكن نتوقعه. كنّا في أواخر شهر كانون الأول، ذهبنا إليها لتقضي عطلة رأس السنة إلى إحدى قريباتها الساكنة قريباً من براغ، وماريا كانت سعيدةً بذلك:

”من أكثر الأشياء التي تثير أعصابي في الدنيا هي تلك الشموع وأشجار عيد الميلاد المزركشة.“، كانت تقول. ”لا تظنّ أن ذلك بسبب أصولي اليهودية، فليس من الغريب أن أجد محاولة الناس إشعار بعضهم بأنهم سعيّدون للحظة شيئاً سخيفاً. خاصة بأن الدين اليهودي فيه الكثير من مثل هذه الأيام المقدسة، والممتلئة بالواجبات السخيفة والغريبة. في الحقيقة أمي البروتستانتية صاحبة الدم الألماني النقي، لم تتعلق بهذه العادات إلا بسبب تقدمها في السن وأنها لم تعد تجد ماتفعله. وإذا كانت تجد في أفكار زندقة، فسبب ذلك ليس قناعاتها الدينية فقط، بل لخشيتها من أن تسرق أفكار راحتها النفسية في أيامها الأخيرة.“

- ”باعتمادك، أليس لعيد الميلاد أي أهمية؟“ سألتها.

- ”لا“، قالت. ”في ماذا يختلف هذا اليوم عن أيام السنة الأخرى ياترى؟ هل ميّزته الطبيعة عن باقي الأيام بأي شكل؟ حتى إخباره لنا بأن سنةً أخرى مضت من عمرنا ليس بالشيء المهم أبداً، ذلك

لأن تقسيم عمرنا على سنواتٍ هو من اختلاق الإنسان أيضاً. فما عمر الإنسان إلا عبارةٌ عن طريقٍ يمتد من الولادة إلى الموت، وأي تقسيماتٍ أخرى فهي مختلقة. لكن دعنا من الفلسفة. إذا أردت، لنقضي ليلة عيد الميلاد في مكانٍ ما سويةً. عملي في حانة الأتلانتيك ينتهي قبل منتصف الليل، لأنهم يعرضون في تلك الليلة أشياءً أخرى مدهشة. سنخرج معاً، ونشرب للثمالة مثل الآخرين. كم هو شيءٌ جميلٌ أن نرمي نفسنا مع التيار ونتخلص من أنفسنا بين الحين والآخر. مارأيك؟ هذا يذكرني، نحن لم نرقص معك من قبل. أليس كذلك؟“

- ”لا، لم نرقص!“

- ”أنا في الحقيقة لا أستمتع بالرقص كثيراً، ولكن أحياناً يثير من أراقصه إعجابي، ولهذا فقط أتحمل عبء الرقص.“

- ”في هذه الحال لا أعتقد بأني سأثير إعجابك!“

- ”ولا أنا. لكن ليكن، فالصداقة تحتم أحياناً بعض التضحيات!“

في ليلة رأس السنة تناولنا العشاء سويةً وجلسنا في المطعم نتسامر حتى موعد عملها. وعندما وصلنا إلى الأتلانتيك، ذهبنا إلى مكانٍ في الخلف كي تبدل ملابسها. أما أنا فجلست على الطاولة التي جلست عليها في أول ليلةٍ أتيت إلى هنا. كانت الصالة من الداخل متلائة بالنجوم والفوانيس الملونة والشرائط الورقية، والناس يمن دون كالسكارى من الآن، وكل الراقصين متلاصقين ببعضهم يتبادلون القبيل. في داخلي يتنامى شعورٌ بالضيق بلا سبب.

”والآن ماذا؟“ سألت نفسي متابعاً. ”ما المدهش في هذه الليلة فعلياً؟“

نكذب الكذبة ونصدقها. لو ذهب الكل لبيتة ونام لكان ذلك أفضل.
ماذا سنفعل نحن؟ مثلهم، نحتضن بعضنا ونعود. الفرق هو أننا لن
نقبل بعضنا. هل سأستطيع الرقص يا ترى؟“

عندما كنت أدرس في معهد الفنون الجميلة بإسطنبول، أراني بعض
الأصدقاء رقصاتٍ تعلموها من الروس البيض الذين كانوا يملأون
المدينة في ذلك الوقت. كنت أؤدي بعضاً من رقصة الفالس، لكن هل
سأنجح في تأديتها الليلة وأنا لم أفعل ذلك منذ سنة ونصف؟ قلت
لنفسي: ”يارجل، أد نصفها وعد للجلوس!“

استمر عزف ماريا للكمان وغنائها أقصر مما كنت أتوقع، وبعده بدأ
ضحيج الغناء. لكن الناس كانوا منشغلين ببعضهم عنه. بدلت
ماريا ملابسها وخرجنا فوراً، ذهبنا إلى مكانٍ كبيرٍ مقابل محطة أنها تتر
يدعى ”أوروبا“. هذا المكان مختلفٌ كلياً عن الأتلانتيك الصغير ذو
الخصوصية. مئات الأزواج من الناس يتراقصون بحبورٍ وبهجة في
صالاتٍ كبيرة وكثيرة، والطاويل ممتلئة بزجاجاتٍ ملونة بألوانٍ
مختلفة. أناسٌ يترنحون وآخرون نائمون، وآخرون جالسون في
أحضان بعضهم.

كانت ماريا في هذه الليلة منتشية ومبهجة لدرجةٍ غريبة، تنكزي
بذراعها وتقول :

- ”لو علمت بأنك ستجلس عابساً هكذا لاخترت شاباً آخر
ليصحبني!“

كانت تشرب زجاجات خمر الراني اللاذع واللذيذ بسرعةٍ تذهلني

وترغمني على الشرب معها. بدأت احتفالات الكازينو الحقيقية بعد منتصف الليل. الهتافات، القهقهات، وصخب الموسيقى التي تُعزف من أربعة أماكن مختلفة، وجلبة إيقاع أقدام راقصوا الفالس، كلها كانت تتمازج في هذا المكان. الإحتفالات الجالحة بنهاية سنوات الحرب كانت تُشاهد هنا بكل بهجتها. أجسادٌ نحيلة، ووجوهٌ عظامها بارزة، وعيونٌ لامعةٌ كأنها تعاني من مرضٍ عصبي، وشبَّانٌ تاركين لأنفسهم الحبل على الغارب في حماسٍ لا محدود، وفتياتٌ يافعاتٌ يظهرن عصيانهم وثورتهم على روابط المجتمع التي يرونها غير منطقية وظالمة، بترك العنان لرغباتهم الجنسية بالظهور. حالهم كان محزناً فعلاً. ناولتني ماريا قدحاً آخر هامسةً:

- ”رائف، رائف. حالك ليس بالجيد. ألا ترى محاولاتي وما أفعله لكي لأقع في قبضة الضيق والضجر والاكئاب؟ هيا، لنخرج عن أنفسنا هذه الليلة. لنفترض بأننا لسنا نحن، بأننا أحد الآخرين الذين يملأون هذا المكان في هذه الليلة. هل هم أيضاً فعلياً كما يظهرن كذلك؟ لا أريد. لا أريد أن أعين نفسي كأعقل وأذكي وصاحب أرقى إحساس من بين الناس. إشرب واضحك!“

لاحظت بأنها بدأت تشمل. نهضت من كرسيها وجلست بجانبى ملقياً ذراعها على كتفي. قلبي بدأ بالخفقان كقلب عصفورٍ وقع في مصيدة. كانت تظن بأني حزين، لكنني في الحقيقة لم أكن كذلك. كنت سعيداً لدرجة أنني لم أستطع الضحك، سعيدٌ لدرجة أخذي لسعادتي على حمل الجد.

بدأت موسيقى الفالس بالعزف، انحنيت على أذنها بخفة وهمست:
- ”هيا.. لكني لا أرقص جيداً.“

قالت وهي تثب من كرسيها وكأنها لم تسمع النصف الثاني من جملتي:
- ”هيا!“

بدأنا بالدوران في داخل الزحام. لم يكن هذا نوعاً من الرقص، بل كان عبارة عن انسياقٍ لتدافع الأجساد حولنا من مكانٍ لآخر. لكن كلانا لم يكن مستاءً. ركزت ماريا نظرها فيّ. في هذه العينين الشاردتين، هناك شيءٌ ما لا أفهمه، يلمع ويدهشني بين حينٍ وآخر، ومن نحرها تعبق رائحةٌ خفيفةٌ لكنها رائحة لجسدها. لم ينقصني فوق كل هذا، فوق كوني قريباً منها، إلا أن أعرف أي أعني شيئاً لها.

”ماريا“، همست لها. ”كيف لإنسان أن يسعد إنساناً آخر بهذا القدر؟ لا بدّ أن في داخله قوىً خارقةً مخفية!“

مرّ بعينيها ذلك اللمعان مجدداً. لكنها وبعد أن دقت النظر فيّ لوهلةٍ عضت على شفرتها. كانت نظراتها ضبابية وبلا معنى.

- ”هيا لنجلس!“، قالت. ”ياله من زحام! سأبدأ في الملل غالباً!“
عادت تكرع أقذاح الشراب من جديد. وبعد مدةٍ نهضت قائلةً:
- ”سأعود فوراً!“، وابتعدت وهي تترنح.

انتظرت مدةً طويلة. رغم كل إصرارها ورجاءها إلا أنني تفاديت الإكثار من الخمر، كنت أشعر بالدوار فوق كوني ثملاً. رأسي يؤلمني. ورغم مرور خمسة عشرة دقيقةً على ذهابها إلا أنها لم تعد بعد. بدأت بالقلق. بدأت بالبحث في دورات المياه، فربما تكون قد وقعت. كان هناك نساء

يرتقن ما تقطع من ملابسهم وأخريات يتزيّن أمام المرأة. لم تكن ماريّا بينهنّ. بحثت عنها بين النساء النائئات على الأرائك في زوايا الصالات، لم أجدها. فجأة وصل القلق في داخلي إلى أقصى درجاته. كنت أركض من صالةٍ لأخرى مصطدماً بالواقفين والجالسين، أهبط درجات السلم قافزاً إلى الدور الأرضي لأبحث عنها، ولم أجدها.

في تلك الأثناء وقعت عيني من خلال زجاج بوابة الكازينو الدوارة الضبابية على شيء أبيض يقف في الخارج. قفزت إلى الباب، وعندما خرجت أطلقت صرخة. ماريّا بودر، كانت ممسكةً رأسها بيديها ومستندةً على إحدى الأشجار مقابل البوابة وملصقةً وجهها بها. عدا فستاناً خفيفاً من الصوف، لم يكن على ظهرها شيء، وندفات الثلج كانت تتساقط على شعرها وقفاها. وعندما سمعت صوتي التفتت وقالت مبتسمةً:

- "أين كنت؟!"

- "بل أنت أين كنت؟ ماذا تفعلين هنا؟ هل جننتم!، صرخت.

قالت واضحةً إصبعها على شفيتها:

- "اسكت! أردت استنشاق بعض الهواء النقي والتبرد. هيا لنذهب!"
أدخلتها بصعوبةٍ إلى الكازينو، وجدت كرسيّاً فارغاً وأجلستها. صعدت إلى الأعلى، دفعت الحساب وأخذت معطفي ومعطفها الفروي، ثم بدأت بالمشي بخطواتٍ مدفونةٍ في الثلج.

كانت تحاول التمسك بذراعي بقوةٍ والمشي بسرعة. الشوارع مليئةً بأزواجٍ من السكرارى. والشوارع الرئيسية ممتلئةً بتجمعاتٍ للناس وبنساء

خارجات يتجولن بالبسة خفيفة وكأننا في فصل الصيف، يتضحكون ويطلقون قهقهاتٍ ويغنون في مثل هذا الطقس وبعد منتصف الليل بثلاثة ساعات، وكأن فجر الربيع دخل مؤذناً بنهاية الشتاء.

ماريا، ولكي نمشي من بين هؤلاء السكارى المنتشين بسرعة أكبر، كانت تسحبني. وتقابل من يقذفها بكلمة أو يحاول التعلق برقبتهاببتسامه باردة وتخلص نفسها منهم وتعود إلى سوقي من جديد. فهمت خطأً بظني أنها كانت ثملى إلى حدٍ لاتستطيع المشي معه.

وعندما وصلنا إلى شوارع خالية نسبياً خففت من سرعتها. كانت تتنفس بسرعةٍ وشدة، صدرت عنها تنهيدة ”أوه!“ عميقة، ثم التفتت لي قائلةً: - ”مارأيك؟ هل أنت سعيدٌ بهذه الليلة؟ هل استمتعت؟ آه، أنا استمتعت جداً، لدرجة أني..“

بدأت في الضحك مقهقهةً، ثم تحول الضحك إلى سعالٍ فجأةً. تتلوى وكأنها تحتنق، وصدرها يرتعش، لكنها لم تترك ذراعني. وعندما سكنت قليلاً قلت:

- ”ماذا حدث لك، أرأيتي؟ أمرضت نفسك!“

قالت بوجهٍ ضاحك:

- ”آه، لقد استمتعت لدرجة!..“

كنت خائفاً لدرجة أني كدت أبكي، هذه المرة كنت أنا من يريد إيصاها إلى بيتها بسرعة. ومع اقترابنا من نهاية الطريق كانت خطواتها تثقل أكثر فأكثر. اتضح أن قوتها وتحكمها بدا يخذلانها، كان الهواء البارد قد أذهب سكرتي تماماً. كنت أسحبها ممسكاً بها من خصرها، وأدوس على

قدمها بين خطوةٍ وأخرى. كنا على وشك التدرج على الثلج بينما كنا نحاول العبور من رصيفٍ إلى آخر. الآن هي تتمم بكلماتٍ لا تكاد تُسمع. في البداية ظننتها تحاول همهمة أغنيةٍ ما، ثم وعندما فهمت أنها تخاطبني أصخت سمعي:

”نعم، هكذا أنا.“، كانت تقول. وتابعت: ”رائف.. حبيبي رائف. أنا هكذا كما ترى، ألم أقل لك من قبل؟ كل يوم لي حالٌ مختلف. لكن ليس هناك داعٍ للتكدر، أنت ولدٌ طيبٌ جداً. من المؤكد أنك كذلك!“
وفجأةً بدأت تشهق، ثم بدأت تعيد كلماتها:

- ”لا، لا، مامن داعٍ للتكدر..“

بعد نصف ساعةٍ وصلنا إلى مقابل الباب. انتظرت مسندةً ظهرها إلى جدار السلم.

- ”أين المفاتيح؟“ سألتها.

- ”لا تغضب مني، رائف. لا تغضب! المفاتيح في جيبِي!“

أدخلت يدها في أحد جيوب معطفها الداخلية وناولتني ربطة مفاتيح. فتحت الباب، وعندما عدت إليها لأساعدها في الصعود إلى الأعلى تلمّصت مني، وصعدت درجات السلم ركضاً.

- ”ستسقطين!“، قلت محذراً.

قالت وهي تتنهد:

- ”لا، سأصعد بنفسِي!“

تبعتهما لأن المفاتيح ما زالت معي، وفي أحد الأدوار هتفت لي من الظلام:

- ”أنا هنا.. افتح الباب!“

فتحت الباب. ولجنا إلى الداخل معاً. أشعلت ضوء غرفتها. أول مارآته عيني كان أثاثاً قديماً لكن معتنىً به جيداً، ومنضدةٌ جميلةٌ من خشب البلوط. كنت واقفاً في منتصف غرفتها من غير حركة، نزعت معطف الفرو تاركةً إياه في ركن الغرفة وأشارت إلى كرسيِّ قائلةً:

- "اجلس!"

ثم جلست على طرف سريرها، وبسرعةٍ كبيرةٍ نزعت حذاءها وجواربها. تخففت من ملابسها وألقتها على كرسيٍّ ثم تغطت بلحافها. نهضت من على الكرسي. مددت يدي إليها من دون أن أنطق بشيء. تفحصتني بنظراتها وكأنها تراني لأول مرة، وسرت على وجهها ضحكةٌ ثملى. أخفضت عيني، وعندما نظرت إليها مجدداً وجدتها نصف مستويةً بالجلوس، وعيناها ترمشان بصعوبةٍ كأنها تحاول التملص من النوم. كتفها الأيمن وذراعها النافران من بين الأغطية البيضاء كانا أبيضين وشاحبين كوجهها تماماً. كان مرفقها مستنداً على الوسادة.

"ستبردين!"، قلت لها.

سحبت ذراعي بسرعةٍ وأجلستني على طرف السرير. ثم دنت مني، وأمسكت بيديّ بغتةٍ، وقالت وهي تضع وجهها على راحتي يدي:

- "آه يارائف.. معنى هذا أنك أنت أيضاً تستطيع أن تصبح كذلك؟ الحق معك. لكن ماذا أفعل؟ لو تعلم، آه لو تعلم.. لكننا استمتعنا أليس كذلك؟ بالتأكيد. لا، لا، أعرف! لا تسحب يديك.. لم أرك هكذا من قبل أبداً بهذه الجدية! لكن ما السبب؟"

رفعت رأسي. جلست بجانبها حانيةً ركبتهما، وواضعةً يديها على خدي،

ثم قالت:

- "اسمعي! ما تفكر به ليس بصحيح، سأثبت لك ذلك. في الحقيقة سأثبتة لنفسي. لماذا تقف هكذا؟ ألم تصدقني بعد؟ ألا يزال بك شك؟" أغمضت عيناها، كأنها كانت تحاول الإمساك بشيء هاربٍ يستمر في الإفلات منها في عقلها، جبهتها وما بين حاجبيها كان مقطباً، وعندما لاحظت ارتعاش كتفيها المتعرقين سحبت اللحاف وغطيت به ظهرها واستمرت بالإمساك به لكي لا ينزلق.

فتحت عيناها. وقالت ضاحكةً كالمذهولة:

"هكذا.. أنت أيضاً تضحك أليس كذلك؟"، ثم وجّهت نظرها إلى زاوية الغرفة غير قادرةٍ على إكمال كلامها.

انسدل شعرها على جبهتها، وظل رموشها منعكسٌ على أعلى أنفها بسبب الإنارة الجانبية. كانت شفرتها السفلية ترتعش بخفة. وجهها في هذه اللحظة كان أجمل من الوجه الذي كان في لوحة المعرض، ومن الذي كان في لوحة مادونا الهاربيز. وباليد التي كانت ممسكةً باللحاف سحبتها نحوي.

أحسست بارتجاف جسدها. قالت بصوتٍ منخفض:

- "بالطبع.. بالطبع.. بالطبع أنا أحبك. بل وأحبك جداً. وهل هناك إمكانٌ لغير ذلك؟ بالطبع أنا أحبك. بالتأكيد أحبك. لكن لماذا أنتم متفاجئ؟ أكنت تتوقع شيئاً آخر؟ أفهم مدى حبك لي، وأنا أيضاً أحبك جداً لا شبهة فيه."

سحبت رأسي إليها وأغرقت كامل وجهي بالقبلات.

عندما استيقظت صباحاً أحسست بأنفاسها العميقة والمنظمة، متوسدةً ذراعها نائمة وظهرها إلي. شعرها منسدلٌ على شكل أمواج على الوسادة البيضاء، ثغرها نصف مفتوح وعلى طرفه كانت هناك بضعة شعرات. أنفها يتحرك مع أنفاسها، والشعرات التي كانت على فمها كانت ترتفع وتسقط مع الشهيق والزفير.

تركت رأسي على الوسادة، وانتظرت متأملاً في السقف. في داخلي عجلةٌ شديدة وصبرٌ نافذ. كنت أفكر، كيف ستنظر إليّ عندما تستيقظ، وماذا ستقول لي. لكنني وبلا سبب، كنت أخاف من استيقاظها. لم أجد في داخلي الشعور بالأمان والسكون الذي كنت أتوقعه عندما أستيقظ. لم أكن أفهم سبب ذلك. لماذا أتصرف وإلى الآن مثل متهم ينتظر صدور الحكم عليه، وصدري يرتجف؟ ماذا أريد منها فوق ذلك؟ ماذا كنت أنتظر أكثر من ذلك؟ ألم تتحقق كل أمنياتي؟

كان في داخلي فراغٌ دون أن يملأه أحد، وكنت أحس بهذا الفراغ وهو يسحقني فعلياً. شيءٌ ما كان ناقصاً، لكن ماهو؟ كنت كإنسان مهموم يشعر بأنه نسي شيئاً بعد أن خرج من بيته لكن لا يعرف ماهو. يتوقف، يقلب جيوبه، ثم يكمل مشيه بعد أن فقد الأمل في معرفة ما فقد. لاحظت توقف أنفاس ماريا المنظمة منذ مدة. رفعت رأسي ببطءٍ ونظرت لها.

كانت عيناها متعلقتان في نقطة ما وهما تنظران إليها. لم تتحرك أبداً، ولم تبعد الشعر المنسدل على وجهها حتى. حتى عندما لاحظت أنني أنظر إليها لم تلتفت إليّ واستمرت بالنظر إلى النقطة المجهولة. لم ترمش

بعينها. فهمت أنها كانت مستيقظةً منذ مدةٍ طويلة فتضخم القلق في داخلي فجأةً، وشعرت بطوقٍ يلفّ صدري ويخنقه. أشعر بالضيق وأنا أفكر في كون كل هذه التخمينات والتخوفات عديمة الجدوى، وأنها تسببت في عتمة أكثر أيام عمري ألقاً.

سألني من دون أن تلتفت:

- "هل استيقظت؟"

- "نعم! هل مضى كثيرٌ من الوقت على استيقاظك؟"

- "بعض الوقت!"

أعطاني صوتها قليلاً من الجرأة. أدخل صوتها المألوف لي والموظف لأجل الذكريات في خاطري انشراحاً إلى صدري، كرفيقٍ موثوقٍ به دخل فجأةً. لكن ذلك التأثير استمر يوماً واحداً فقط. قالت لي: «هل استيقظتم؟». صحيحٌ أننا في الأيام الأخيرة مراتٍ نخاطب بعضنا بصيغة المفرد - أنت - ومراتٍ أخرى بصيغة الجمع، لكن هل كان يجب أن تخاطبني بهذه الطريقة في صباح هذه الليلة؟

ربما لم تستيقظ من نومها تماماً بعد. التفتت نحوي وهي على السرير. كانت تبتسم. لكنها لم تكن تلك الابتسامة المعتادة الحميمة النابعة من القلب، بل كانت أشبه بالابتسامة التي كانت تقابل بها زبائن الأتلانتيك.

- "ألن تنهضوا؟"، سألتني.

- "سأنهض! وأنتِ؟"

- "لا أدري. لا أشعر بأني على مايرام. ربما بسبب الشراب.. كما أن ظهري يؤلمني أيضاً.."

- ”ربما أخذتِ نزلة بردٍ ليلة البارحة! .. هذه نهاية الخروج إلى الشوارع شبه عارية!“

هزت كتفيها وعادت إلى وضعيتها الأولى مديرةً ظهرها نحوي. نهضت، غسلت وجهي وارثديت ملابسني بسرعة. شعرت بها تتابعني بطرف عينها.

كان في الغرفة جوٌ خانق. أردت أن أستوضح الأمر:

- ”هبط على كلانا صمتٌ غريب. ما الذي يحدث؟ هل بدأنا بالسأم من بعضنا كالمتروجين؟“

نظرت إلى وجهي بعيونٍ لم تفهم ما أقصده. شعرت بالضيق أكثر وسكتت، ثم جلست على السرير، أردت أن أربت على كتفيها، وأدوّب الجليد الذي بيننا قبل أن تزيد سماكته. استوت جالسةً، وتركت ساقها تتأرحخان على طرف السرير ثم وضعت سترة على ظهرها. ما زالت تنظر إلى وجهي، كان هناك شيءٌ يمنعني من الإقتراب منها أكثر. وأخيراً، قالت بصوتٍ غايةٍ في السكون:

- ”ما الذي يزعجك؟“، كسا وجهها فجأة لونٌ ورديٌّ لم أراه من قبل، وصدرها كان يعلو ويهبط ببطء. أكملت قائلة:

- ”ماذا تريد أكثر؟ هل تريد شيئاً آخر؟ لكن أنا أريد، أريد أشياءً كثيرةً ولكنني لا أستطيع أن أحصل على أيٍّ منها. جربت كل الطرق، ولا فائدة.. ربما أنت سعيدٌ الآن، لكن أنا، ماذا أفعل؟“

سقط رأسها إلى الأسفل، وتدلت يداها كأنها ميتة. قدماها العاريتان تلامسان السجادة: ترفع إصبع قدمها الكبير وتنزل الأصابع الأخرى.

سحبت كرسيًا وجلست مقابلها. تناولت يديها، وقلت بصوتٍ يرتعش من الخوف، خوف إنسان على وشك أن يفقد أعز ما يملك:

- ”ماريا! ماريا! مادوناتى صاحبة معطف الفرو! ماذا حصل فجأة؟ ماذا فعلت لك؟ وعدتك بأنى لن أطلب منك شيئاً أبداً. ألم أف بوعدى؟ ماذا حصل فجأة في وقتٍ هو أجدر الأوقات بأن نكون فيها أكثر قرباً من بعضنا؟“

قالت تهز رأسها:

- ”لا يارفيق، لا!.. نحن أبعد من بعضنا من أي وقتٍ مضى! لأنى الآن لم يعد لدي أمل. هذه هي النهاية. قلت لنفسى لأجرب هذا أيضاً، فلربما كان هذا ما ينقصنى. لكنه لم يكن كذلك. ذلك الفراغ موجودٌ في داخلي دائماً، وهو مستمرٌ في التوسع.. ماذا عسانا أن نفعل؟ الذنب ليس ذنبك، أنا لست مغرمةً بك. وعدم استطاعتي لحبي لك أفهمني جيداً بأننى لن أستطيع أن أحب أي أحدٍ في هذه الدنيا، وأن عليّ أن أتخلى عن كل آمالي. لكن ليس بيدي شيء، أنا هكذا، وليس هناك خيارٌ غير تقبل ذلك. حاولت كثيراً، تمنيت أن أتغير وأكون شخصاً آخر، يارئف.. رفيقى صاحب القلب الطيب. كن متأكداً بأنى حاولت أن أكون شخصاً آخر، أكثر مما تمنيتنى أن أكون. ماذا أفعل؟ عدا للذاعة شراب البارحة في فمي، وألم ظهري المطرد، فأنا لا أحس بأي شيءٍ آخر.“

صمتت لمدة وأغمضت عينيها. سرت في وجهها نعمةً حلوة، ثم قالت بصوتٍ عذبٍ وكأنها تحكي أقصوبةً سمعتها في طفولتها:

- ”مساء البارحة، وبعد أن جئنا إلى هنا، تمنيت أشياء كثيرة. ظننت

أني بفعل يد سحرية سأتغير تماماً، وبأني سأشعر بحماس طفلة صغيرة في روعي يهيمن على كل حياتي، وبأني سأستيقظ وكأنني أولد من جديدٍ لـدنيا جديدة. لكن ما أمر الحقيقة.. الهواء مازال كما هو مكتوم، غرفتي باردة، وبجانبي، وبرغم كل شيء، شخص غريب، ورغم كل قربه مني، إلا أنه منفصل. إنسان مختلفٌ عني، وفي عضلاتي تعبٌ وفي رأسي ألم يكبر..“

تغطت باللحاف مجدداً، وتمددت على ظهرها مغمضةً عينيها بيديها وتابعت:

- ”معنى كل هذا أن الناس لا يستطيعون أن يقتربوا من بعضهم إلا إلى حدٍ معين، وبعد ذلك فإن كل خطوةٍ هدفها الإقتراب تبعدهم عن بعضهم أكثر. كم أردت أن يكون فيما بيننا حدٌ لا نتعداه. ما يجزني هو أن هذا الأمل لم يتحقق. لم يعد هناك لزومٌ لنخدع أنفسنا، لن نستطيع أن نتحدث براحةٍ كما كنا نفعل. لماذا ولأي سبب ضحينا بذلك؟ لا شيء! أضعنا ما نملكه طامعين فيما هو غير موجود. هل انتهى كل شيء؟ لا أعتقد. أعلم أن كلانا ليس بطفل، لكنني أعتقد بأن علينا أن نرتاح ونبتعد عن بعضنا لمدة، إلى أن نشعر بحاجةٍ ملحةٍ لرؤية بعضنا من جديد. هيا يارائف. عندما يأتي ذلك الوقت سأخبرك؛ ربما نعود رفيقين من جديدٍ وفي هذه المرة نتصرف بذكاء. لانستطيع أن نطلب ونتوقع من بعضنا أكثر مما نستطيع أن نعطي. هيا اذهب الآن، أرغب بشدةٍ بأن أجلس وحدي.“

أنزلت يديها عن عينيها. كانت تنظر إليّ وكأنها تترجاني. مدت ذراعها،

قبضت على أطراف أصابعها وقلت: «في حفظ الله».

- «لا، لا تذهب هكذا، ساخط علي.. ماذا فعلت لكم؟»، كانت تصرخ.

قلت وأنا أحاول بشدة أن أتحكم في أعصابي: «لست بساخط، إنما أنا متأثرٌ فقط.»

- «وأنا؟ ألسنت متأثرة أيضاً؟ ألا ترى حالي؟.. لا تذهب هكذا.. تعال!»
سحبت رأسي نحو صدرها ومسدت على رأسي، مسحت على وجهي وخدي، قالت:

- «إبتسم لي مرةً ثم اذهب!»

ابتسمت ثم خرجت مغطياً وجهي بيدي.

بدأت بالمشي عشوائياً في الشارع بلا وجهة. الشوارع خالية، وأكثر المتاجر مقفلة. كنت أمشي باتجاه الجنوب. من جانبي تمرّ عربات المترو بزجاجها الضبابي، وباصات نقل صغيرة. مشيت. بدأت بيوتٌ بواجهاتٍ مظلمةٍ وحدائقٍ مرصوفةٍ بالظهور، أكملت سيرتي، فتحت أزرةً معطفي لأنني تعرقت. وصلت إلى طرف المدينة، استمررت في المشي، مشيت من تحت جسور سكك الحديد ومن فوق قنوات الماء المتجمدة.. مشيت فقط. مشيت لساعات، لم أكن أفكر في شيء، عيناى كانتا تظرفان من البرد وبخطىٍ سريعةٍ كنت أتقدم. على جانبي كانت هناك غاباتٌ منتظمةٌ من أشجار الصنوبر، بين حين وآخر كانت كتل الثلج تتساقط من أغصانها إلى الأرض محدثة صوتاً عالياً. يمر من جانبي أناسٌ على دراجاتٍ هوائيةٍ، وهناك من بعيدٍ قطار يقرب مزلزلاً ما حوله. مشيت.. على

جهة اليمين كانت هناك بحيرةٌ كبيرةٌ وفوقها تجمع أناسٌ يتزلجون. ذهبت إلى تلك الجهة ماراً من بين الأشجار. في كل أنحاء الغابة كانت هناك آثار تزلج طويلة ومتداخلةٍ ببعضها، وأجماتٌ من أغراس صنوبرٍ محاطةٌ بأسياجٍ. من البعيد يظهر كازينو خشبي ريفي ذا طابقين، وعلى البحيرة فتياتٌ بتنانير قصيرةٍ وفتيانٌ يتزلجون بلا توقف، يرفعون ساقاً في الهواء ويدورون حول أنفسهم، ممسكين بأيدي بعضهم. أوشحة الفتيات وشعر الفتیان الأشقر يتطاير مع الهواء، وأجسادهم تتلوى بحركاتٍ منتظمة يمينا ويساراً، وأطوالهم كأنها تطول مع كل خطوةٍ وتقصُرُ مع الأخرى.

كنت أعير انتباهاً لكل ذلك. أمضي وقدماي تغوصان إلى الكاحل في الثلج وأدقق انتباهي في كل شيء. تجولت من خلف الكازينو الريفي ذاهباً إلى أسفل الأشجار التي تتواجد مقابله. شعرت بأني رأيت هذا المكان من قبل، ولكنني لم أستطع تذكر متى ولا كيف. وبعد الكازينو الريفي ببضع مئاتٍ من الأمتار، وفي مكانٍ مرتفعٍ نسبياً، كانت هناك أشجارٌ معمرة. توقفت هناك، وبدأت من جديد في مشاهدة جموع الناس وهي تزلج على البحيرة.

ربما مشيت لأكثر من أربع ساعات. مشيت غير واعٍ بسبب مجيئي إلى هنا، ولا بسبب عدم عودتي إلى الطريق الصحيح. خفَّ شعور الاحتراق في رأسي، واختفى شعور مشي النمل في داخل أنفي. لكن كان في داخلي شعوراً فظيماً بالفراغ. ما ظننتها المرحلة الوحيدة في حياتي الغنية وذات المعنى، فرغت وفقدت كل معناها. مثل إنسان استيقظ للحقيقة المرة

من منام رأى فيه كل آماله تتحقق. لم أكن ساخطاً عليها فعلياً، ولم أكن لأغضب أبداً. لكنني كنت متأثراً فقط. ”هذا ما كان يجب أن يحصل“، كنت أقول لنفسي. معنى كل ذلك أنها لم تكن تحبني أبداً. معها حق. فطوال حياتي لم يحبني أي أحد، أبداً. النساء مخلوقاتٌ عجيبية في الأصل. عندما أريد إستجماع كل ذكرياتي لإصدار حكم عليهم، فإني أصل إلى نتيجة أنهم فعلياً غير قادرات على الحب. المرأة لا تحب عندما تستطيع أن تحب، لكنها فقط تحزن على رغباتٍ غير ملبّاة، وتريد إصلاح أناها المكسورة. تحترق على الفرص المضيّعة، وكل ذلك يظهر لها تحت وجه الحب. لكنني وبتفكيري بهذه الطريقة عرفت أني أخطأت في حق ماريّا. رغم كل شيء، إلا أني لم أكن لأعدها مخلوقاً من هذا النوع. إضافة إلى ذلك، فأنا رأيت حجم الإضطراب التي كانت تعانيه. لم يكن من الممكن أن كلّ حزنها كان بسببي. هي أيضاً كانت تحترق على شيءٍ بحثت عنه ولم تجده. لكن ماذا كان ذلك؟ ماذا كان ينقصني، أو بعبارةٍ أصحّ، ما الشيء الذي كان ينقص علاقتنا؟

ياله من شيءٍ مر، أن نكتشف بعدما كنا نظن أن امرأة ما أعطتنا كل ما عندها، أنها لم تعطنا أيّ شيءٍ في الواقع، وأننا في الوقت الذي كنا نظنها أقرب ما تكون إلينا نكتشف بأنها كانت أبعد من كل المسافات. لم يكن يجب أن ينتهي كل شيءٍ هكذا. لكن وكما قالت ماريّا، لم يبق شيءٌ لنفعله؛ من طرفي أنا بالذات.

ما هو مبررها في أن تفعل لي ما فعلته؟ منذ سنواتٍ، وعمري يمرُّ من دون حتى أن أحس بفراغها. حتى لو أني هربت من الناس، لعزوت ذلك إلى

طبيعتي وأكملت حياتي كما هي هارباً منهم، لكنني ليس عندي أي شيء يجعلني راضياً عن هذه الحياة. نعم، كنت أشعر بوحدي وأحزن لذلك، ولكنني لم أعش على أمل أن هناك ما يمكن أن ينقذني من ذلك. عندما ظهرت لي ماريا، بل عندما ظهرت لاحتها مقابلي، كنت في هذه الحال. لكنها أخرجتني فجأة من دنياي الساكنة والمظلمة إلى النور، وإلى الحياة الحقيقية. لم أكتشف وجود روح لي إلا وقتها. والآن، تماماً مثل ظهورها اللحظي بلا سبب، ها هي تذهب. لكن ليس هناك إمكانٍ لعودتي لسباتي من جديد. سأمضي ما تبقى من حياتي أتجول في كل الأماكن، أتعرف على أناسٍ من لغاتٍ أعرفها ولا أعرفها، وفي كل مكانٍ، وفي كل الناس، سأبحث عن ماريا، عن مادونا ذات معطف الفرو. أعرف من الآن أنني لن أجدها، لكن ليس بيدي إلا أن أبحث عنها. كان هناك شيءٌ يستوجب عليّ أن أبحث طوال عمري عن مجهولٍ، عن شيءٍ غير موجود، كان عليها ألا تفعل ذلك.

كانت السنوات القادمة تبدو لي بأنها ستكون حزينَةً بشكلٍ لا يطاق. لم أكن أستطيع تقبل أي سبب يجعلني أتحمل كل تلك المشقة، وكان ستائراً انسدلت عن عيني. تذكرت المكان الذي كنت فيه. هذه البحيرة، كانت بحيرة وانسي. في يوم من الأيام وبينما كنا أنا وماريا ذاهبين للتنزه في حديقة قصر فريدريك الثاني الواقع في بوتسدام، أشارت لي من القطار إلى البحيرة، وأخبرتني أنه وتحت الأشجار التي أجلس تحتها الآن، وقبل أكثر من مئتي سنة، انتحر شاعرٌ ألمانيٌ تَعَيَسُ اسمه كليست مع حبيبته. ما الذي جاء بي إلى هنا؟ لماذا عندما وقعت عيني على هذا المكان بينما

أمشي جئت إلى هنا؟ بل ما الذي جعلني وبمجرد خروجي من المنزل أتوجه إلى هنا. أكان مجيئي إلى المكان الذي انتحر فيه العاشقين وانفصلا فيه بعد انفصالي عن أكثر إنسان أثق فيه في هذه الحياة، وبعد استماعي لقولها بأن الناس يستطيعون الإقتراب من بعضهم لحدّ معين فقط.. أكان ذلك عبارة عن جواب أرد به عليها؟ أم كنت أسعى فقط لخداع نفسي؟ أم أردت تذكّر إمكانية لقاء العشاق الذين لم يتخلفوا في نصف الطريق بعضهم؟ لم أكن أعرف. لا أعرف حتى إذا ما كنت فعلاً أفكر بهذا في ذلك الوقت. لكن المكان الذي كنت فيه بدأ بإحراق الأرض تحت قدمي! أصبحت وكأنني أرى جثتي العاشقين ممددةً بجانب بعضها على الأرض؟. المرأة برصاصة في صدرها، والرجل برصاصة في رأسه. شعرت وكأنني أدوس على بحيرة الدم التي وُجدت عن طريق توحد دمائهم النازفة. اختلطت دمائهم كما اختلطت أقدارهم، وهكذا كانوا هنا، على بعد عدة خطواتٍ فقط، ممددين، وما زالوا مع بعضهما! تقهقهرت راكضاً وعدت من نفس الطريق.

كانت الضحكات تتعالى من الأسفل، من جهة البحيرة تحديداً. أزواجٌ من العشاق ممسكين لبعضهم من الخصر، كانوا يتجولون بلا توقفٍ وكأنهم في رحلة تنزّه لا تنتهي. ومن الباب النصف مشرع للكازينو الريفي كان يصدر صوت موسيقى ووقع أقدام راقصة. توجه المنهكون من التزلج إلى الكازينو مستندين على بعضهم، وهم ينشدون بعض الحماس والرقص على أية حال.

كانوا يستمتعون بوقتهم. يعيشون. بينما أنا، كنت أعلم بأنني وبانطوائي

على روعي وإغلاقي على نفسي وحيداً، لم أكن أتواجد فوقهم، بل أسفلهم كلهم. كما كنت أظن، ومازلت أشعر بعدم كون الانفصال عن القطيع ميزةً، ولا زيادةً، بل كان إعاقةً وخللاً. هؤلاء الناس يعيشون كما يجب أن يعيشون. يؤدون وظائفهم، يضيفون شيئاً إلى الحياة. أما أنا، ماذا كنت؟ روعي، كدودة شجرة، ما الذي لها أن تفعل سوى أن تقرضني؟ هذه الأشجار، والثلج الذي يغطي أغصانها وأساسها، وذلك المبنى الخشبي، وذلك الجراموفون، هذه البحيرة وطبقات الجليد التي تعتليها، وأخيراً هؤلاء الناس الكثير والمختلفون عن بعضهم، كلهم مشغولون بما تعطيهم الحياة من مهام، في كل حركةٍ من حركاتهم هدفٌ ومعنى، معنى لا يظهر في أول نظرة. أما أنا، فمثل عجل سيارةٍ يدور حول نفسه في الفراغ، وفي هذه الحال أحاول إيجاد ميزاتٍ لنفسي. من المؤكد أنني كنت أقل الرجال أهميةً في هذه الدنيا، لم تكن الحياة مع خسارتها لي تؤذيني. لم يتوقع مني أحدٌ أي شيء، ولم أتوقع من أحد شيئاً.

وهكذا واعتباراً من هذه اللحظة، بدأ التغير الذي استلم دقة حياتي. من هذه اللحظة آمنت بعدم أهميتي، وعدم فائدتي في هذا الوجود، وبين حينٍ وآخر كان يحدث وأن أحس بأني عدت إلى الحياة وبدأت أعيش. حتى بعدما كنت أفكر في ذلك بعدة أيام، كنت أصبح في وضع جديد يوقعني تحت تأثيره مدةً ويشغلني. لكن، ومن أعمق زاويةٍ في روعي، كانت تخرج دائماً قناعةٌ تخبرني بأن الوجود ليس بحاجتي. لم تنجُ أي حركةٍ عندي من تأثيرها، وحتى اليوم، ورغم مرور سنواتٍ طويلةٍ، إلا

أني ما أزال أذكر تلك اللحظة التي كسرت كل شيء، وبالذات جرأتي، وأبعدتني عن كل ما حولي، بكل تفاصيلها، وأرى أنني كنت مخطئاً في الأحكام التي أصدرتها على نفسي وقتها.

وصلت ركضاً إلى الطريق المسفلت، ومشيت باتجاه وسط برلين. لم أكل أي شيء منذ مساء البارحة، لكن فوق إحساس الجوع، كان في معدتي شعوراً بالغثيان. وفي ساقتي لم يكن هناك تعب، بل تشنُّج يمتد إلى كعب قدمي. في هذه المرة كنت أمشي ببطء غارقاً في أفكار. ومع اقترابي من المدينة كان شعوري باليأس يتنامى. لم أكن أستطيع تقبل حقيقة أنني سأقضي الأيام القادمة بعيداً عنها، وأجد هذا الاحتمال بعيداً عن الجدية، سخيلاً ومستحيلاً..

لم أكن بتلك القدرة لأن أخفض رأسي وأذهب لأتوسل لأحد أبداً. شيءٌ مثل هذا لا يصدر عني، ولو حصل فلن تكون له فائدة. كنت أنخيل أشياء تشبه خيالاتي التي كنت أنسجها في طفولتي، لكن أكثر جنوناً وسخافةً، وأكثر دمويةً منها. في الليل، وعندما يأتي دورها في الأتلانتيك، أتصل بها بالهاتف. وبعد أن أطلب منها العفو لإزعاجي لها وأودعها، أطلق رصاصةً على رأسي وأنا على الساعة، كم سيكون ذلك جميلاً! بعد أن تسمع ذلك الصوت، في البداية لن تعرف من هو، ثم وكالمجنونة ستنادي: "رائف، زائف!" منتظرةً جواباً مني. ويحتمل أنني سأبتسم وأنا أسمعها تنادي باسمي بينما ألفظ آخر أنفاسي. سوف تتخبط في يأسٍ شديد لعدم معرفتها من أي عنوانٍ هاتفتها، ولن تستطيع اخبار الشرطة عن مكاني. وفي اليوم التالي ستقرأ بقلبٍ نادٍ ويأسٍ محبطٍ

عن تفاصيل الفاجعة الغير معروفة التفاصيل في الصحف، وستدرك بأنها لن تنساني بقية عمرها، وبأني ربطت نفسي في ذاكرتها بالدم.

اقتربت من المدينة، مررت مجدداً من تحت وأعلى نفس الجسور التي عبرتها. بدأ المساء يحل، لم أكن أدري إلى أين كنت أمشي، دخلت إلى حديقة صغيرة وجلست. عيناى كانتا تحترقان، أسندت رأسي إلى الخلف ونظرت إلى السماء، كانت الثلوج تجمد قدمي، ورغم ذلك جلست لساعات. سرى بجسدي تنمّل غريب. لو تجمدت هنا مكاني وفي الغد دفنوني بلا مراسم ولاضجة. ماذا ستفعل ماريا حين تتلقى الخبر بعد أيام؟ كيف سيكون وجهها؟ هل ستندم على كل ما فعلته بي؟ كل أفكاري كانت تحوم وتدور حولها. نهضت واستمررت بالمشي في نفس الطريق. كان علي المشي لساعاتٍ أخرى حتى أصل لمنتصف المدينة، بدأت في الحديث مع نفسي في الطريق. كنت أخاطبها، وكأنا في أول أيام لقائنا. تهجم عليّ أفكارٌ جميلة، جذابةٌ ومخادعة. من المؤكد أن كلماتي هذه كانت لتؤثر فيها وتجعلها تغير رأيها. كنت أقول لها بعينين دامتعتين، وصوتٍ مرتجفٍ أننا من المستحيل ان نفصل لأسبابٍ تافهةٍ بعد تقاربنا وقربنا الآن. وعثورنا على بعضنا البعض في هذه الدنيا الكبيرة المشغولة.. فتستغرب هي في البداية من انفعال وتأثر إنسان طبيعته السكون وتقبل كل شيءٍ كما هو، ثم تأخذ يديّ بهدوء وتبتسم لي وتقول: "معك حق!"

نعم، يجب أن أراها وأقول لها ذلك. عليها أن تغير القرار الرهيب الذي تقبلته بسهولةٍ في الصباح. سوف تغيره. بل ربما هي أيضاً

استغربت من خروجي الفوري بلا اعتراض، وحزنت. عليّ أن أراها في الحال، هذا المساء.

تسكعت حتى الساعة الحادية عشرة، وفي الليل انتظرت مقابل الأتلاتنيك متجولاً حوله. لكننا لم تأت. في النهاية سألت البواب المتأنق عنها فقال: "لا أعلم، لم تأت هذا المساء!". خمنت عندها بأن مرضها قد اشتد عليها. توجهت ركضاً إلى منزلها، لم تكن نافذتها مضيئةً، يبدو أنها نائمةٌ على كل حال. عدت إلى المهجع معتقداً بأن إزعاجي لها في هذه الساعة ليست بفكرة جيدة.

مضت ثلاثة أيام على نفس الحال وأنا أنتظرها في الطريق. في النهاية ذهبت إلى باب منزلها، نظرت إلى نوافذها المظلمة، ومن دون أن أجرؤ على فعل شيء، رجعت. كنت أجلس في غرفتي كل يوم أحاول القراءة. أقلب الصفحات من دون حتى أن أقرأ منها حرفاً، وأحياناً كنت أحاول استجماع تركيزي وأقرأ من البداية، لكن وبعد عدة أسطرٍ فقط كان عقلي يطير إلى أماكن أخرى. كنت أعرف بأنني لم أكن أفعل غير تقبّل ما يحدث في النهار كما هو، كما أتقبل قراراتي التي اتخذتها فيه، وانتظار وقتٍ أكثر ليمر. لكن ومع حلول المساء كانت مخيلتي تبدأ في النشاط، تفكّر في أشياء لن تحصل، مثل مريضٍ محموم. وفي النهاية، وضد كل قراراتي النهارية، أخرج من بيتي ليلاً في وقت متأخر، وأتجول في الطرق التي تمرّ هي منها وحول بيتها. لم أعد أسأل البواب عنها الخجلي، فأصبحت أكتفي بالمراقبة من بعيد. مرت خمسة أيام هكذا. كنت أراها كل ليلة في منامي أكثر قرباً مما كنت أراها من قبل.

في اليوم الخامس، وعندما عرفت بأنها لم تذهب لعملها مجدداً، اتصلت بالهاتف على كازينو الأتلانتيك وسألت عن ماريا بودر. أخبروني بأنها لم تستطع القدوم لعدة أيام بسبب مرضها. معنى ذلك أنها كانت مريضة حقاً، وهل كان عندي شكٌ في ذلك؟ لماذا انتظرت أن يخبرني أحد حتى أصدق بأنها مريضة؟ فليس من المعقول بأنها ستغير ساعات عملها وتطلب من البواب أن يصرفني لتتهرب مني فقط! توجهت إلى منزلها ناوياً إيقاظها إذا استلزم الأمر. كانت ضرورة الظرف تسمح لي بفعل ذلك، فليس من الحكمة إعطاء قرارٍ أتى بعد ليلة سكرٍ كل هذه الأهمية. صعدت درجات السلم وأنا أتنفس بسرعة، ولكي لا أتردد وأراجع وضعت يدي على الجرس، كانت رنة قصيرةً وانتظرت. لم تحدث أي حركةٍ بالداخل. بعدها، دقيقت الجرس مراتٍ أطول. لم أسمع وقع أقدام. لكن باب الشقة المقابل فُتح وأطلت منه خادمةٌ تبدو آثار النوم على وجهها. قالت:

- "ماذا تريد؟"

- "الساكنة هنا!"

بعد أن دققت في وجهي لوهلة، قالت بنبرةٍ عدائية:
- "ليس هناك أحد!"

قفز قلبي من مكانه، قلت:

- "هل انتقلت إلى مكانٍ آخر!"

بدى أن حيرتي وقلقي جعلها تغير من نبرتها، هزت رأسها قائلةً:
- "لا، فأمها لم تأتٍ من براغ بعد. أما هي فمرضت، ولعدم توفر أحدٍ

يعتني بها تم نقلها إلى المستشفى!

ركضت إلى الخادمة:

- "ما مرضها؟ وهل هو شديد؟ وإلى أي مستشفى أخذوها؟ ومتى؟.."

عادت الخادمة التي تفاجئت بهجوم الأسئلة خطوةً إلى الوراء وقالت:

- "لا ترفع صوتك، ستوقظ أهل المنزل. نقلوها قبل يومين؛ أخذوها إلى

مستشفى تشاريتي على الأغلب!"

- "ومرضها؟"

- "لا أعلم!"

ومن دون أن أشكر الخادمة المشدوهة حتى، ركضت قافزاً درجات

السلام خارجاً. سألت أول رجل شرطة صادفته عن عنوان المستشفى

وذهبت إلى هناك. لا أدري بأي مقصدٍ ذهبت، سرت في جسدي رهبةً

عندما رأيت البناء الكبير الممتد لمئات الأمتار، لكنني ومن دون أيّ ترددٍ

توجهت إلى البوابة الكبيرة وناديت البواب في غرفته.

لم يكن عند الحارس الذي ظهر للزائر الذي أزعجه بعد منتصف الليل

في هذا البرد القارس أي معلومة. لا عن قدوم تلك المريضة، ولا عن

مرضها، ولا عن مكان تنويمها. كان ومقابل كل سؤالٍ أسأله، ورغم

ضجره مني، يتسم قائلاً: "تعال غداً الساعة التاسعة".

بتجولي حول المبنى الكبير وأنا أفكر فيها حتى الصباح، فهمت قدر

حبي لها وارتباطي الجنوني بها تماماً. كنت أنظر إلى بعض الغرف التي

كانت نوافذها مضيئةً بإضاءةً صفراءً خفيفة، وأحاول تخمين الحجرة

التي تنام فيها ماريا، وأشعر برغبةٍ لا تقاوم بأن أكون بجانبها، أخدمها

وأسهر على راحتها وأمسح عرق جبينها بيدي.
في هذا المساء فهمت بأن الإنسان قد يرتبط بإنسان آخر أكثر من ارتباطه بالحياة. ومجدداً فهمت بأنني لو خسرتها، فإني سأتدحرج في هذه الدنيا كحبة جوزٍ جوفاء.

كانت ندفات الثلج تصطدم بجدارٍ إلى آخر وتملأ عيني. الشوارع خالية تماماً. وبين حينٍ وآخر كانت عربات الإسعاف البيضاء تدخل إلى المستشفى، وتخرج بعد زمن بسيط. حدّق في وجهي رجل شرطة بعد أن مر من جانبي مرتين، وفي المرة الثالثة سأل عن سبب تواجدي هنا. وعندما أخبرته عن وجود مريضٍ لي في الداخل، أخبرني أن أذهب وأستريح وآتي في اليوم التالي. لكنه في المرات الأخرى التي مر بها من جانبي اكتفى بالصمت حزيناً على حالي.

عندما بدأ النور بالانتشار، بدأت الحياة تسري معه في الشوارع. وبعد مدةٍ بسيطة، بدأ عدد سيارات الإسعاف الداخلة والخارجة من المستشفى بالازدياد. وفي تمام التاسعة، ورغم عدم كونه يوم زيارة، أخذت إذناً من الطبيب المناوب برؤية المريضة. كانت تعابير وجهي البائس هي ما جعلته يسمح لي بذلك على كل حال.

وُضعت ماريابودر في غرفة ذات سريرٍ واحد. أخبرتني المريضة التي جاءت بعدم إطالة المكوث في الداخل وإزعاج المريضة وإرهاقها. كانت مريضة بذات الجُنب⁽¹⁾، لكن الطبيب لم يجد

(1) التهاب رئوي يجعل التنفس مؤلماً للغاية.

المرض خطيراً. عندما التفتت ماريا ورأتني، ابتسمت على الفور. لكن وجهها تغير فجأة وأخذ حالاً مضطرباً، والمرضة لم تكن لتخرج وتتركنا وحدنا في الغرفة.

- "ماذا حصل لك رائف؟"، سألت ماريا.

لم يتغير صوتها أبداً، لكن وجهها كان شاحباً ومصفرّاً أكثر. جلست بجانبها:

- "ماذا حصل لك أنتِ؟ أرايتِ؟"، قلت.

- "لا شيء مهم... نزلةٌ وتمرّ... لكن أنت تبدو منهكاً تماماً!"

- "علمت عن مرضك من كازينو الأتلانتيك. ذهبت إلى بيتك، وأخبرتني خادمة الشقة المجاورة لشقتكم أنك هنا. لم يأذنوا لي بالدخول ليلاً، فانتظرت حتى الصباح!"

- "أين؟"

- "هنا. حول المستشفى!"

تفحصتني بنظراتها. كانت في غاية الجدية. كانت وكأنها على وشك أن تقول شيئاً، ثم تراجعَت. فتحت الممرضة الباب، ودّعت المريضة. هزّت رأسها، لكننا لم نبتسم.

مكثت ماريا بودر في المستشفى خمسةً وعشرين يوماً. وربما سيقونها لمدةٍ أطول، لكنها أخبرت الأطباء بمللها في المستشفى، وبأنها تستطيع الإعتناء بنفسها في بيتها. خرجت محملةً بتوصياتٍ ووصفاتٍ طويلة في يومٍ مثلج. لا أذكر حالياً ما فعلته في تلك الخمس والعشرين يوماً، لكنّ الغالب أنني عدا ذهابي إليها ورؤيتها، والجلوس عند رأسها، ومراقبة

وجهها المتعرق وعينيها الذابلتين بين وقتٍ وآخر، وصدرها الذي كان يتنفس بصعوبة.. عدا ذلك لم أفعل شيئاً يذكر. بل لم أعش حتى، لأنني لو عشت لتذكرت شيئاً من تلك الأيام، ولو شيئاً بسيطاً. لكن كان في داخلي وأنا بجانبها خوفٌ عظيم، خوفٌ من أن أفقدها. أصابعها النافرة من طرف السرير، وساقاها الخارجتان من أسفل نهاية الغطاء، كانوا كلهم كأطراف ميتٍ من الآن. حتى وجهها، شفاهها وخديها، كانوا كمن ينتظر فرصةً تمنعهم من هذا التحول المخيف.. وقتها ماذا سأفعل؟ نعم، سأحافظ على هدوئي، وأنجز آخر معاملاتها، وأختار مكان الدفن، وأعمل على تعزية أمها التي ستأتي وقتها من براغ، وفي النهاية سأودعها الحفرة وأتركها. سأتركها وجمع المعزين، ثم أعود لاحقاً بتخفي، وأجلس معها وحدنا. وهكذا كل شيء سيبدأ في هذه اللحظة. سأكون من تلك اللحظة قد خسرتها فعلاً. ماذا سأفعل لو حصل ذلك؟ أستغرق في التفكير والخيال إلى تلك اللحظة. ولكنني لا أستطيع تصور ما بعدها. نعم، ماذا سأفعل بعد أن أودعها الحفرة ويذهب المعزون وأبقى معها وحدي؟.. في تلك اللحظة ونظراً بأن كل أعمالها انتهت، فإن ذلك لن يكون مثيراً للسخرية، سخيلاً وبلا سبب بقدر ما وجودي على هذه الأرض كذلك. كلٌ روعي كانت في حالة فراغ. قالت لي في يوم بعد أن تحسنت حالتها:

- "تكلم مع الأطباء، ليخرجوني!"، ثم تمتت وكأنها تقول شيئاً عادياً:
- "أنت تعنتي بي أفضل منهم!"

طرت خارجاً من دون أن أرد عليها، طلب الإستشاري مكوئها لعدة

أيام أخرى، ورضينا بذلك. أخيراً، وفي يومها الخامس والعشرين، ألبستها معطفها الفروي، أمسكت بذراعها وأنزلتها السلام. أوصلتها بيتها عن طريق سيارة أجرة، ساعدني السائق ونحن صاعدون على حملها إلى طابق سكنها؛ ورغم هذا، عندما نزلت عنها ملابسها وأرحتها على سريرها كانت تبدو مرهقة جداً.

اعتباراً من تلك اللحظة اعتنيت بها أنا بنفسي فقط. كانت تأتي امرأة عجوزاً لتنظيف المنزل إلى وقت الظهر، تشعل المدفأة، وتحضر طعاماً للمريضة. ورغم إصراري وإلحاحي إلا أن مارييا رفضت تماماً إخبار أمها وجعلها تأتي. كانت تكتب بيد متعبة رسائل إلى أمها: ”أنا بخير، اعتني بنفسك واستمتعي واقضي الشتاء هناك.“

كانت تقول: ”لو جاءت فلن يساعد قدمها في شيء أبداً، لأنها هي تحتاج للعناية أصلاً. ستكتئب لرضي وتخزني معها!“، ثم تتمم مجدداً بنفس النبرة كأنها تقول شيئاً لا أهمية له:

- ”أنت موجود للعناية بي! لا حاجة لأحدٍ آخر! أو أنك سئمت؟“
لكنها لم تكن تبتسم وهي تقول ذلك، لم تكن تمزح. في الواقع هي ومنذ وقوعها مريضة لم تكذب تبتسم أبداً. قابلتني بابتسامة في اليوم الأول الذي جئت فيه إلى المستشفى، من بعدها حافظت على جدية عنيدة. في كل حالٍ ووضع، وهي تطلب شيئاً، وهي تشكر أحداً، وهي تتكلم في أي موضوع، كانت دائماً جادة. كنت أمكث عندها حتى وقت متأخر من الليل، أنتظر عند رأسها، وآتيها مبكراً صباحاً. وفي الأيام الأخيرة كنت أحضر بعض الأغطية من غرفة أمها وأنام في نفس الغرفة. الحادثة التي

حصلت في صباح رأس السنة، أو بالأصح، تلك المحادثة الصغيرة، فليس من الصواب إطلاق لفظ حادثة عليها، لم تُذكر بواسطة أيّ منا. كل شيء، زيارتي للمستشفى، وأخذي لها إلى المنزل، وحياتنا هنا، كل ذلك كانت تتلقاه وكأنه طبيعي. كنا ومن باب أضعف الإيمان، نحاول التهرب من ذكر الموضوع، لكن من المؤكد أنها كانت تفكر في شيء ما. كانت تتابعني بعينها وأنا منشغلٌ بأشياءٍ في الغرفة، وأنا أقرأ لها كتاباً بصوتٍ عالٍ. كنت أحس دائماً بمتابعتها لي، كأنها كانت تبحث عن شيءٍ فيّ. في يوم من الأيام، وفي وقت الغروب كنت أقرأ عليها حكاية جاكوب واسيرمان «الثغر الذي لم يُقبَل أبداً». هنا، كانت الحكاية تحكي عن معلمٍ لم يجبه أحدٌ في حياته، وحتى رغم عدم اعترافه بذلك لنفسه، شاخ وهو ينتظر حب أحدٍ له. الوحدة النفسية للرجل البائس، وأحلامه المتولدة في نفسه، وموته سريعاً قبل أن يكتشف ذلك أحد، صوّرت بقلم ماهر. عندما انتهت الحكاية، صممت ماريا لمدة طويلةٍ مغمضةً عينيها. ثم التفتت إلى، وقالت بنبرةٍ لا مبالية:

- "ماذا فعلت في الأيام التي تلت رأس السنة؟"

- "لم أفعل شيئاً!"

- "حقاً؟"

- "لأعرف.."

عادت لصمتها من جديد. لأول مرة تلمس هذا الموضوع، لكنني لم أكن متفاجئاً. بل حتى أنني كنت منتظراً هذا السؤال لمدة طويلة، لكن وبدل أن أجيبها كنت ألقمها طعامها. بعدها غطيها جيداً، وجلست بجانب

رأسها مجدداً، وقلت:

- "هل أقرأ لك شيئاً؟"

- "أنت حراً!"

بعد الأكل، تعودت أن أقرأ أشياء مملّة جداً محاولاً نسيانها، في لحظة ترددت:

- "لو أردتِ فسأحكى لكِ عما فعلته في تلك الأيام الخمسة، ستنامين أسرع!"

لم تضحك، ولم تجاوبني حتى. هزت رأسها موافقةً فقط. بدأت محاولاً استجماع كل ما علق في ذاكرتي من تلك الأيام. خروجي من البيت، الأماكن التي ذهبت إليها، ما رأيته وفكرت فيه عند البحيرة، كيف كانت الليالي والطرق التي مررت بها وتجولت حولها، وأخيراً، ركضتي إلى المستشفى بعد أن علمت بمرضها في آخر ليلة وانتظاري بالخارج حتى طلوع الصبح. كان صوتي في غاية السكون، وكأنني كنت أقصّ حكايةً حصلت لأحدٍ غيري. أتوقف عند التفاصيل، أحاول تحليل كل ما يدور في خاطري، ثم أسكبه للخارج. هي أيضاً لم تكن تنبس ببنت شفة. عيناها مغمضتان. ساكنةٌ وكأنها تحاول إقناعي بأنها نائمة. رغم ذلك، أكملت. كنت فوق كل ذلك وكأنني أحاول التكرار لنفسني. أقول بعض المشاعر التي أنا نفسي لم أستطع فهمها، وأتحدث حولها، وأنتقل إلى غيرها قبل أن أصل إلى نتيجة. غير مرةٍ واحدة، بينما كنت أحكيها عن رغبتني في وداعها على الهاتف، فتحت عيناها، ونظرت في وجهي بتركيز، ثم أغمضتها من جديد. لم يبْدُ على وجهها أي تعبير.

لم أكن أخفي شيئاً، فلم أرى داعٍ لذلك، لأنني لم يكن لي أي مقصد. كنت أشعر بالحوادث التي أحكيها وكأنها حصلت قبل زمنٍ بعيدٍ لإنسان لا أعرفه. تشكلت بيني وبينها مسافة. لذلك فإن أحكامي بحق نفسي وحقها، كانت بعيدة عن تفكيري وحسابي، لم أكن منصفاً تماماً. لم تخاطر عليّ بالي أيُّ من الكلمات التي كانت تهجم عليّ في الليالي التي أنتظرها فيها في الشارع، ولم أكن أحاول استذكارها. لم يكن في داخلي غير "حاجةٌ بسيطةٍ لقصّ حكايةٍ" فقط. لم أكن أقيم الوقائع من حيث أهميتها لي، بل من حيث أهميتها لها. بينما هي، ومن دون أن تصدر أي حركة، كانت تنصت إلي بكل جوارحها.

كنت أشعر بذلك تماماً. عندما حكيت لها عما كنت أفكر فيه وأنا أراقبها في المستشفى، وكيف تخيلتها ميتةً، لاحظت أن جفونها قد تحركت فقط. هذا كل ما حصل.

وعندما انتهى كلامي صمتت، وهي أيضاً. ربما استمر الوضع هكذا لعشر دقائق. أخيراً التفتت إلي بوجهها، وفتحت عينيها، ولأول مرة منذ مدةٍ طويلة، أظهرت ما يشبه الابتسامة - أو هذا ما اعتقدته - وقلت بصوتٍ غايةٍ في الهدوء:

- "ألن ننام؟"

قمت من مكاني. جهزت مكان نومي، غيرت ملابسني وأطفأت الأنوار، لكنني لم أستطع النوم لوقتٍ متأخر. حتى هي لم تستطع. عرفت أنها كانت مستيقظةً لأنني لم أسمع أنفاسها. ورغم هبوط الثقل ببطءٍ على جفني، إلا أنني انتظرت سماع صوت أنفاسها المنتظمة الذي

تعودت على سماعه كل مساء. وحتى لا أغفو إلى النوم كنت أبذل جهداً وأتقلب كثيراً.

فتحت عيني مبكراً في الصباح. مازالت الغرفة مظلمة، ومن بين ستائر النافذة كان ينفذ بصيص نورٍ بسيط. لم يكن هناك الصوت الذي اعتدت على سماعه، صوت أنفاسها. في الغرفة صمتٌ رهيبٌ ومخيف. كلانا كان ينتظر بروح مضطربة. في داخل كلِّ مناشيء يتراكم. كنت أشعر بذلك بشكل محسوس. في نفس الوقت وقعت في فضولٍ كبير؛ ياترى متى استيقظت؟ أو تراها لم تنم أبداً. رغم كلِّ سكوننا إلا أن هواءً مليئاً بأفكارنا كان ينتشر في الغرفة.

رفعت رأسي على مهل، عيناى المعتادتان على الظلام لاحظتا كون ماريا تنظر إليّ متكئة على وسادةٍ خلف ظهرها. «صباح الخير»، قلتها وخرجت لأغسل وجهي. وعندما عدت إلى الغرفة كانت المرأة المريضة في نفس وضعيتها. فتحت الستائر، وأزحت مصباح الإنارة الليلية. ورتبت فراشي، فتحت الباب للخادمة وساعدت ماريا على شرب الحليب.

كنت أفعل كل ذلك بلا كلام. كل يوم وعلى نفس المنوال، أنهض، وأنشغل بنفس الأعمال، أعمل في مصنع الصابون إلى الظهر، وبعد الظهر أقرأ لها صحيفةً أو كتاباً، وأحكيها عما فعلته ورأيت في الخارج حتى يحلّ المساء. هل كان هذا ما كان يجب أن أفعله، أم لا؟ لا أدري. كلُّ شيءٍ شقَّ طريقه بنفسه ولم أكن أنا إلاً تابعاً لما يحدث. لم تكن في داخلي أيّ رغبة. لم أكن أفكر لا في الماضي، ولا في الحاضر، لم أكن أعرف

إلا اللحظات التي أعيشها. روعي بلا رياح تعصف بها، وساكنةٌ كبحرٍ
بلا أمواج.

حلقت ذقني، وبعد أن ارتديت ملابسني استأذنت ماريًا في الذهاب:
- ”إلى أين أنت ذاهب؟“، قالت لي.

تعجبت:

- ”ألا تعرفين؟ إلى المصنع!“

- ”أيمكنك البقاء اليوم؟“

- ”نعم، ولكن لماذا؟“

- ”لأدري، أريدك أن تبقى بجانبني طوال اليوم!“

اعتبرت ذلك من هلوسات المرض؛ لكنني لم أجبها. بدأت في تصفح
الصحف التي تركتها الخادمة في ركن السرير. كان هناك اضطرابٌ
عجيب في حال ماريًا، كأن شيئاً ما كان يضايقها. تركت الصحف في
الزاوية واقتربت جالساً بجانبها، وضعت يدي على جبينها:

- ”كيف حالك اليوم؟“

- ”بخير.. أفضل بكثير.“

ودون أن تفعل شيئاً، علمت أنها لم تردني أن أرفع يدي عن جبهتها.
أحسست بالتصاق أصابعي على وجنتيها وجبهتها، وكأن كل تحكّمها
وإرادتها أصبغا في جلدها.

قلت بصوتٍ في غاية السكون: ”معنى ذلك أنك أصبحت أفضل! إذا
لماذا لم تنامي الليلة الفائتة أبداً؟“

تفاجأت، وانتشر من رقبتها إلى خديها لونٌ أحمر. كان ارتباكها واضحاً

لعدم قدرتها على إعطائي جواباً. أغمضت عينيها فجأةً، أراحت رأسها إلى الخلف وكأنها تشعر بتداعٍ، وقالت بصوتٍ لا يكاد يُسمع:
- “آه يارائف!”
- “خيراً؟”

استجمعت نفسها قليلاً. ثم قالت بأنفاسٍ متسارعة:
- “لا شيء! لا أريدك أن تتركني اليوم. أتعرف لماذا؟ ما حكيمته لي البارحة، لم أكن أظن بأنها ستهجم عليّ بمجرد أن تذهب أنت، ولا تترك لي ولا حتى دقيقةً واحدةً لراحتي.”
- “لو علمت لما أخبرتك!”
هزت رأسها قائلة:

- “لا، لم أقصد ذلك. لا أقول ذلك لنفسي. لن أثق بك بعد اليوم! أخاف من أن أتركك وحدك. نعم صحيح، هذا المساء لم أنم أبداً. فكرت فيك فقط، فيما فعلته بعد ما ذهبت من هنا، وتجولك حول المستشفى، بكل التفاصيل، حتى أني رأيت الأجزاء التي لم تخبرني عنها. بسبب هذا لن أتركك وحدك أبداً! أخاف، وليس اليوم فقط. من اليوم فصاعداً لن أتركك تغيب عن ناظري!”

تفصد جبينها عرقاً. مسحته بلطف، وفي نفس الوقت أحسست بقطرة حارة على كفي. نظرت إلى وجهها بتعجب. كانت مبتسمة، لأول مرة منذ وقتٍ طويل، بتبسم ابتسامة واضحة لاشك فيها، لكن الدموع كانت تتساقط من أحداق عينيها على خديها. أمسكت رأسها بيديّ ونومتها على ذراعي. أصبحت بتبسم أكثر، وبراحة أكبر؛ لكن زادت

غزارة دموعها أيضاً. لم تكن تصدر أي صوتٍ، حتى صوتها لم يكن يحشرج. لم أكن أتخيل إمكانية أن يبكي الإنسان بكلّ راحةٍ وبكل هدوء في هذه الدنيا. أمسكت بيديها اللتين كانتا على أغطية السرير كعصافير بيضاء وبدأت باللعب بهما. كنت أطبق أصابعي، وأفتحها مجدداً ضاغطاً على يدها وسط راحة يدي. في وسط يدها كانت هناك خطوطٌ كخطوط أوراق الشجر.

تركت رأسها ببطءٍ على المخدة:

- "ستتعبين!"، قلت لها. لمعت عيناها:

- "لا، لا!"، قالتها وهي تضم ذراعي، ثم وكأنها تكلم نفسها:

- "الآن عرفت ما الشيء الذي كان ينقصنا! هذا النقصان لم يكن فيك، بل فيّ أنا. كان ينقصني الإيمان؛ بسبب عدم إيماني بكونك تحبني إلى هذا القدر، كنت أظن بأنني لم أحبيك. الآن فهمت ذلك. معنى ذلك أن الناس أخذوا مني قابلية الإيمان. لكنني الآن مؤمنة. أنت أقمعتني. أنا أحبك. ليس إلى حد الجنون، حبٌ معقول في حدوده. أنا أريدك، في داخلي رغبةٌ عظيمة. آه لو أشفى! متى سأشفى ياترى؟"

لم أستطع أن أجبها، جففت دموع عينيها ماسحاً إياها بوجهي. من بعد ذلك، وحتى شفيت من مرضها وقامت على قدميها لم أتركها أبداً. وعندما كنت أضطر إلى شراء بعض الطعام والفاكهة، أو أذهب للمهجع لأغير ملابسني، كنت أحسّ بالساعة أو الساعتين التي أقضيها بعيداً عنها طويلةً لدرجةٍ مرعبة. عندما كنت أمسك بذراعيها وأساعدها بالجلوس على الأريكة، وأضع على ظهرها غطاءً يقيها من البرد، كنت

أشعر بسعادةٍ لا محدودةٍ لكوني قد خصصت حياتي لخدمة إنسان آخر. كنا نجلس مقابل بعضنا أمام النافذة، نتفرج على الخارج بالساعات، لا نتكلم في شيء، فقط كنا بين وهلةٍ وأخرى ننظر إلى بعضنا ونبتسم؛ كنت أشعر بسعادةٍ طفولية. استعادت قوتها قليلاً بعد عدة أسابيع. بدأنا في الخروج للتنزه سوياً عندما يكون الجو صحواً لمدة نصف ساعة.

قبل أن نخرج، كنت أساعدها بالتجهز للخروج بكل عناية، حتى أني كنت ألبسها جواربها لأنها كانت تسعل عندما تنحني. ثم ألبسها معطفها الفروي، وأساعدها على النزول من السلم ببطءٍ.. وعلى المقعد الذي يبعد عن المنزل مئةً وخمسون متراً كنا نجلس لنستريح. ومن هناك نتوجه إلى شاطئ بحيرةٍ من بحيرات تيرغارتان، ثم نشاهد الإوزَ وطحالب الماء.

وفي يوم من الأيام انتهى كل شيء. بهذه البساطة، انتهى بشكل قاطع لدرجة أنني لم أستطع أن أفهم هول ما حصل. فوجئت قليلاً فقط، وحننت كثيراً؛ لكنني لم أتوقع، ولم أفكر حتى باحتمالية أن تكون هذه الحادثة صاحبة هذا التأثير الكبير والغير قابل للتغيير على حياتي.

في الأيام الأخيرة كنت أتردد من الذهاب إلى المهجع. ورغم دفعي ثمن الإيجار مقدماً إلا أنني لم أذهب أبداً، تسبب ذلك في جعل صاحب المهجع يعاملني ببرود. في يوم من الأيام قال فراو هوبنير:

- "لو أنك انتقلت لمكانٍ آخر أخبرنا لنعلم الشرطة، لا نريدهم أن يزعمونا لاحقاً!"

قلت لأنهي الموضوع بمزحة:

- "وهل أستطيع ترككم؟" داخلاً غرفتي.

هذه الغرفة التي عشت بها أكثر من سنةٍ كاملة، أغراضِي وأمتعتي التي أحضرت معظمها من تركيا. الكتب المبعثرة هنا وهناك، كلها كانت تبدو غريبةً لي. فتحت شنطتي وأخذت بعض الأغراض التي أحتاجها. لففتها في صحيفة، وفي ذلك الوقت دخلت خادمةٌ إلى الغرفة:

- "لديك تلغرافٌ ينتظرك منذ ثلاثة أيام!"، قالتها ومدت يدها إليّ بورقةً مغلقة.

في البداية لم أفهم شيئاً. لم أستطع أن أتناول التلغراف من يد الخادمة. لا، ليس بهذه الورقة شيءٌ يخصني. كنت بعدم اطلاعي على ما فيها أحاول إبعاد المصيبة التي بداخلها عني.

كانت من نسيبي. يقول فيها: "توفي أبوك. أرسلت لك نقود رحلة العودة. تعال فوراً!". كان هذا كل ما في التلغراف، أربعة أو خمس كلماتٍ في غاية الوضوح. ورغم ذلك استمررت في التحديق بالورقة لوقتٍ طويل. قرأت كل كلمةً مجدداً وكررتها عدة مرات. ثم نهضت، تأبطت أغراضِي التي حضرتها وخرجت.

ماذا حدث؟ رأيت أن كل شيءٍ حولي على حاله كما كان، لم يتغير. لم يحدث لي شيء، ولا للأشياء حولي. ماريا تنتظرني على النافذة على كل حال. رغم ذلك فإني لم أعد "أنا" الذي كنته قبل نصف ساعة. خلف آلاف الكيلومترات، سلّم إنسان هناك روحه؛ ورغم حصول هذه الواقعة قبل عدة أيام، فلا ماريا ولا أنا شعرنا بشيء. لم تختلف الأيام عن بعضها. لكن بغتةً، ورقةٌ في حجم الكف، تقلب كل شيءٍ رأساً

على عقب، تأخذني من هذه الدنيا إلى هناك، تذكرت الآن أن هذا ليس مكاني، مكاني هو المكان الذي جاءت منه الورقة.

فهمت الآن وبعد عدة أشهرٍ خطيِّ باعتقادي أن هذه الحياة التي كانت تحيط بي كانت حقيقية، وبأملي أن تدوم على حالها. من جهةٍ كنت أتخبط غير متقبل للحقيقة. لم يكن على هذا أن يحدث. ليس بمهم هو مكان ولادتك، ولا ابن من تكون، ما كان مهماً هو أن يجد إنساناً بعضها في هذه الدنيا الصعبة وأن يصل إلى السعادة النادرة. ماعدا ذلك فهو تفاصيلٌ غير مهمة. كان على هذه المشاكل أن تحل نفسها بنفسها لتتلائم مع النقطة الأهم، حقيقة أن إنسانين قد وجدا بعضهما.

لكني كنت واعياً للغاية بأن ذلك لن يحدث. أرى الآن وبوضوح أن حياتنا هي لعبةٌ بيد تفاصيلٍ جانبيةٍ صغيرة، لأن الحياة أصلاً عبارةٌ عن تفاصيلٍ وتفرعاتٍ جانبية. منطقتنا ومنطق الحياة لا يتلائمان مع بعضهما أبداً. قد تنظر امرأةٌ من نافذة القطار إلى الخارج، فتدخل ذرة فحم إلى عيناها، فتفرك عيناها لا إرادياً، فتسبب هذه الحادثة الصغيرة بجعل إحدى أجمل العيون في العالم عمياء. أو أن قرميدةً قد يتلاعب بها الهواء فتسقط على رأس أحدٍ وتشجه. ما هو الأهم، العين أم الفحمة، القرميدة أم الرأس، وكما أن هذه الأسئلة لا تطرأ على بالنا أبداً، وكما نحن نتقبلها من دون تفكيرٍ وتفحص، فإننا كذلك مجبورون على تحمل كثير من سخافات الحياة.

هل هذه هي الحقيقة ياترى؟ في الدنيا حوادث لا يمكن تركها تمر أمامك، حوادث لا نفهم أسبابها ولا منطقتها، هذا صحيح؛ لكن

هناك أشياء غير منطقية وباطلة لدرجة أنها رغم كونها أمثلة عن الطبيعة، إلا أنه كان من الممكن أن لا تحدث، ماهي الأشياء التي كانت تربطني بهاوران مثلاً؟ ثلاث أو أربع مزارع زيتون، وعدد من مصانع الصابون، وثلة من الأقارب الذين لم يتتابني الفضول لأتعرّف عليهم حتى. ورغم ذلك فإني مربوطٌ هنا بكل حياتي وجوانبي الحية. لكن لماذا لم يكن بإمكانني البقاء هنا؟ السبب في غاية البساطة؛ كل شيء في هاوران سيتعثر ويصبح رأساً على عقب، ونسائي لن يرسلوا لي المال وبالتالي سأتخبط هنا غير قادرٍ على عمل أي شيء. لكن هناك أشياء أخرى كثيرة أيضاً: جوازات السفر، سفارات، وفيزا السفر... لا يمكن فهم قدر أهمية هذه الأشياء لحياة الإنسان، لكن من المؤكد أنها كانت مهمةً بقدر إعطاء حياتي إتجاهاً تسير فيه.

عندما أخبرت ماريابودر بالموضوع صمتت لمدة. كانت على وجهها ابتسامة غريبة: كأنها تقول بنظراتها: "ألم أقل لك؟". حاولت الحفاظ على توازني واعتدالي خوفاً من أني إذا ما قلت لها كل ما يدور بخاطري فإني سأصبح مثيراً للسخرية. لكنني قلت أكثر من مرة:

- "ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟"

- "أتسأل ماذا عليك فعله؟ طبعاً ستذهب. سأغادر أنا أيضاً بعد مدة. لن أستطيع العمل لفترةٍ طويلةٍ على كل حال. سأبقى بجانب أمي في براغ. الحياة الريفية هناك ستكون أفضل لصحتي على كل حال. سأقضي نقاهتي هناك."

تركها لي على الهامش وتحدثها عن خططها الخاصة بها أشعرتني بالذهول.

كانت ترشقني بين وقتٍ وآخر بنظراتٍ هاربة.

- "متى ستغادر؟"، سألتني.

- "لا أدري؟ بمجرد أن تصلني نقود السفر فعلي المغا..."

- "حسناً، سأذهب أنا أولاً إذاً..."

- "ماذا؟!.."

أضحكها تعجبي وذهولي:

- "أنت طفلٌ دائماً ياراتف!" قالت مكملَةً: "إظهار الإضطراب والقلق

عند مواقفٍ لا يمكنك تجاوزها طفولة. مازال لدينا وقت، سنفكر في

الأشياء التي بيننا ثم نقرر لاحقاً."

خرجت مجدداً لأقضي بضع أعمالٍ بسيطةٍ وأنهى ارتباطي بالمهجع، وعندما

عدت قرب المساء ورأيت ماريًا متجهزةً للسفر أصبت بذهولٍ بالغ.

- "هل هناك ضرورة لإضاعة المزيد من الوقت؟ لأذهب قبلك أنا

وأتركك تتجهز للسفر على راحتك. ثم، ما أدراي، قررت ترك برلين

قبلك فقط. حتى أنا لا أعرف السبب.."

- "كما تريدین!"

لم نتكلم بعدها في شيء. حتى الأشياء التي اتفقنا على أن نفكر فيها ونقرر

شيئاً بشأنها، لم نمسها بكلمةٍ حتى. في اليوم التالي سافرت بقطار المساء.

لم نخرج من بعد الظهر أبداً، جلسنا مقابل بعضنا أمام النافذة متفرجين

على الخارج. سجلنا في دفاترنا عناوين بعضنا. سأكتب عنواني فوق

ظروف الرسائل حتى تستطيع إرسال رسائلها إلي. لأنها لن تستطيع

الكتابة بالأحرف العربية⁽¹⁾، ولا يستطيع موظفي مكتب البريد قراءة الحروف اللاتينية.

لمدة ساعة كاملة تقريباً تحدثنا عن الجو، وعن طول موسم شتاء هذه السنة، وعن عدم ذوبان الثلوج رغم دخولنا في شهر شباط. كان واضحاً عليها أنها كانت تريد من الوقت أن يمر أسرع. بينما أنا، ومهما يبدو ذلك سخيفاً، فإني كنت أتمنى أن يطول بقاءنا بجانب بعضنا البعض، بل أن لا ينتهي أبداً.

رغم ذلك، إلا أن الأشياء التي تحدثنا عنها كانت سخيفةً وغير مهمةٍ لدرجة تفاجئ المرء. بين الحين والآخر ننظر لبعضنا ونبتسم ابتسامةً مذهولة، وعندما حانت ساعة قطارها كأني بها أخذت نفساً عميقاً، من بعدها مر الوقت بسرعةٍ مخيفة. بعدما وضعت أغراضها في المقصورة أصرت على نزولنا إلى رصيف المحطة وعدم جلوسنا في المقصورة. العشرون دقيقة التالية والتي امتلأت بالإبتسامات عديمة المعنى شعرت بها وهي تمر وكأنها ثانية واحدة. كانت تمر على خاطري آلاف الخواطر والأفكار المختلفة، لكنني فضلت أن أكتبها لأن الوقت ضيقٌ على أن أقولها كلها. في الحقيقة كان من الممكن أن أقول الكثير منذ الأمس، لماذا افرقنا بهذه الطريقة المباشرة؟

في آخر عدة دقائق كان يظهر على ماريا أنها خسرت بعض سكونها.

(1) تم إيقاف استخدام الحروف العربية واعتماد الحروف اللاتينية في 1928. وبما أنه كتب مذكراته بعد 10 سنوات في 1933 فهذا يعني أن القصة حصلت في عام 1921 على الأغلب. - المترجم

عندما لاحظت ذلك سعدت قليلاً. أن أراها ترحل من دون أن تضطرب أو تتأثر كان بالطبع سيحزني كثيراً. قالت وهي تضغط على يدي مرةً وتركها أخرى بطريقةٍ مبالغٍ فيها:

- "يالهِ من شيءٍ سخيفٍ! لأي سببٍ تذهب يا ترى؟"

- "أنتِ الراحلة في الحقيقة، أنا مازلت هنا!"، قلت لها.

بدت وكأنها لم تسمع ماقلت، أمسكتني من ذراعي.

- "رائف.. أنا الآن ذاهبة!"

- "نعم.. أعرف ذلك!"

حان وقت مغادرة القطار. كان أحد الموظفين يقوم بإغلاق باب المقطورة. سعدت ماريا درجة على السلم، ثم انحنت باتجاهي، وقالت بصوتٍ منخفضٍ، وببطءٍ ووضوحٍ:

- "الآن أنا ذاهبة، لكن متى ما استدعيتني أتيتك."

لم أفهم ماقصده في البداية. هي أيضاً توقفت وزادت:

- "أينما كنت أتيتك!"

هذه المرة فهمت قصدها. قفزت لأحضن يدها وأقبلها. دخلت ماريا إلى الداخل، وبدأ القطار بالحركة من دون صوتٍ ولا جلبة. ركضت بجانب النافذة التي كانت تجلس خلفها لمدة، ثم تباطأت، ثم لوحت بيدي صائحاً:

- "سأدعوك، سأدعوك بالتأكيد!"

هزت رأسها ضاحكة. نظراتها ووجهها كانا يخبرانني بأنها تصدقني.
في داخلي حزن من بقي في صدره كلام لم يقله. لأي سبب لم نتحدث في
شيء منذ البارحة؟ لماذا تحدثنا عن الحقائق، وعن متعة السفر، وعن
شتاء السنة، ولكننا لم نقرب من المواضيع التي تمسنا نحن؟ ربما كان هذا
أفضل. ما الذي كان سيغيره الكلام الكثير؟ ألم يكن كل شيء سيصل إلى
نفس النتيجة؟ ماريا وجدت أفضل طريقة، وبلا شك. عرض وقبول..
قصير، ومن دون نقاشٍ أو حساب! لم يكن من الممكن أن يكون فراقنا
أفضل من هذه الطريقة. كل الكلمات الجميلة التي كنت أحترق لندمي
على عدم قولي لها كانت عاجزة ولا تملك لونا أمام ما فعلت هي.
الآن أصبحت متفهماً تقريباً لسبب اتخاذها قرار السفر قبلي. لو أنني
ذهبت قبلها فإن أول عدة أيام بعد ذهابي في برلين ستكون مملّة جداً
ومضجرة بالنسبة لها على كل حال. حتى أنا، كنت ورغم إنشغالي
الشديد بتجهيزات السفر، وأمور جواز السفر والتذكرة والفيزا، إلا أنني
وفي كل مرة أمر من شارع كنا قد مررنا به كنت أشعر بكآبة وحزن،
رغم أنه لم يعد هناك شيء يثير الحزن. سأعود إلى تركيا، وبمجرد أن
أنهي أعمالي وأضع كل شيء في نصابه سأستدعيها لتأتي. هذا كل ما في
الأمر.. أظهرت مهارتي الكبيرة في نسج الأحلام نفسها هذه المرة.
كنت أرى أمام عينيّ القصر الجميل الذي سأشيده بالقرب من هاوران
والتلال التي ستتزه عليها والغابات.

بعد أربعة أيام، عدت إلى تركيا مروراً بولندا ورومانيا. لم يكن لهذه الرحلة أي شيء مهم يكتب عنها، ولا عن السنوات التي تلتها... لم أبدأ بالتفكير في الحادثة التي تسببت في عودتي إلى تركيا إلا عندما ركبت الباخرة في كونستانتسا. توفي أبي. شعرت بحرجٍ من نفسي لإدراكي المتأخر جداً لهذه الحقيقة. رغم أنه لم يكن هناك من سببٍ يجعلني أحبه في الحقيقة؛ كنا دائماً كغريبين عن بعضنا، ولو سألني مرة أحدهم: "هل كان أبوك شخصاً جيداً؟" فلن أجد جواباً أرد به عليه، لأن معرفتي به ضحلةٌ جداً، لا تكفي لمعرفة ما إذا كان طيباً أم سيئاً. أبي كـ "إنسان" لم يكن - بالكاد - موجوداً بالنسبة لي؛ كان مفهوماً مجرداً عن ما يقولون عنه "أب" على شكل إنسان. بصلعته المستديرة ولحيته الشعثاء كان يدخل إلى البيت في المساء بهدوءٍ مقطباً حاجبيه ولا يجدنا ولا حتى أمي مستحقين لخطابه، مختلفاً تماماً عن الرجال الذين كانوا يجلسون في المقهى ذا حوض الماء، فاتحين عروة ستراتهم، يتكلمون ضاحكين وهم يشربون العيران ويقدحون بالشتائم ويلعبون الطاولة. كم أردت أن يكون حال أبي في البيت كما هو في القهوة. في الواقع كان حتى عندما يراني وهو على تلك الحال يتخذ وجهه وضع الجدية ويصرخ بي: "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هيا اذهب إلى موقد القهوة واشرب شيئاً ثم عد إلى الحارة، العب هناك!".

كبرت، وذهبت إلى التجنيد الإجباري ولم تتغير معاملته لي. بل كنت

أشعر ولسبب ما أني كلما كبرت وزاد نضجي كنت في نظره أصغر أكثر. أصبح ينظر إلى آرائي الشخصية وأفكاري ببعض الإستخفاف. في السنوات الأخيرة، كانت موافقته لكل رغباتي وطلباتي علامةً على عدم تنزله وإعطاءه أي أهمية لي. رغم كل هذا، إلا أنه لم يكن في رأسي أي شيء يشوّه ذكراه. لم أكن سأشعر بالفراغ الذي تركه، لكنني سأشعر بغيابه. مع اقترابي من هاوران كان الحزن يهبط على صدري أكثر فأكثر. كنت أشعر بصعوبة تخيل بيتنا وقريتنا من دونه.

ليس هناك لزومٌ لأسترسل في شرح طويل لكل هذا، بل إنني أفضل ألا أتكلم عن العشر سنوات التالية أيضاً. لكن ولكي تفهم بعض المواضيع، فعليّ أن أخصص بعض الصفحات لأكتب عن أكثر مرحلة خلواً من المعنى في حياتي. لم يُحتفى بي ولم أُستقبل بترحابٍ في هاوران. ونسائي كانوا كأنما هم يسخرون مني، وأخواتي الكبار كن كالغرباء تماماً، وأمي بئسةً أكثر من السابق. أُغلق بيتنا، وانتقلت أُمي للعيش بجانب نسيبي. ولأنه لم يعرض عليّ أن أبقى معهم أنا أيضاً، بدأت بالعيش مع إحدى النساء التي عملت عندنا لفترةٍ طويلةٍ في بيت كبير وحدنا. وعندما أردت أن أتسلم أعمال أبي، أُخبرت بأن الميراث قد وُزِع قبل وفاته، ولم أستطع أن أستعلم من نسيبي عن حصتي الحقيقية مما ترك والدي. لم يذكر أحدٌ مصنعي الصابون، يُفهم من ذلك أن أبي باعها قبل مدةٍ لنسائي. وثمانها، وحتى المال والذهب الذي كان يُقال

أن أبي كان يملكه، لم أر شيئاً منه. وأمّي لم تكن مدركةً لما يدور حولها. وعندما سألتها قالت:

– ”لا أعلم يا ولدي! يبدو أن المرحوم ذهب قبل أن نخبرنا عن مكان دفنها. في آخر أيامه لم يتركه نسايبك وحده أبداً، هل كان يعرف بأنه سيموت؟ واضحٌ بأنه لم يستطع أن يخبرنا بمكان الدفينة، ماذا علينا أن نفعل الآن؟ لنذهب إلى أحد حرس المزارع على الأقل، فهم يعرفون كل شيء!“

كانت أمّي جادة، فمن بعدها لم تترك عاملاً أو حارساً في هاوران وجوارها لم تسأله. توصياتهم ونصائحهم لم تترك شجرة زيتون سالمة من الحفر، ولا زاوية جدار لم تُفحص. صرفت ماتبقى لها من من قطع الذهب القليلة في هذا السبيل، أخواتي الكبار كنّ يذهبن مع الحرس والعمال أيضاً لكنهم لم ينفقوا شيئاً، كنت ملاحظاً لسخرية وضحك أصهاري من عمليات البحث عن الدفينة التي لم تأت بنتيجة. ولكون موسم الحصاد قد ولى فلم يكن من الممكن لي أن أحصل على شيءٍ من محصول أشجار الزيتون، أمنت بعض القروش لنفسي من بيع المحصول المستقبلي لبعض أشجار الزيتون. لم يكن همّي إلا تخطي فصل الصيف هذا، وفي فصل الخريف، وبمجرد بدء موسم الزيتون، سأبذل قصارى جهدي وأحسن من وضعي ثم أرسل لماريا وأستدعيها.

منذ عودتي إلى تركيا وأنا أتراسل معها. كانت ساعات قراءتي لمكاتيبها

وكتابة ردودي لها الشيء الوحيد الذي ينشر في صدري انشراحاً وبهجةً
وسط أعمال السخيفة في أيام الخريف المليء بالطين والصيف الخائق.
بعد أن عدت إلى تركيا بشهرٍ عادت هي وأمها أيضاً إلى برلين، كنت
أرسل رسائلي إلى عنوان مركز البريد في ميدان بوتسدام، وهي تستلمها
من هناك. في أواسط الصيف كتبت لي مرةً أشياءً غريبة. تخبرني في
الرسالة أنها تحمل لي خبراً مفرحاً جداً، ولكنها لن تخبرني به إلا بنفسها
عندما تأتي. كنت قد كتبت لها بأني أو مل بأني سأستدعيها في الخريف!.
من بعد ذلك، ورغم سؤالي المتكرر لها في رسائلي، إلا أنها لم تخبرني عن
ماهية هذا الخبر. كانت تقول دائماً: ”انتظر، ستعرف عندما آتي.“

نعم، انتظرت، ليس حتى الخريف فقط، بل انتظرت عشر سنوات. ولم
أعرف هذا الخبر ”المفرح“ إلا بعد عشر سنوات، لم أعرفه إلا البارحة.
لكن لندع هذا جانباً ولأحكي كل شيء بالترتيب.

طوال الصيف، كنت أرتدي في قدمي حذاءً طويلاً، وتحتي حصان،
تجولت في مزارع الزيتون، في الجبال وسفوحها. كنت أستغرب من أن
أبي أورثني أبعد أراضيه عنا، وأكثرها جذباً وأقل محصولاً. وفي المقابل،
ترك لأخواتي وأصهارى المزارع القريبة من هاوران في السهول، والتي
تسقى بسهولة وتعطي الشجرة منها محصولاً يقدر بأكثر من سؤال. في
المناطق التي تجولت ماراً فيها على أشجار الزيتون، اكتشفت أن أكثرها،
ولعدم تشذيبها وتنظيفها، بدأت توحش، وفهمت بأنه حتى عندما كان

أبي حياً، لم يزعج أحدُ نفسه ويأتي ليجمع محصولها حتى .
يبدو أنهم استغلوا مرض أبي، وبؤس أمي وخوف أخواتي وغيابي
لصالحهم، لكنني كنت بعلمي الجاد بلا تعب آمل بأن أصلح كل شيء،
وفي كل مكتوبٍ أبعثه لماريا أعطيها أملاً وأشوقها أكثر.
في بدايات تشرين الأول، وفي تمام بداية الاستعداد لأعمال زراعة
الزيتون، وعندما نويت بأن أستدعيها، انقطعت رسائلها فجأة. كنت
قد رمت البيت، وبين كل استخفاف وسخرية أهل هاوران التي
تصل لدرجة الحقارة، وفي مقدمتهم أقاربي. أرسلت بطلب أغراضٍ
للبيت من إسطنبول، من بينها حوض استحمام، بلّطت غرفة الغسل
ووضعت فيها.

ولعدم إفشائي لأحد بسبب ما كنت أفعله كان الكل يحمل تصرفاتي
على أنها خيلاءً، وتقليد للفرنجة، وتحذلقٌ مني. فقد كان جنوناً صريحاً
لشخصٍ مثلي لم تنتظم أعماله بعد بأن يشتري خزنةً بمرآةٍ بثمان ما باع من
محصولٍ أو ماتسلف من نقود. كنت أضحك في نفسي على اتهاماتهم،
فلم يكن هناك إمكانية لأن يفهموا ما كنت أفعل، ولست مجبوراً على
أن أبرر لهم ذلك أيضاً.

لكن عدم قدوم مكتوبٍ من ماريا رغم مرور خمسة عشر أو عشرون
يوماً أوقعني في قلقٍ واضطرابٍ شديدين. ذهني الذي كان مستعداً دائماً
للشكّ والوسوسة لفني بالآلاف الاحتمالات والوساوس. استمررت

في الإرسال لها مرةً بعد مرة، وعندما لم أتلقَّ أي جوابٍ وقعت في
يأسٍ محبط. كانت الفترة ما بين رسائلها قد زادت تدريجياً من قبل،
والصفحات أصبحت أقل امتلاءً وفحوى. نشرت كل رسائلها أمامي
وقرأتها واحدةً بعد أخرى. كان هناك في رسائل الشهور الأخيرة شيءٌ
من الحيرة، وأشياءٌ تحاول التخفي، وتعابيرٌ متهربةٌ وغامضةٌ لا تشبه
طبيعة ماري الواضحة والصريحة أبداً. حتى إنني ترددت فيما إذا كانت
تريدني أن أدعوها للمجيء بسرعة، أو كانت تخاف من أن أدعوها
وبالتالي ستحزن، لأنها ستصبح في وضعٍ يجبرها على التراجع عن وعدها
لي، كنت أفكر في كل ذلك. أصبحت الآن أستخرج من كل سطرٍ، وكل
إفادةٍ نصف كاملة، وكل مزحةٍ معانٍ وتأويلاتٍ كثيرة، وأتحول لمجنون.
كل رسائلها ذهبت هباءً وكنت محقاً في كل مخاوفي.

لم أتلقى من ماري أي خبرٍ بعدها، ولم أسمع باسمها، حتى... حتى
الأمس.. لكننا لم نصل إلى هنا بعد.. بعد شهر، عادت إليّ كل رسائلها
وهي متهورة بختم "تعاد إلى مرسلها لعدم قدوم أحدٍ لاستلامها".
وقتها قطعت أملي من كل شيء. والآن، عندما أفكر بكيفية تغيري
في ظرف عدة أيام فقط فإنني أتعجب. ما كان يعطيني الدافع لأتحرك،
وأرى، وأسمع، وأحس، وأفكر، ما كان باختصار يعطيني القدرة على
العيش، كأني به انتزع من داخلي، ولم تبق إلا رسابته.

في هذه المرة، لم يكن حالي كما كان في الأيام التي تلت ليلة رأس السنة.

في تلك الأيام لم أشعر باليأس وانقطاع الأمل أبداً، لم تترك عقلي فكرة أن أذهب إليها، وأشعر بالقرب منها، أتكلم معها، وأن أقنعها. لكني الآن عاجزٌ تماماً. المسافة العظيمة التي بيننا كانت تقيد ذراعي. أقفل على نفسي في بيتي، أمشي من غرفةٍ إلى أخرى، أقرأ رسائلها ورسائل المعادة مراتٍ ومرات، أقف عند النقاط التي لم ألحظها من قبل وأضحك بمرارة.

علاقتي بأعمالي، بل على العموم علاقتي بنفسي قلت فجأة، وصلت لدرجة الصفر. تركت رجّ الزيتون، وجمعه، والذهاب به إلى المصنع وإخراج زيتته لفلانٍ وعلان. أحياناً كنت أفضل أن أنزع أحذيتي الطويلة وأخرج إلى البراري والحقول، وأتجول في أماكن لا أرى فيها وجه إنسان، وفي منتصف الليل أعود فأستلقي على فراشي وبعد عدة ساعات أستيقظ في الصباح على شعورٍ مريئٍ يسألني: "لماذا مازلت حياً إلى الآن؟".

أيامي الفارغة، وعديمة الهدف والمنطق التي كانت قبل أن أتعرف على ماريما، بدأت من جديد، رغم أن نسختها الجديدة توجعني وتشعرنى بالكرب أكثر. بينهما كان هناك فرق. أخذ مكان جهلي الذي كان يجعلني أعتقد بأن الحياة عبارةٌ عنها، عذاب إدراكي بأن الحياة من الممكن أن تُعاش بطرقٍ أخرى كثيرة. لم أعد واعياً بما يدور حولي. لم أعد أشعر بإمكانية استمتاعي بأي شيء.

في مدة قصيرة، أنقذتني تلك المرأة من حالي العاجزة والبائسة، وعلمتني بكوني رجلاً، بل إنساناً، وبأن في داخلي تتواجد جوانب مستعدة للحياة، وبأن الحياة ليست سخيفةً بالقدر الذي يُقال عنها. لكنني، وبمجرد خسارتي للرابطة بيني وبينها، وبمجرد خروجي من تحت تأثيرها، عدت إلى حالي القديمة. فهمت الآن بمقدار حاجتي الشديدة إليها. كنت محتاجاً دائماً لسندٍ مثلها، ومن دونه فليس من الممكن لي أن أعيش. ورغم ذلك عشت، لكن النتيجة واضحة. إذا كان جائزاً القول عن هذا بأنه عيش، فقد عشت.

لم أحصل من ماريا على خبر بعدها. في رسالة صاحبة المهجع في برلين فرأو فان تيدمان أخبرتني بأنها لم تعد تسكن قريباً منها، وبسبب ذلك فإنها لن تستطيع أن تفيدني في هذا الموضوع. هل هناك أحدٌ آخر لأسأله؟ كانت قد كتبت لي بأنهم بعدما عادوا من براغ انتقلوا للمنزلِ الآخر، لكنها لا تعرف عنوانه. أصبت بالذهول عندما أدركت قلة عدد الناس الذين تعرفت عليهم في ألمانيا رغم مكوثي هناك مدة عامين. لم أذهب لمكانٍ غير برلين، أعرف المدينة من شمالها وجنوبها إلى شوارعها المغلقة. لم أترك متحفاً، معرضاً فنياً، حديقة حيوانات أو نباتاتٍ، غابةً أو بحيرةً لم أزرها. رغم ذلك فإني ومن بين الملايين الذين يعيشون في هذه المدينة، لم أتكلم إلا مع عدة أشخاص، وتعرفت على شخصٍ واحدٍ فقط.

ربما كان ذلك كافياً، فكل إنسان يكفيه إنسان واحدٌ على كل حال. لكن

عندما لا يكون موجوداً؟ عندما يُخرج كل شيءٍ نفسه كخيالٍ، كحلمٍ خادعٍ ووهمٍ، فما الذي يمكن أن يُفعل؟ هذه المرة فقدت قدرتي على الإيمان والأمل، في داخلي نمت عدم ثقةٍ واطمئنانٍ لكل الناس ومرارةٌ لدرجة أنني أصبحت بين حينٍ وآخر أخاف من ذلك. ليكن من يكن، فأني إنسان أحتك به فأني أشعر به كعدو أو مخلوقٍ مضر. ورغم مرور السنوات، إلا أن هذا الشعور، وبدل أن يتلاشى ويضعف تدريجياً، فإنه اشتدّ. فالشك الذي كنت أشعر به تجاه الناس تحول إلى درجة الحقد. هربت ممن حاولوا الإقتراب مني. أكثر من كنت أخشاهم هم من كانوا الأقرب مني، أو من ظننت بأني سأجدهم أقرب إلي. كنت أقول عن أي منهم: "حتى هو بعد أن فعل ما فعل!"، ماذا فعل، ذلك لم يكن معلوماً؛ ولهذا السبب في الأصل كانت مخيلتي تتوقف فوق أسوأ الظنون وتعطي أثقل الأحكام. هكذا.. في لحظة فراق، فإن أفضل حلٍّ لعدم الوفاء بوعدي أعطيت بلهفةٍ وحماس، هو قطع العلاقة نهائياً وبلا نقاش. لا تؤخذ الرسائل من مركز البريد، ولا يُبعث بجواب. فما كان يُظن بأنه موجود يخفي في لحظة. من يدري أيّ مغامرةٍ جديدة، أيّ سعادةٍ أقرب وأكثر منطقية فتحت ذراعيها لها. ترك كل هذا، وربط طفلٍ ساذجٍ بوعدي لإدخال البهجة على قلبه ثم الدخول في حياةٍ جديدةٍ والقفز في مغامرةٍ لا يُعرف ما ستصل إليه ليس بشيءٍ قد يفكر به عقلها الرزين.

لكن لماذا لا أستطيع التكيف مع ما حصل رغم تفكيري وتحليلي

الدقيق له؟ لماذا أتردد من الخطو في كل طريقٍ جديدٍ تعرضه علي الحياة، وأسيء الظن بكل إنسان يحاول الإقتراب مني، وأقابله بقلق؟ كنت أحياناً أنسى نفسي لمدةٍ وأشعر بالقرب من إنسانٍ ما يشبهني في بعض الجوانب. لكن حكمي المخيف على الناس الذي عشتش في رأسي كان سرعان ما يُظهر نفسه ويدعوني للحقيقة ”لاتنس، لاتنس، لاتنس أنها كانت أقرب إليك... ورغم قربها منك إلا أنها فعَلت ما فعلت..“. وفي كلِّ مرةٍ يقترب مني أحدهم بمقدار خطوةٍ وأبدأ بالأمل أقول لنفسي: ”لا، لا، لا، هي اقتربت مني أكثر، إلى درجة أنه لم تعد بيننا أي مسافة.. لكن ومع ذلك، كانت النهاية!“ عدم التصديق، وعدم القدرة على التصديق.. كنت أشعر بفضاعة ذلك في كل يوم وكل لحظة. وكل المحاولات للتخلص من هذا الشعور بآت بالفشل. تزوجت، في ذلك اليوم أدركت حقيقة أن زوجتي كانت أبعد عني من كل الناس. أصبح لي أطفال، وأحببتهم، رغم أنهم لن يستطيعوا أن يعوضوني عما فقدته أبداً.

لم أشعر بالإرتباط مع أعمالي أبداً. عملت كآلة من دون أن أعرف ماذا كنت أعمل. كنت أعرف بأنني أُخدع وأشعر بمتعةٍ في ذلك، عوملت من طرف أصهاري كأبله ولم ألق لهم بالاً. أخذت الديون وفوائضها وتكاليف الزواج ما تبقى في كفي من مال. لم تكن أشجار الزيتون تُكسب شيئاً. ومن معهم مال، اعتادوا على أخذ الأملاك التي تركها عن

لم يكن معهم مال. الشجرة التي كانت تعطي محصولاً يساوي سبعة أو ثمانية ليرات في السنة لم تكن تجد من يشتريها. أصهارى، ولينقذوني من وضعي المتعسر ويمموا ثروة العائلة من التبدد فقط، دفعوا عني ديوني واشتروا مني أشجار الزيتون. لم يكن قد تبقى لي غير بيتٍ مهتك ذي أربعة عشرة غرفة وعدة قطعٍ من الأثاث.

كان والد زوجتي ما يزال في صحته ويعمل كموظفٍ في باليكسير، وعن طريق توصيته حصلت على وظيفةٍ في شركةٍ في مركز الولاية. بقيت فيها لسنوات، ومع تزايد احتياجات أسرتي كانت علاقتي بالحياة تتضاءل، واختفت جهودي التي كان عليّ أن أزيد منها. توفي أبوزوجتي فانتقلت مسؤولية أخت زوجتي وأبنائها إلي. لم يكن من الممكن أن تكفيني الأربعون ليرة التي أتقاضاها لأسد احتياجاتهم، فنقلني أحد أقارب زوجتي البعيدون إلى بنكٍ في أنقرة، البنك الذي أعمل به الآن. ولأني كنت أتقن أكثر من لغة، ورغم خجلي إلا أنه كان يأمل لي أن أترقى بسرعة. لم يحدث ماتوقع أبداً. أينما وُجدت، فبالنسبة لمن حولي كان وجودي دائماً مساوياً لعدمى. في كل مكان تخرج فرصٌ جديدة، وكان أناسٌ جديدون يعطونني آمالاً قصيرةً بأن أعيش تجربة بذل وتوزيع الحبِّ الفائض الذي أجده في روعي من جديد. لكنني لم أستطع أن أخلص نفسي من ذلك الشك. لم أثق في هذه الدنيا إلا بشخصٍ واحد، وثقت به لدرجة أن تعرضي للخيانة منه أفقدني القدرة

على الوثوق بغيره.

لست بحانقٍ عليها. كنت أشعر بأنني لا أستطيع أن أغضب أو أحنق عليها، أو أن أفكر بأفكارٍ سيئةٍ عنها. لكنني كُبرت لمرة. وانكساري هذا الذي شعرت به أمام هذه الإنسانية التي وثقت بها أكثر من أي أحد، كان كأنه قد تفرّق على كل الناس؛ لأنها كانت تمثل لي كل الإنسانية. ثم، وبعد أن رأيت أنني ورغم مرور السنين إلا أنني مازلت متعلقاً بها، أصبحت أشعر بانفعالٍ أكبر في نفسي. فهي ستكون قد نستني منذ زمنٍ طويل. من يعلم مع من تعيش الآن، ومع من تنتزه.

في أوقات العصر حين أستمع إلى ضجيج الأطفال، وأصوات وقع نعال زوجتي وجلبة الأطباق التي تغسلها في المطبخ، وشجارات أبناء أخت زوجتي، أطبق عيني وأتخيل مكان وجود ماريّا. ربما وجدت عشيراً آخر تشاهد معه الأشجار ذات الأوراق الحمراء في حديقة النباتات، أو تشاهد لوحاتٍ خالدةٍ رُسمت بريشات فنانيين كبار تحت أشعة الشمس التي تضرب بأشعتها على زجاج المعرض خفيف الإضاءة قبل الغروب. في مساء أحد الأيام وأنا عائد إلى البيت مررت بالبقال، واشترت بعض الأغراض. وبينما أنا خارجٌ من الباب، صدح راديو أحد ساكني المنزل المقابل بأوبرا "أوبيرون" لـ "ويبر"، كادت الأغراض أن تقع من يدي. كانت هذه أحد عروض الأوبرا التي حضرناها سويةً، وأعرف أيضاً أنها كان لها مع ويبر موضوعٌ آخر، فقد كانت تصفّر معزوفته ونحن

نمشي في الطريق دائماً. شعرت بشوقٍ وحسرةٍ طازجةٍ وكأننا قد
افترقنا البارحة. كل مرارات الحياة، وكل ما يخسر فيها من أشياء ثمينة
و ثروات، ينسى مع الزمن، إلا الفرص المفقوته فإنها لا تُنسى أبداً، في كل
مرة يتذكرها المرء فإن شيئاً بداخله يؤلمه. سبب ذلك على كل حال هو
الاعتقاد بأنه كان من الممكن أن يكون الوضع مختلفاً، وإلا فالإنسان
مستعد دائماً لتقبل ما يلقيه عليه القدر.

لم أشعر بعلاقةٍ تربط زوجتي، و أبنائي، أو الناس على العموم بي.
لكني كنت أعرف أنه لم يكن من حقي أن أحصل عليها. الشعور
الغريب الذي انتابني لأول مرة في يوم رأس السنة الغريب بعدم
أهميتي قد تمكن مني تماماً. ما أهميتي أنا لهؤلاء الناس؟ هل كانوا
يتحملونني لأني أوفر لهم قروش الخبز؟ الناس لا يحتاجون
للدعم المادي والمالي من بعضهم، بل للحب والإهتمام. وعندما لا
يحصلون على ذلك، يصبح وصف الوظيفة الحقيقية لرب العائلة
هو ”إطعام ثلثة من الغرباء“. أتعجل وأشتاق من الآن إلى الوقت
الذي ينتهي فيه ذلك ولا يصبحون فيه محتاجين إليّ بأي شكل.
وتدريجياً، تحولت حياتي إلى عبارةٍ عن اشتياقٍ وانتظار لهذا اليوم
الذي يبدو بعيداً. كأنني سجينٌ ينتظر إنتهاء اليوم. لم يعد للأيام
قيمةٌ إلا أنها تقربني إلى هذا اليوم البعيد. كنبته أعيش بلا شكوى
ولا شعورٍ ولا تحكم. مشاعري تدهورت تدريجياً. لم أعد أتأثر

بشيء، ولم أعد محبوباً من أي أحد.

لم يكن بإمكانني أن أغضب من الناس، لأن أغلى وأطيب وأكثر من أحببت من الناس أساءت إليّ أكبر إساءة، فهل من الممكن أن أتوقع خيراً من بقية الناس؟ لم يكن بالإمكان أن أقرب من الناس وأحبهم أيضاً، لأنني تعرضت للخيانة من أكثر إنسانية وثقت وآمنت بها. فهل أستطيع أن آمن على نفسي من البقية؟

وهكذا استمر الأعوام على كل حال، وسيأتي اليوم الذي انتظره وكل شيء سيؤول إلى نهايته. لا أريد أي شيء آخر، فالحياة لعبت معي لعبةً قذرة. حسناً، هكذا، لا ألوم نفسي ولا الآخرين، أتقبل كل ما يحدث كما هو وأتحمل بصمت، لكن ليس هناك لزومٌ لأن يذهب هذا ويمضي. أشعر بالضجر، أشعر بالضجر فقط. وليس لي شكوى أخرى.

في أحد الأيام.. أعني الأمس، يوم السبت، عدت إلى البيت في وقت الظهرية وخلعت ملابسني. طلبت مني زوجتي شراء بعض الأغراض: "ستكون الأسواق مغلقةً غداً، أتعب نفسك مسافة السوق!". ارتديت ملابسني وأنا غير راغبٍ في الذهاب. مشيت حتى وصلت إلى السوق. كان الجو حاراً جداً. الشوارع كانت مלאى بمن يتجولون بلا غايةٍ وبمن يبحثون عن هواءٍ باردٍ في مثل هذا المساء المغبر، وأنا وبعدهما أنهيت تبضعي حشرت ما اشتريته في كيس ثم تأبطته ومشيت بإتجاه التمثال. لم أسلك نفس طرق البيت المعوجة، أردت أن أمشي من الطريق المسفلت،

ولو على حساب طول المسافة. أحد الساعات الكبيرة المعلقة أمام أحد الدكاكين كانت تشير إلى السادسة. وبغثة شعرت بأحدٍ يمسك بذراعي. صرخ صوت امرأة في أعماق أذني:

- "هير رائف!"

ذهلت من طريقة الخطاب الألمانية هذه. كدت أن أستخلص ذراعي من يدها وأهرب. أمسكت بي المرأة بإحكام، كانت تقول بصوتٍ مرتفعٍ جذب أنظار الشبان لنا:

- "لا، لست مخطئة، انتم حقاً هير رائف! ياه، كم يتغير الإنسان!"

رفعت رأسي ببطئ. ومن دون أن أرى وجهها حتى، عرفت من تكون من جسدها الضخم. حتى صوتها لم يتغير أبداً، قلت:

- "أوه، فراو فان تيدمان. من كان يتوقع أني سأراك في أنقرة؟"

- "لا، لم أعد فراو فان تيدمان. ضحيت بقلب "فان" من أجل زوج.

اصبح اسمي فراو دوبكه، لكنني لست متضررة!"

- "مبروك! يعني هذا أنك..."

- "نعم صحيح، كما حزرتم. بعد أن رجعتم لبلادك بمدّة قصيرة، تركنا

نحن المهجع أيضاً، وذهبنا إلى براغ سوياً."

بمجرد سماعي لكلمة براغ شعرت برعدةٍ تسري في جسدي، لم يصبح

بمقدوري أن أمسك نفسي عن فتح الموضوع الذي فكرت فيه قبل قليل.

لكن لأي سببٍ وبأي صفةٍ كنت سأسأل؟ فلم تكن تعرف بعلاقتنا أنا

وماريا، بماذا ستفسر سؤالِي؟ أَلن تسألني من أين أعرفها؟ ثم الأشياء التي ستقولها.. أليس من الأفضل أن لا أعلمها أبداً؟ مالفائدة المرجوة من علمي وقد مرّ على الحادثة سنوات - عشر سنواتٍ تماماً، بل أكثر بقليلٍ حتى -؟

انتبهت بأننا مازلنا واقفين في منتصف الشارع فقلت:
- ”تعالى لنجلس في مكانٍ ما، فلدينا ما سنسأل عنه بعضنا. مازلت أتعجب من رؤيتي لك في أنقرة!“

- ”نعم، من الجيد لو نجلس في مكانٍ ما، لكن موعد قطارنا يقترب، بقي أقل من ساعة.. أخاف أن نفوته.. لو كنت أعلم بوجودك في أنقرة لكنت أخبرتك بالطبع. أتينا مساء البارحة، وسنغادر مساء اليوم...“
بجانب المرأة، لم ألاحظ وجود طفلة هادئةٍ بعمر ثمانية أو تسع سنوات، وجهها أصفر شاحب.

ضحكت قائلاً:

- ”وهذه بنتكم؟“

- ”لا.. قريبتى! ابني على وشك نيل شهادة البكالوريوس في الحقوق!“

- ”هل مازلتم توصونه بقراءة كتبٍ معينة؟“

لم تستطع التذكر للحظة، ثم ضحكت قائلة:

- ”نعم، معك حق، لكنه الآن لا يستمع إلى توصياتي. لقد كبر الآن.

كان عمره في الثانية عشرة وقتها... يا الله، السنوات تمضي بسرعة!“

- "صحيح.. لكنك لم تتغيري أبداً!"
«ولأنت!»

تذكرت قبل قليل أنها كانت مجاملة فلم أرد عليها.
مشينا باتجاه المحطة. احترت كيف أبدأ بالسؤال عن ماريا بودر، كان عقلي يتجول بين مواضيعٍ سخيصةٍ وليس لي علاقةٌ بها.
- "لم تخبروني عن سبب قدومك لأنقرة بعد!"
- "أها، صحيح، حسناً سأخبركم. نحن لم نأت إلى أنقرة، بل عائدون إلى ديارنا. مررنا بها فقط."

وافقت على الجلوس قليلاً عند بائع ليمونٍ وأكملت حكايتها هناك:
- "زوجي الآن في بغداد. كما تعلمون، فهو تاجر مستعمرات!"
- "لكن بغداد ليست مستعمرة ألمانية كما أذكر!"
- "أعلم يا عزيزي. لكن زوجي متخصصٌ في محاصيل المناطق الحارة، هو الآن يتاجر بتمر بغداد!"

- "وهل كان يتاجر بالتمور في الكامرون أيضاً؟"
نظرت إليّ المرأة نظرةً تقول «يا لك من متطفل»، ثم قالت:
- "لا أعلم، ابعث له برسالة وإسأله! فالنساء لا يتدخلن في أمور التجارة!"

- "والآن إلى أين تذهبون؟"
- "إلى برلين. منها أزور بلدي، ومنها.."، ثم أشارت إلى الطفلة

بجانبيها:

- "من أجل هذه الطفلة أيضاً. لأنها نحيلة فقد أمضت الشتاء معنا،
والآن نحن نعيدها."

- "معنى هذا أنكم تترددون على برلين كثيراً!"

- "مرتان في العام!"

- "أرجو أن أعمال هير دوبكه تضي على مايرام على أية حال!"

ضحكت ومالت إلى الخلف قليلاً.

مازلت لا أستطيع سؤالها. الآن عرفت لم كل هذا التردد، لم يكن بسبب
عدم معرفتي كيف أبدأ بالسؤال، بل بخوفي مما سألتقاه من إجابات.
لكن ألم يكن كل شيءٍ عندي مساوياً لبعضه؟ فليس بداخلي أي حسٍ
حي. لماذا خفت؟ قد تكون ماريًا وجدت لنفسها هير دوبكه آخر هي
الأخرى أيضاً، ربما ما زالت عزباء تركض من رجلٍ إلى رجلٍ باحثةً عن
رجلٍ "تثق فيه"، ستكون قد نسيت تفاصيل وجهي على أية حال.

عندما فكرت بذلك لاحظت بأني أنا أيضاً لم أعد أستطع تذكر ملامح
وجهها، ولأول مرةٍ منذ سنواتٍ تذكرت بأني لم أترك لي صورةً عندها،
ولا هي تركت صورةً لها عندي. وقعت في ذهول. كيف لم نفكر في ذلك
لما اقترب فراقنا؟ لنفترض أننا كنا نتوقع بأننا سنتقابل بعد مرةٍ قصيرة،
ووثقنا بذاكرتنا، لكن ماذا أقول عن وعيي بذلك الآن فقط؟ لو كنت
أعلم، ألم أكن سأشعر بحاجة النظر إلى وجهها أمام عيني؟

أذكر أني في الشهور الأولى كنت أحتفظ بكل خطوط وجهها في ذاكرتي، وفي كل لحظة كنت أستطيع إحياء صورتها أمامي بلا عناء، لاحقاً.. وعندما فهمت بأن كل شيء قد انتهى، هربت من رؤية وتخيل هذه الصورة دائماً. كنت أعرف بأني لن أستطيع تحمل ذلك. وجهها، وجه مادونا صاحبة معطف الفرو، رغم وجوده في مخيلتي فقط، إلا أنه كان مؤثراً وقوياً لدرجة تفقدني كل توازني.

الآن وعندما أردت إنعاش الذكريات والأيام القديمة، ورغم أني أعلم بأني لن أشعر بأي تأثير، بحثت عن وجهها، لكنني لم أجده.. وليس لدي صورة لها حتى.

مالزوم ذلك؟

نظرت فرأو دوبيكه إلى ساعتها ونهضت. مشينا سوية إلى المحطة.

كان انطباع المرأة عن أنقرة وتركيا جيداً جداً، فقد قالت:

- "لم أر موطناً يُحترم فيه الأجنبي بهذا القدر! حتى سويسرا ليست كذلك، رغم أنها مدينة برفاهيتها للسياح. ينظر المواطنون إلى الأجانب وكأنهم دخلوا عليهم بيوتهم عنوة. بينما في تركيا، الكل وكأنه ينتظر فرصة حتى يفعل لأجنبي معروفًا، ثم فإني قد أعجبت بأنقرة جداً!"

كانت المرأة الكبيرة تتكلم. والطفلة كانت تسبقنا بخمس أو عشر خطوات، ثم تلمس الأشجار التي كانت على أطراف الطريق. وعندما اقتربنا من المحطة، وبقرارٍ أخير، لكن وبمحاولة أن أبدو وكأنني غير

مكثرت قدر الإمكان، بدأت بالكلام:

- "هل أقربائك في برلين كثيرون؟"

- "لا، ليسو كثر. أنا في الأصل من براغ، إحدى مدن التشيك. زوجي

الأول كان هولندياً.. لماذا تسألون؟"

- "بينما كنت هناك، رأيت امرأةً يقال بأنها قريبتك."

- "أين؟"

- "في برلين. قابلتها صدفةً في معرض لوحات، على الأغلب أنها كانت

رسامة."

تذكرت فجأة:

- "حسناً.. ثم؟"

قلت بتردد:

- "ثم.. لا أدري أتكلمنا مرةً أم مرتين، كانت لها لوحةٌ جميلة.."

- "أتذكر اسمها؟"

- "على الأغلب أنه كان بودر. نعم صحيح، مارييا بودر! كان توقيعها

تحت لوحاتها، وفي الألبوم كان مكتوباً أيضاً."

لم تجب المرأة. استجمعت نفسي من جديد:

"أعرفينها؟"

- "نعم، لأي سببٍ أخبرتك بأنها قريبتك؟"

- "لا أدري. على الأغلب أنني تحدثت عن المهجع الذي كنت أسكن فيه

فقلت لي بأن لها قريبةً هناك، أو شيئاً آخر، لا أستطيع التذكر الآن طبعاً.
نتكلم عن عشر سنوات!

- "صحيح، ليس بزمينٍ قصير. أخبرتني أمها بأنه كان لماريا صديقٌ تركيٌّ مقرب، وبأنها تحدثت عنه ليومٍ كامل، فاعتراي الفضول إذا ما كنت أنت ذلك التركي. لكن أليس ذلك بغريب؟ فالمرأة لم ترى التركي الذي كانت ابنتها معجبةً به ولو لمرةٍ واحدة. كانت قد ذهبت إلى براغ في تلك السنة، لم تعلم عن رحيل الطالب التركي عن برلين إلا من ابنتها هناك!"
وصلنا إلى المحطة. مشيت فراو باتجاه القطار. كنت خائفاً من أن الموضوع إذا تغير فإنني لن أستطيع العودة إليه ولن أستطيع معرفة ما أريد معرفته. ولذلك نظرت إلى عينيها باهتمامٍ كأنني أنتظر منها أن تكمل حديثها. بعد أن صرفت فراو نادل الفندق الذي وضع لها أمتعتها في المقصورة، عادت إلي:

- "لماذا تسأل؟ قلت لي بأن معرفتك بها كانت سطحية!"

- "صحيح، لكنها تركت أثراً كبيراً علي. فلوحتها أعجبتني جداً."

- "كانت رسامةً جيدة!"

سألت بقلقٍ ظهر في داخلي فجأةً، قلقٌ لم أعرف ماهيته:

- "هل قلت بأنها كانت رسامة؟ ألم تعد كذلك؟"

المرأة، تلفتت حولها، واستدعت الطفلة، وعندما رأتها قد دخلت إلى المقصورة، حولت رأسها إليّ مجدداً:

- "طبعاً لا.."، قالت واستطردت: "لأنها قد توفيت!"
- "ماذا؟"

إنتبهتُ بأن هذه الكلمة قد خرجت من جوفي كصرخة. حول من كانوا بالقرب منا أنظارهم إلينا، وأخرجت الطفلة التي كانت في المقصورة رأسها من النافذة ونظرت إلي بتعجب.

تجولت عينا المرأة فوقني بانتباه:

- "لماذا تفاجأت لهذه الدرجة؟ لماذا اصفرّ وجهك؟ ألم تخبرني بأن معرفتكم سطحية؟"

- "مهها كان، فهو موتٌ غير متوقعٍ أبداً!"

- "صحيح، لكنه ليس بشيءٍ جديد. ربما مرت عشر سنوات."

- "عشر سنوات؟ غير ممكن..."

بعد ان حدثت في المرأة من جديد، سحبتني إلى ركن:

- "أرى أن موت ماريا بودر يعينك. دعني أحكي لك كل شيءٍ

باختصار، بعد أن رجعت أنت إلى تركيا بأسبوعين، رحلنا أنا وهير

دوبكه أيضاً. ذهبنا إلى صاحب مزرعةٍ قريبٍ لنا في جوار براغ.

هناك صادفنا أم ماريا بودر. لم تكن علاقتي بأماها جيدة، لكننا وقتها

لم نلتفت لذلك. ماريا كانت نحيلةً وواهنةً جداً، قالت بأنها مرضت

بمرض خطير في برلين. بعد مدة، عادوا مجدداً إلى برلين. كانت البنت

قد استعادت صحتها جيداً. نحن أيضاً رحلنا. ذهبنا إلى موطن زوجي

الأصلي شرق بروسيا. وعندما عدنا إلى برلين في الشتاء سمعنا بخبر وفاتها في شهر تشرين الأول. نسيت خصومتنا طبعاً واتصلت بأمرها فوراً. كانت محطمةً وحزينةً جداً، كأنها في الستين من عمرها، رغم أنها كانت في الأربعينات. وعلى حسب ما قالت لنا، فإن ماريًا وبعد أن عادوا إلى برلين، شعرت ببعض التغيرات على نفسها، ذهبت إلى الطبيب، وأخبرت بأنها حامل. في البداية سُرّت بالخبر أشد السرور، لكن ورغم كل إلحاحات أمها إلا أنها لم تخبرها بهوية الأب. كانت تقول لها دائماً: ”ستعرفين لاحقاً!“ وتتحدث عن سفر قريب تنويه. ومع تقدم شهور الحمل بدأت صحتها بالإعتلال من جديد. أخبرها الأطباء بأن ولادتها ستكون خطيرة، وأرادوا التدخل رغم أنها في شهور حملها الأخيرة، لكن ماريًا لم تقبل بأن يُمسّ الجنين إطلاقاً. بعدها تدهورت حالتها فجأة ونوّمت في المستشفى. هبوطٌ في الزلال على الأغلب. في البداية هز المرض جسدها، وقبل الولادة فقدت وعيها لعدة مرات، فتدخل الأطباء وأنقذوا حياة الجنين. ورغم ذلك فإن النوبات لم تترك ماريًا، وبعد أسبوع دخلت في موتٍ سريري. لم تستطع قول شيء. لم تكن تتوقع موتها أبداً. حتى في آخر الدقائق كانت تقول لأمرها أشياء من قبيل: ”ستفاجئين عندما تعرفين؛ لكنك ستسرين أيضاً!“ ولا تعطيها اسم الأب. تذكر أمها أن ابنتها، وقبل أن تذهب إلى براغ، كانت تحدثها عن رجلٍ تركيٍّ كثيراً، لكنها لم تر وجهه ولم تعرف اسمه. بقيت الطفلة

في المستشفيات ودور العناية حتى عمر أربع سنوات، ثم أخذتها جدتها بجانبها. كانت طفلةً واهنةً وهادئةً، لكنها لطيفةٌ جداً.. ألا تعتقد ذلك؟“
شعرت بضعفٍ مفاجئٍ كاد أن يسقطني. رأسي كان يدور، رغم ذلك كنت أقف منتصباً على قدمي وأبتسم:

- ”هذه البنت؟“، سألت وأشرت إلى الطفلة التي كانت في المقصورة.
- ”نعم، طفلةٌ حلوةٌ أليس كذلك؟ يالها من فتاةٍ مؤدبةٍ وساكنةٍ!.. من يدري كم تتوق جدتها لرؤيتها!“

كانت المرأة تنظر إلى وجهي وهي تتكلم، وفي عينيها ما يشبه وميض المكر. كان القطار على وشك المغادرة. صعدت إلى المقصورة.

وبعد قليل، كانت الإثنتان تظهران جالستين جنباً إلى جنب خلف النافذة. كانت الطفلة تنظر إلى المحطة وأحياناً إليّ بابتسامةٍ غير مبالية، ولم تفلتني المرأة من خناق نظراتها. تحرك القطار. لوحت لهم بيدي. لاحظت ضحكة فراو دويكه الماكرة. سُحِبَت الطفلة إلى الداخل.

كل هذا حدث البارحة. بينها وبين كتابتي لهذه السطور حوالي أربع وعشرين ساعة.

ليلة البارحة لم أستطع النوم ولو لثانية. تقلبت في فراشي يمنةً ويسرةً مفكراً في الطفلة، كأني أرى رأسها وهو يتحرك مع اهتزاز المقصورة. طفلةٌ بشعرٍ غزير.. لم أكن أعرف لآلون عينيها ولا شعرها، ولا حتى اسمها. غفلت عن ذلك. رغم أنها كانت تمشي بجانبنا وعلى بعد خطوةٍ مني إلا أنني لم

أهتم بالنظر لوجهها ولو لمرة. حتى عندما ودعتهم لم أصافحها. لاشيء، يا إلهي، لا أعلم أي شيء عن إبتتي أنا. من المؤكد أن المرأة شعرت بشيء ما. لماذا نظرت إلي بتلك النظرة الماكرة؟ أعتقد أنها خمنت شيئاً على كل حال، وأخذت الطفلة ورحلت. والآن هم في الطريق. رأس طفلي النائمة يهتز بينما القطار يقفز من قضيب حديدي إلى آخر.

غصت بالتفكير في كل هذا عميقاً. لكنني في النهاية لم أستطع التحمل، وتشكّل الوجه الذي أردت إبعاده عن تفكيري، تدريجياً، أمامي: ماريا بودر، مادوناتا صاحبة معطف الفرو، تقف مقابلي وفي طرف شفيتها انعطاف بسيط، وفي عينيها السوداوين نظرات عميقة. لم يكن في وجهها غضباً أو عتب، ربما بعض الحيرة فقط. لكن وفوق ذلك، كانت تنظر إليّ بشفقة ومودة. بينما أنا لم تكن لدي الجرأة لأنظر إلى عينيها. عشر سنوات، عشر سنواتٍ بالتمام، وبكل بؤس نفسي وانكسارها، غضبت على ميتة، ولمتها. أكان من الممكن أن أسيء لذكراها أكثر من مما فعلت؟ أساس حياتي، وغايتها، وسببها، شككت بها ومن دون أي تردد، من دون أن أفكر بأنني قد أكون ظلمتها. راودتني بحقها أسوأ احتمالاتٍ تطراً على عقل، ولم أتوقف ولو لمرة وأقل لنفسي أنه ربما كان هناك سببٌ لفعالها ذلك وتركها لي. بينما في الحقيقة، فإن أكبر الأسباب وأقواها هو الموت. كدت أجنّ من خزيي. يلفني شعورٌ أحمله مقابل ميت، شعور حزينٍ وندمٍ عديم الفائدة. سأقضي ما تبقى من عمري جاثياً على ركبتي،

محاوياً التكمفر عما ارتكبه بحقها من جرم. أشعر بأني لن أنجح في ذلك حتى، وبأني لن أسامح أبداً، لأنني اهتمت أكثر إنسانة براءةً بأكبر ذنب، ذنب خذلان قلب إنسان وتركه وحيداً.

قبل عدة ساعات اعتقدت بأني لن أستطع تذكر وجهها لعدم وجود صورة لها لدي.

لكن في هذه اللحظة، أراها حيةً أكثر مما كانت في حياتها. كما في اللوحة تماماً، حزينه بعض الشيء، ومستغنية. وجهها أكثر شحوباً، وعيناها أكثر سواداً. شفتها السفلى تبرز باتجاهي، وفمها على وشك أن يقول: "آه، يا رائف!". كانت حيةً أكثر من أي زمانٍ مضى. معنى ذلك أنها ماتت قبل عشر سنوات! ماتت وأنا أنتظرها، وأنا أهيب بيتي لاستقبالها. من دون أن تخبر أحداً، ولكي لا تجعلني أغرق في المستحيلات، ولكي لا تسلمني للقلق، أخذت سرّها معها وماتت.

الآن أفهم سبب الحدة التي شعرت بها تجاهها، وسبب شعوري بانحباسي داخل سورٍ لا يمكن تخطيه قبل عشر سنين. عشر سنوات، استمررت في حبها، حباً لم ينقص أبداً. لم أسمح لأي أحد عداها بالدخول إلى قلبي، لكنني الآن أحبها أكثر من أي وقتٍ مضى. أريد مد ذراعيّ إلى خيالها أمامي، وأمسك بيديها وأدفتها من جديد. حياتنا التي عشناها سوياً، فترة أربع أو خمسة أشهر، أراها بكل تفاصيلها أمام عيني. أتذكر كل نقطة، وكل كلمةٍ دارت بيننا. بدايةً من رؤيتي للوحتها في المعرض، إلى

استماعي لغنائها في الأتلانتيك، إلى وقوفها بجانبني، ونزهات حديقة النباتات، وجلساتنا أمام النافذة في الغرفة، وفترة مرضها، أعيشها كلها من جديد. هذه الذكريات، والتي تكفي للملئ حياة كاملة، كانت حية ومؤثرة أكثر مما كانت عليه في الحقيقة لأنها ضُغِطت في مدة بسيطة. تُظهر لي هذه الذكريات الآن كيف أُنِي لم أكن أعيش منذ عشر سنوات؛ وبأن كل حركاتي، وأفكاري، وأحاسيسي بعيدة عني كما لو أنها تخص أحد الغرباء. في الأصل "أنا" في عمري الذي يقارب خمسة وثلاثين سنة، لم أعش أكثر من أربع أو خمس شهور، بعدها دُفِنْتُ في أعماق شخصيتي عديمة المعنى والارتباط بي.

مساء البارحة، أدركت بعد رؤية وجه ماريام أمامي بأن حملي لهذا الجسد وهذا الرأس الذي لم يعد له صلة بي سيغدوا أمراً شاقاً. سأطعمهما كما أطعم شخصاً لا أعرفه، وأسوقهما من مكانٍ لآخر، وأتفرج عليهما برأفة واستخفافٍ دائماً. في مساء البارحة فهمت بأني وبعد أن خرجت تلك المرأة من حياتي، فقد كل شيءٍ حقيقته، فأنا كنت قد متّ بينما كنت معها، بل ربما قبل ذلك بكثير.

"شعب البيت" خرجوا مبكراً اليوم إلى التنزه، تذرعت أنا بسوء مزاجي حتى لا أذهب. منذ الصباح وأنا أكتب، بدأ المساء بالحلول ولم يعودوا بعد، لكنهم سيأتون بعد قليلٍ وهم يتضاحكون ويتصارخون. ما كانت علاقتي بهم؟ ما فائدة الروابط إذا لم تتألف الأرواح؟ لم أقل كلمةً لأحدٍ

منذ سنوات، رغم أنني أحتاج للتحدث لدرجة كبيرة. بم يفرق خنق كل شيءٍ بداخلك عن أن تُدفن حياً؟ آه يا ماريًا، لماذا كنا نجلس عند النافذة ولا نتكلم؟ لماذا كنا لا نستمع إلى تخاطب أرواحنا ونحن نمشي صامتين جنباً إلى جنب في أمسيات الخريف العاصفة؟ لماذا أنت لستِ بجانبي؟ لمدة عشر سنوات هربت من الناس بلا سبب، وظلمتهم بعدم ثقتي بهم. لو أنني بحثت فلربما وجدت أحداً مثلك. لو أنني عرفت ما حدث في ذلك الوقت، لربما اعتدت مع الوقت، وجهدت للبحث عنك في أناسٍ آخرين، لكن كل شيءٍ انتهى الآن. أنا في الواقع، وبعد ما ظلمتك هذا الظلم الكبير الذي لا يغتفر، فإني لا أريد إصلاح أي شيءٍ. ظلمت كل الناس واتهمتهم استناداً إلى حكمٍ خاطئٍ أصدرته بحقك، فهربت منهم. اليوم أفهم الحقيقة، لكنني مُجبرٌ على أحبس نفسي في وحدةٍ أبدية. فالحياة ليست إلا مقامرةً تُلعب لمرةٍ واحدة، وأنا خسرتها. ليس لي أن ألعب جولةً أخرى. من الآن وصاعداً ستبدأ حياةٌ أسوأ من حياتي السابقة. ومن جديد، سأذهب للتبضع في المساء كآلةٍ كل يوم. سأقابل أناساً لا أكثرث بمن يكونون، وسأستمع إلى كلامهم. هل بإمكان حياتي أن تكون مختلفةً عن ذلك؟ لا أظن. فلو لم تخرجك الصدفة في طريقي، لكنت قد عشت حياتي، ولكن من دون أن أكون واعياً بشيءٍ. أنت علمتني أن هناك في هذه الدنيا حياةٌ أخرى مختلفة، علمتني بأن لي روحاً. ليتك استمريت في ذلك، أنا لا ألومك، فأنا في الحقيقة أشكر

على وهبك لي إمكانية العيش في عدة أشهر. ألم تكن تلك الأشهر، بقيمة عدة أعمار؟ والجزء الذي تركته منك خلفك، ابتناءً، تتجول على وجه هذه البسيطة غير دائرية بوجود أب لها. تقاطعت طرقنا مرة. لكنني لا أعرف أي شيء عنها. لا اسمها، ولا مكانها. رغم هذا، إلا أنني سأظل ألاحقها في خيالي. سأمشي بجانبها في خيالي وأشهد حياتها تسير. سأملأ وحدة سنواتي المقبلة متخيلاً إياها وهي تكبر، وهي تذهب إلى المدرسة، وهي تضحك وكيف تفكر. في الخارج جلبتُ قادمة. يبدو أنهم قد عادوا. أريد أن أكتب وأكتب. لكن ما الفائدة؟ كتبت كل هذا، فماذا تغير؟ عليّ أن أشتري لإبنتي دفترًا جديدًا في الغد وأخبرني عنها هذا.

انتهى دفتر رائف أفندي هنا. لم يكن في الصفحات المتبقية أي ملاحظة أو كتابة، كما لو أن روحه التي خباها بتوجسٍ كبير لم يسمح بخروجها إلا مرةً واحدةً على هذه الأوراق، فانكفأ على نفسه بعدها من جديد وصمت لسنوات.

حل الصباح. ولكي أوفي بو عدي وضعت الدفتر في جيبي وذهبت إلى بيت المريض، وعندما فُتح الباب كان الجزع الذي قوبلت به وأصوات البكاء التي أتت من الداخل قد أفهممتني ما حدث. توقفت واجماً للحظة لا أدري ماذا أفعل، لم أرد أن أذهب قبل أن ألقى عليه نظرةً أخيرة،

لكنني أحسست بأنني لن أتحمّل ذلك، وبأنني لن أستطيع، وبعد أن شاهدت في ليلةٍ واحدة، بل وعشت معه أكثر جوانب حياته حياةً، لن أستطيع أن أتحمّل رؤيته وقد أصبح جثةً هامدة، فسحبت نفسي ببطيءٍ إلى الخارج. لم يؤثر فيّ موت رائف أفندي كثيراً. فلم أكن أشعر بأنني قد فقدته، بل بأنني وجدته.

قال لي مساء البارحة: ”لم نجلس معكم ونتكلم!“ أنا لا أفكر كذلك الآن. فليلة البارحة تكلمت معه طويلاً، أكثر من أي وقت. هو، وبينما كان يفارق هذه الدنيا، كان أيضاً يلج إلى حياتي مفعماً بالحياة أكثر من أي إنسان آخر. سأجده من بعد هذا اليوم دوماً بجانبني.

جلست على مكتب رائف أفندي الفارغ في الشركة، وضعت الدفتر ذو الغلاف الأسود أمامي وبدأت قراءته من جديد.

تشرين الثاني 1940 - شباط 1941

«لماذا أحببنا مادونا»

بقلم: سافان غل سونماز

نحن أمام كتاب ينظر إليه الجميع بذهول. القراء، وعشاق الأدب وبالطبع كل دور النشر وباعة الكتب. «مادونا، صاحبة معطف الفرو». رواية صباح الدين علي التي نشرها قبل سبعين عاماً، لماذا لا تنزل من أعلى قائمة أكثر الكتب مبيعاً إلى الآن؟ لو أراد أحد أن يقنعنا بأن تركيا ترد الجميل لصباح الدين علي فإن كلامه هذا باطل لأن المرتكب المجهول لجريمة قتله لم يُدّن إلى الآن. وحتى لو قلنا بأن السبب هو أن حكايته (يوسف) مصنفة ضمن أفضل مئة أثر أدبي كلاسيكي وتُدرس في المدارس، فإن ذلك أيضاً غير مقنع.

فهل من الممكن فهم سبب كون روايته (مادونا صاحبة معطف الفرو) محبوبة إلى تلك الدرجة؟

يقول أكثر من قرأوا الكتاب بأنهم وجدوا موضوع الرواية مؤثراً جداً، وبأنهم بدأوا في قراءته بناءً على توصية من أحد أصدقائهم، ولم يستطيعوا ترك الكتاب بعدها.

كون لغة الكتاب سهلةً وسلسلةً هو بالتأكيد أحد أكبر الأسباب التي تجعل القارئ يكمل القراءة، ولكنني عندما أسأل «لماذا نحب هذا

الكتاب؟» فإن كثيراً من الذين أسألهم يجيبونني بأنهم تأثروا جداً بما رُوي فيه، ويتنهدون وهم يخبرونني بأنه «للأسف لا توجد قصص حب مثل هذه في زماننا هذا». وهذا نسج له كأحد الأسباب.

ماذا حصل منذ عام 1943 إلى عام 2013؟

نُشرت الرواية مفرقةً على 48 جزءاً في صحيفة الحقيقة على الفترة الواقعة بين 18 ديسمبر 1940 و 8 فبراير 1941 تحت اسم «حكاية كبيرة». بدأ صباح الدين علي في كتابتها وهو في خدمته العسكرية الثانية في خيمة بمنطقة بويوكدره وأرسلها أولاً بأول إلى الصحيفة، وفي أيام كتابته للرواية سقط من حصانٍ وكُسرت ذراعه اليمنى، بعدها أصبح ينقع ذراعه في ماءٍ دافئٍ ثم يكمل الكتابة.

عندما نأتي إلى عنوان الكتاب، فكر الأديب جودت قدرت بأن يسميه «الرجل عديم الفائدة» لكن لم يعجبه الاسم كفايةً فراجع عنه. بينما قال مصطفى بيرتيف بأن صباح الدين صنف الكتاب كحكاية في البداية وأعطاه عنوان (ثمانية وعشرون) ثم عرض الصفحة الأولى على مصطفى وأخبره بأنه اختار العنوان ثمانية وعشرون لأن بطله الحكاية كانت في عمرها الثامن والعشرين عندما تعرف عليها.

من هي صاحبة معطف الفرو هذه؟

لقد قيل عن هوية مادونا صاحبة معطف الفرو الكثير. فبينما كان صديق صباح الدين موفق شرف يقول بأن المرأة كانت أحد عازفات الأوكسترا في أحد كازينوهات تقسيم، كان سوقي سانلي يدعي بأنها فتاةٌ وقع في حبها صباح الدين وهو شاب.

في الحقيقة، فإن صباح الدين علي، كان قد تحدث عن بطلة الرواية في أحد رسائله إلى عائشة صدقي في تموز عام 1933 بوضوح: « كنت عاشقاً لامرأة في ألمانيا اسمها فروليان بودر. (تُعرف هذه المرأة بين أصدقائي باسم 28) كانت قد مثلت في فلم (المغني المجنون) المشهور في ذلك الوقت، وقتها كانت أغنية sonny boy على السنة الجميع. الآن وعندما أهمهم بتلك الأغنية أتذكر ذهابي مع 28 إلى المتاحف ودور السينما في أيام تشرين أول الضبابية والممطرة. كنت ونحن في الطريق أسرح في تأمل وجهها فلا أرى طريقي، هي أيضاً كانت تهزّ رأسها نحوي بابتسامةٍ خفيفةٍ تريد أن تفهمني بأنها تعذرني فيما أفعله. بين كل من عشقتهن، لم تعاملني احداهن بقدر ما عاملتني هي بطيها ولطفها. ورغم أنها لم تجعلني أشم رائحة طرف اصبعها حتى، إلا أنها لم تكن تحزنني، وكانت تعرف كيف تحافظ على المسافة التي كانت بيننا كما هي دون أن تتسع أو تضيق...»

نُشرت الرواية أول مرة ككتاب في عام 1943 بواسطة دار رمزي للنشر. كان أول ناقد لها هو الشاعر ناظم حكمت وفي مايو 1934 أرسل من سجنه الذي كان محبوباً فيه هذا النقد التالي بحق الرواية:

” مادونا صاحبة معطف الفرو، هذا الكتاب أحبيته، وغضبت منه. لأشرح لكم أولاً سبب غضبي. القسم الأول من الكتاب رائع جداً. فهذا القسم وبطريقته الخاصة كان على وشك أن يتوسع في تحليل الوجه الخفي لعائلة بورجوازية جديدة بطريقتة عظيمة لدرجة أن الإنسان عندما ينتقل إلى القسم الثاني، ورغماً عنه، سيقول يا للأسف،

فهذا شيءٌ أصيلٌ وابتكاري، فالمقدمة المتقنة والمميزة صُرفت هباءً. لو أنها لم تُستخدم هكذا فقط. فأنا وبينما كنت أقرأ القسم الأول وصلت إلى طريق برلين الجديدة، أنا معجبٌ جداً بالواقعية التي فهمتها من معانيك. لو تستمع لنصيحتي وتأخذ تلك المقدمة وتعيد موت البطل باختصارٍ في روايةٍ منفصلةٍ تدور حول حيوات أفراد تلك العائلة، لو تأخذ بنصيحتي هذه فإن الموسيقى التي نسمعها في القسم الأول لن تنقطع فجأةً. مجيئاً إلى القسم الثاني، فذلك القسم ومن بدايته فهو جميلٌ كحكاية كبيرة وتجربتك المهمة هذه كانت تلزم الأدب التركي كثيراً. وأنت أتممت هذه التجربة بنجاح.

بعد أن قُتل صباح الدين في عام 1948 لم تُنشر أعماله لفترةٍ طويلة، بل إنهم قد حاولوا جعلها تنسى، وفلم تُخرج أعماله من تحت الرماد وتُنشر مجدداً إلا في عام 1965.



مادونا صاحبة معطف الفرو

نحن أمام كتاب ينظر إليه الجميع بذهول. القراء، وعشاق الأدب وبالطبع كل دور النشر وِباعة الكتب. "مادونا صاحبة معطف الفرو". رواية صباح الدين علي التي نشرها قبل سبعين عاماً، لمانا لا تنزل من أعلى قائمة أكثر الكتب مبيعا إلى الآن؟ لو أراد أحد أن يقنعنا بأن تركيا ترد الجميل لصباح الدين علي فإن كلامه هذا باطل لأن المرتكب المجهول لجريمة قتله لم يُدن إلى الآن. وحتى لو قلنا بأن السبب هو أن حكايته (يوسف) مصنفة ضمن أفضل مئة أثر أدبي كلاسيكي وتُدرس في المدارس، فإن ذلك أيضا غير مقنع. فهل من الممكن فهم سبب كون روايته (مادونا صاحبة معطف الفرو) محبوبة إلى تلك الدرجة؟

يقول أكثر من قرأوا الكتاب بأنهم وجدوا موضوع الرواية مؤثراً جداً، وبأنهم بدأوا قراءته بناءً على توصية من أحد أصدقائهم، ولم يستطيعوا ترك الكتاب بعدها. كون لفحة الكتاب سهلة وسلسلة هو بالتأكيد أحد أكبر الأسباب التي تجعل القارئ يكمل القراءة، ولكنني عندما أسأل "لماذا نحب هذا الكتاب؟" فإن كثيراً من الذين أسألهم يجيبونني بأنهم تأثروا جداً مما رُوي فيه، ويتنهدون وهم يخبرونني بأنه "للأسف لا توجد قصص حب مثل هذه في زماننا هذا". وهذا نسجته كأحد الأسباب.

سافان غل سونماز

ISBN 978-9938-833-41-6



9 789938 833416

Cover Painting :
Black and Pearl by Jack Vettriano
Design by Mahdi Abdu

@darathar
#رواية_مادونا

